



كلية الآداب بقنا
قسم التاريخ

دراسات في تاريخ الدولة العباسية

الأستاذ الدكتور

صلاح سليم طايح

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

جامعة جنوب الوادي

بيانات الكتاب

الكلية : التربية بقنا

الفرقة : الثانية اساسي دراسات اجتماعية

التخصص : تاريخ

العام الجامعي : ٢٠٢٤-٢٠٢٥ م

مقدمة:

لم تعد الكتابة فى التاريخ الإسلامى مجرد سرد لسير الخلفاء ووصف لمجاس طربهم ولهوم وللحياة فى قصورهم أو ذكر لحروبهم ووقائعهم ، وإنما أضحت نظرة واسعة للحياة الإسلامىة ، أرحب ما تكون النظرات ، وإنما لآبد أن نعطى لهذا التاريخ مفهوما يعبر عنه ودينامىة تسير حركاته تسير غور أعماقه .

(صرخة ألم ... أمة تستغيث)

ويقول الشيخ محمد الخضرى فى كتابه « تاريخ الدولة العباسىة » لمن الكتب المهمة التى يجب أن يطلع عليها كل مسلم لأنها تحكى لنا تاريخ أمة كانت فى مقدمة الركب تستقى منها الأمم الأخرى كل معايير الحياة عندما كانت تطبق هذه القاعدة (ث ن ذ ث ت ث ث ث ث ث ث) فلما تركت هذه الآىة أصبحت فى ذيل القافلة تسير ذليلة منكسرة يلقى إليها فتات الموائد فتأكل وعفن العقول فترضى فهى دعوة أسوقها إلى الهمم النخرة لاستنفارها لإنقاذ الأمة الغائبة، فهو واجب على كل فرد من أفراد الأمة أن يستفرع كل وسعه لنصرة هذا الدين وهذل من جراء العهد الذى أخذه الله على البشرية كلها بقوله تعالى : (و و و و و ي ي ي ي ي پ پ □ □ □ □ □ □ □ □) فهى أمانة تعبيد الناس لرب الناس ، وسيادة شريعة رب العالمين على الأرض وقيادة الأمم الكافرة بأيد مؤمنة .

وبعد ففى الصفحات التالىة مجموعة من المحاضرات التى قمت بجمعها من بطون المصادر الإسلامىة وبطون المراجع، وحاولت أن أعالج من خلالها تاريخ الدولة العباسىة فى عصرها الأول فتعرضت لدراسة التاريخ السياسى لهذا العصر بوجه عام مع التركيز على السياسة الخارجىة للدولة العباسىة فى الشرق

والغرب، مع الاهتمام بالنواحي الحضارية التي ترتبت على عملية المذمغ على الأمة العربية الإسلامية بالعناصر الفارسية (الأعجمية) التي كان لها أعظم الأثر في إمداد الحضارة الإسلامية بدماء فتية جديفة ومادة حيوية.

هذا وقد بذلت في إخراج هذا الكتاب بهذه الصورة الجهد المضمنى ، وأملى أن أكون قد أفلحت في إعطاء العصر العباسى الأهمية التى يستحقها سواء ما يتعلق بجانبه السياسى أو ما يتصل بجانبه الحضارية.

وكما قال ابن خلدون فى مقدمته:

" إن غاية العمران، هى الحضارة، والترف، وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد ... فينسون (الناس) عصر البداوة والخشونة كأن لم يكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنيه من النعيم ونضارة العيش فيصيرون عيالاً على الدولة ومن جملة النساء والولدان والمحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ... فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته "

وعسى أن أكون قد أحرزت بعض النجاح ولا ندعى الكمال فليغفر لنا القارئ الكريم ما أكون قد وقعت فيه من زلل .

والله ولى التوفيق ،،،

د. صلاح سليم طابع
كلية الآداب بقنا
جامعة جنوب
الوادى

الفصل الأول قيام الدعوة العباسية

أولاً: الأوضاع السياسية قبل قيام الدولة العباسية:

- * الأمويون وموقفهم من التعصب القبلي (بين القيسية واليمينية) .
- * الشيعة وموقفهم من الدولة الأموية .
- * الخوارج وموقفهم من الدولة الأموية .
- * الموالى وموقفهم من الدولة الأموية .
- * نظام الوراثة فى الدولة الأموية .
- * حياة اللهو والمجون .
- * قيام الفرق الدينية .
- المرجئة .
- المعتزلة .

ثانياً: قيام الدعوة العباسية (رؤية جديدة)

قيام الدولة العباسية

أولاً: الأوضاع السياسية قبل قيام الدولة العباسية:

إذا كانت الدولة الإسلامية قد بلغت أقصى اتساع لها في عهد الدولة الأموية، وإذا كانت تلك الدولة التي قامت بسك أول نقود عربية وعربت الدواوين مما أدى إلى انتشار الإسلام واللغة العربية في البلاد المفتوحة .

فإن الدولة الأموية قد قامت بالمعارضة تحيط بها من كل جانب منذ بدايتها فكانت بمثابة معاول هدم في صرح الدولة حتى قضى عليها أخيراً ويمكننا أن نقسم عوامل ضعف الدولة الأموية وسقوطها إلى:

* الأمويون وموقفهم من التعصب القبلي (بين القيسية واليمنية):

سادت الدولة الأموية المنازعات القبلية القديمة بين اليمنية والمضرية القيسية ومال الخلفاء إلى اليمنية تارة وإلى المضرية تارة أخرى. ففي بداية الدولة كانت اليمنية من مناصري الدولة الأموية ومؤيديها ، وقام الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ / ٦٦١ - ٦٧٩م) بمصاهرتهم حيث تزوج إحدى اليمنيات التي أنجبت منه ابنه يزيد "وفي عهد مروان بن الحكم (٦٤-٦٥هـ / ٦٨٣ - ٦٨٤م) وقف اليمنيون إلى جانب الدولة الأموية ضد القيسية الذين كادوا يناصرون الزبير ابن العوام في موقعة مرج راهط ثم لم يلبث الخلفاء أن أخذوا يترددون في مناصرة عصابة دون أخرى ، وصار اضطهاد العصابة الأخرى أمراً واضحاً ملموساً فعلى سبيل المثال نجد أن الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ / ٧١٩ - ٧٢٣م) يقف ضد اليمنية وينزل بهم صفوف الاضطهاد ويقتل زعمائهم مثل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الذي نكس أسرته كذلك، مما نتج عنه قيام أهل بيته من اليمنية بثورة عنيفة ضد البيت الأموي. وما أن تولى الخلافة هشام بن عبد الملك (١٠٤-١٢٥هـ / ٧٢٢ - ٧٤٢م) حتى أخذ جانب القيسية مما أدى إلى وقوف الصبية اليمنية ضد الحكم الأموي كذلك قام الخليفة

الوليد ابن يزيد بن عبد الملك (١٢٥-١٢٦هـ / ٧٤٢ - ٧٤٣م) باضطهاد اليمينية وقتل زعيمهم خالد بن عبد الله القسري.

وكان الولاة من كل عصابة ينحازون لعصبتهم ضد العصابة الأخرى، مما يركى هذا النوع، فإذا كان الوالى قيسيا مثلا اختار عماله من القيسية مما يدفع باليمينية إلى الثورة والعكس صحيح ، وقد ساعد خلفاء الدولة الأموية على أزكاء هذا النزاع بانضمامهم إلى فريق دون آخر ، كما رأينا لمصالحهم الخاصة بدلا من محاولة زيادة الهوة بينهما، وكثيرا ما كانت تقع بينهم الحروب الدولية حتى احتفظ لدى شعراء هذا العصر مثل الأخطل والفرزدق وجريير بالكثير من أخبارها. وقد كان هذا الصراع بين اليمينية والقيسية وموقف الدولة الأموية منه من أهم العوامل التى أدت إلى ضعف الدولة وسقوطها فى نهاية الأمر^(١).

* الشيعة وموقفهم من الدولة الأموية:

كانت الشيعة أشد الأحزاب معارضة للدولة الأموية، والشيعة هم شيعة على بن أبى طالب ، وكانوا يرون أن الإمامة حق لعلى وأولاده من بعده ، وبعد مقتل على حمل أبناؤه لواء المعارضة ضد الأمويين فطالب الحسن بن على بالخلافة، وسرعان ما تنازل عن حقه فيها، ثم ثار الحسين ابن على فى عهد يزيد بن معاوية ، ولكنه قتل فى معركة كربلاء وتلا عدد من أئمة هذا الحزب الشيعى ، كان الفشل من نصيب ثوراتهم فواجهوا الكثير من الاضطهاد، فذكر منهم زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وولده يحيى اللذان قاما بثورات ضد الأمويين وكان مصيرها القتل^(٢).

وعنهما ظهرت الشيعة الزيدية وهم لا يكفرون أبا بكر وعمر بن الخطاب ولا يقهرونها بالاستيلاء على حق على فى الخلافة كما أنهما لا يألهون عليا بن أبى طالب وغيره من أئمة الشيعة وبهذا فهم من أكثر المذاهب الشيعية آنذاك.

(١) فيليب خوري: تاريخ العرب، مج ١، ترجمة محمد مبروك نافع، ط ٢، القاهرة ١٩٤٩م، ص ٣٤٣ - ٣٤٤، ٣٤٦.

(٢) أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة، دار الفكر العربي، ص ٤١٠.

ولم يقض هذا الاضطهاد على المعركة الشيعية بل أننا نجد أنهم أمام هذا لجأوا إلى مناطق بعيدة مثل المغرب، خراسان ، يعملون هناك سويا ضد الدولة الأموية ، فقويت شوكتهم وزاد اتباعهم.^(١)

* الخوارج وموقفهم من الدولة الأموية:

الخوارج هم الذين خرجوا على - على بن أبى طالب، لأنهم اتهموه بأنه لم يتوخ الحق حين قبل التحكم والخوارج لا يؤمنون بالوراثة كأساس لنظام الحكم بل يرون أن يتولى الخليفة منصبه بالأختيار ، وأن يسير فى الناس ترتضيها فإن حاد عنها يجب عليه أن يترك الحكم ولما كان بنو أمية قد جعلوا من حكمهم نظاما ملكيا وراثيا فقد عارضهم الخوارج وكثرت ثوراتهم ضد الدولة، مما استنفذ الكثير من قواهم.^(٢)

* الموالى وموقفهم من الدولة الأموية:

الموالى هم أهل البلاد التى افتتحها العرب ودخلوا الإسلام وقد آلم هؤلاء الموالى سياسة الدولة الأموية التى حرمتهم المساواة مع العرب ومن تولى الوظائف الكبرى ومن العطاء، بل أنها فرضت عليهم الجزية رغم دخولهم الإسلام وطلبت الدولة منهم إثبات إسلامهم إثباتا صريحا وهو أمر يصعب تحقيقه، وذلك على الرغم من تعاليم الإسلام التى سادت بين الجميع على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم.

فى عهد الدولة الأموية تفاقمت الأزمة المالية بتناقص موارد بيت المال فالدولة فقد بلغت أقصى حدودها، وكان هذا يعنى انخفاض مثل تلك الموارد بتوقف العنت، وتبع ذلك تناقض فى الجزية بعد دخول أهل البلاد المفتوحة فى الإسلام وأسقاط الجزية عليهم نتيجة لذلك. وقد حدث هذا النقص فى الموارد المالية فى الوقت الذى كانت فيه الدولة الإسلامية قد بدأت فى الاستقرار

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٣، ص٢٠٧، ٢٦٤-٢٦٥، ٢٦٦.

(٢) البغدادى: الفرق بين الفرق، ص٧٧-٨٧؛ ابن الجوزى: المنتظم، ج٥، ص١٢٦، ١٣٤.

والتحضر، فاتخذت الجيوش النظامية وأقامت الدواوين ونظمت الإدارة وكعلاج لهذا الأمر سمعت الدولة إلى الحصول على المال بكافة الطرق فحاسبت العمال محاسبة دقيقة وتشدد هؤلاء مع الرعية بدرهم ، وبدأت الدولة تنفيذ السياسة السابقة مع الموالي.

وكان موالي خراسان هم أكثر الموالي تذكرًا من الحكم الأموي، إذ على الرغم من سابقتهم في الإسلام ومشاركتهم للعرب من الحرب ضد الترك والهند لم يحظ باية مساواة مع العنصر العربي، فتجمعوا حول الحارث بن سريج وطالبوا بالمساواة مع العنصر العربي، فتجمعوا حول الحارث بن سريج وطالبوا بالمساواة مع العرب، كما قام أهل الكوفة كذلك والتفوا حول المختار ابن أبي عبيد الثقفي. بعد أن وعدهم بالعمل على تحسين أحوالهم وفي المغرب قام ميسرة الحقيير بثورة عنيفة ضد الدولة الأموية بعد أن حاول مع وفد مغربي مقابل مساواة الموالي مع العرب. وتعطينا المصادر صورة من مطالبهم هذه ومنها نستطيع أن نرسم صورة واضحة لما كان عليه وضع الموالي آنذاك ، تقول المصادر: أن هذا الوفد حاول لقاء الخليفة بعد وصوله إلى دمشق فطلبوا الأذن ، فصعب عليهم فاتوا الأبرش (رئيس وزراء هشام بن عبد الملك) فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا ويجنده (أي الجند العربي) فإن أصحبت نقلهم دوننا وقال أحق به فقلنا هو أخلص لجهادنا وإذا حاصرنا مدينة ، قال تقدموا واحضر جنده فقلنا تقدموا فإنه ازدياد في الجهاد ومثلكم كفى إخوانه فوقيناهم بأنفسنا وكفيهاهم ثم أنهم عمدوا إلى ماشيتنا ، فجعلوا يبترونها عين السخال، يطلبون الفراء الأبيض للأمير المؤمنين، فاحتملنا ذلك وخليناهم وذلك ، ثم أنهم أخذوا كل جمالية من بلدنا ، فقلنا لم نجد هذا في كتاب ولا سنة أحسن مسلمون فاحببنا أن نعلم، أيمن رأى أمير المؤمنين ذلك أم لا؟ قال الأبرش نفعل فلما طال عليهم ونفذت نفقاتهم كتبوا اسمائهم في رقاع ورفعوها إلى الوزراء وقالوا هذه أسمائنا وأنسائنا ، فإن سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه ثم كان وجههم إلى أفريقية.

وهكذا نرى أن موضوع الشكوى كان سببه التفرقة فى العمالة بين العرب وأهل المغرب، وعدم تطبيق مبدأ المساواة بينهم.

ويرى بعض المؤرخين أن الدولة الأموية كان لها العذر فى عدم تطبيق مبدأ المساواة بينهم.

ويرى بعض المؤرخين أن الدولة الأموية كان لها العذر فى عدم استعانتها بالموالد فى تدبير أمور الدولة ويتساءلون هل إذا سبق العباسيون والأمويين أو نجح أحد أبناء على فى تولية الخلافة أو نجح الزبيريون فى ثورتهم، هل كان أحد منهم سيتبع سياسة مغايرة مع الموالى؟ .

وفى رأيهم أنهم كانوا سيسيروا على نفس هذا الموضوع مع هؤلاء الموالى فالموالى حديثى عهد بالإسلام ، وأية دولة فى مكان الأمويين كان لا يمكن لها الاعتماد على الموالى فى تسيير الإدارة العامة للدولة.

ولقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز إصلاح خال الموالى ، فأمر عماله بإسقاط الجزية عن أسلم منهم قائلاً: "إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً " (إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه خائناً) ولكن هذه السياسة وإن كانت قد شجعت الموالى على اعتناق الإسلام إلا أنها قد أصابت بيت المال بنقص فى الموارد مما سبب الكثير من المتاعب للدولة الأموية وسارع بسقوطها^(١).

* نظام الوراثة فى الدولة الأموية:

كان نظام الوراثة وولاية العهد فى الدولة الأموية من العوامل التى أضعفتها وعجلت بسقوطها. فكان كل خليفة يعمل على أن تبقى الخلافة فى عقبه فقط ، مما يؤدى إلى قيام النزاع مع بقية رجال الأسرة، كذلك كان بعض الخلفاء يوصى بولاية العهد لأكثر من واحد من أولاده ، فبعد وفاته سرعان ما يدب النزاع

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.

بين من تولى الخلافة وإخوانه لأنه كان غالباً ما يحاول أن يوصى بها لأولاده دونهم.

وقد ظهرت مساوئ هذا النظام جلية في الفترة الأخيرة بين الدولة وخاصة بعد وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك، عام ١٢٥ هـ، وهو آخر خلفاء بني أمية العظاماء . إذ دب النزاع بين يزيد بن الوليد بن عبد الملك وبين ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي آلت إليه الخلافة وقد عرف في كتب التاريخ بالناقص لأنه نقص في اعطيات الجند وقد حاول هذا الخليفة الإصلاح إلا أنه لم يلبث أن توفي بعد أشهر قلائل وخلفه أخ له يدعى إبراهيم. واتهمه يزيد بالكفر لقد كان يزيد فاسقا سكيما وأخيرا نجح في أن يتولى الخلافة بعد أن تخلص منه قتلا إلا أن مروان بن محمد أمير الجزيرة وارمينا وأخر خلفاء بني أمية استطاع استغلال هذا النزاع لصالحه والاستئثار أخيرا بالخلافة^(١).

* حياة اللهو والمجون:

كان بعض الخلفاء في الدولة الأموية يحيون حياة بعيدة عن المثل الدينية والأخلاقية مما أغضب رجال الدين، فأخذوا يعملون على إثارة الرأي العام ضد الدولة العباسية.

ولابد لنا قبل أن نترك هذا الموضوع من الإشارة إلى ظهور فرقتين إسلاميتين كان لهما أثر كبير في تاريخ الدولة العباسية وهما المرجئة والمعتزلة^(٢).

- المرجئة:

لفظ المرجئة كما يرى البعض من الأرجاء أو التأخير، وقد أطلق هذا الاسم على هذه الجماعة لأنهم كانوا يرجئون الحكم على مرتكبي المعاصي من المسلمين إلى يوم القيامة ، كما أنهم لا يدينون أي مسلم مهما كانت المعاصي

(١) البعقوبي: تاريخه، ج ٢، ص ٢٨٠، ٣١٤؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٣٤٣.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٣٤٩.

التي ارتكبتها ويذكر المؤرخ فإن فولتين أن تلك التسمية قد جاءت من قوله سبحانه وتعالى: "وآخرون مرجون لأمر الله أما يعذبهم وأما يتوب عليهم والله عليم حكيم". بينما يذكر نيكلسون أن تلك التسمية مشتقة من الرجاء بمعنى الأمل.

مهما يكن من أمر فتوى المصادر أن المرجئة كانوا جماعة من الصحابة عاصروا الفتى الكبرى على عهدى عثمان بن عفان وماتلا مقتله من حوادث ولكنهم لم يشاركوا فيها فقد كانوا يرون أن عثمان وفريقه وأعدائه كلهم مسلمون يؤمنون ومن هنا فقد صعب عليهم اتخاذ جانب أحد الفريقين وفضلوا أن يتركوا الحكم فى هذه القضية إلى يوم البعث .

وظهر الشيعة والخوارج وأخذوا فى تكفير غيرهم من المذاهب من غير سند، ونادى المرجئة بإرجاء الحكم على الناس إلى يوم القيامة، وعاشوا مع الفرق الأخرى فى سلام وقالوا بان كل من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله فهو مؤمن وإذا ترك الصلاة فهو عاص، وإذا ارتكب معصية يحاسب عليها.

وقد ورد فى كتاب الأغاني للأصفهاني قصيدة وضعها شاعر أموى يدعى قابت قطنة وردت فيها تفاصيل آراء هذه الفرقة.

وقد استفادت الدولة الأموية كثيرا من موقف هؤلاء المرجئة فهم وإن لم يؤيدها ، إلا أن مناداتهم بترك الحكم على جميع الذنوب إلى يوم القيامة قد أضعف من موقف الشيعة والخوارج الذين كانوا يؤوضون الناس بالكفر جزافا^(١).

– المعتزلة:

أطلق على هؤلاء اسم المعتزلة لأن واصل بن عطاء الفارسي كان قد اختلف مع أستاذه الحسن البصرى فى مسألة المؤمن الذى يرتكب ذنبا كبيرا هل يسمى مؤمنا أم لا ؟ وكان واصل يرى أن مثل هذا الشخص لا يمكن أن يسمى مؤمنا كما لا يمكن أن يسمى كافرا ، بل يجب أن يوضع فى مكان وسط بين

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٦٠ - ٦٤.

المؤمن والكافر، وانتهى واصل في مكان بعيد بالمسجد وأخذ يشرح لتلاميذه رأيه، فكان الحسن البصرى يقول لمن يحضر مجلسه: اعتزل واصل هنا، ومن ثم أطلق على اتباعه اسم المعتزلة ونادى المعتزلة بترك الحكم على الذنوب والمعاصى إلى يوم القيامة. مما أضعف أيضا من موقف الشيعة والخوارج أما الأمويين.^(١)

ثانيا: قيام الدعوة العباسية (رؤية جديدة)^(٢)

كانت الأخطار التي تواجه دولة الأمويين في أخريات عهدها تتمثل في:

١- فرقة الزيدية (الشيعة) التي واجهت الأمويين عسكريا، وسقط كل من زيد بن علي سنة ١٢١ هـ/٧٣٨م، وابنه يحيى بن زيد سنة ١٢٥ هـ/٧٤٢م^(٣) شهيدين، ثم انتقل الأمر بعدهما بالوصية إلى محمد بن عبد الله (النفوس الزكية) والذي سيسقط شهيدا كذلك في عهد العباسيين وهو يطالب بما يراه حقا للعلويين^(٤).

٢- فرقة الكيسانية وهي التي تنقل الإمامة من الحسن والحسين إلى محمد بن الحنفية أخيها غير الشقيق وإلى هاشم بن محمد بن الحنفية وإلى أبي هشام هذا تروج قصة نقله للإمامة من بعده إلى علي بن عبد الله بن العباس فمحمد بن علي ابن عبد الله بن العباس أو إلى محمد هذا مباشرة، على أننا نرى أن هذه القصة تشور حولها بعض الشكوك التي تجعل وقوعها بالصورة التي رويت بها أمرا لا يرقى إلى درجة اليقين:

فتروى إحدى القصص أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب قدم على سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي وأنه حادث سليمان في

^(١) الشهرستاني: الملل والنحل، ج ٢، ص ٦٤ - ٦٥.

^(٢) وفاء محمد علي: دراسات ونظرات في التاريخ العباسي، ص ١-٣٢. (بناء على وصية أستاذي أ.د. وفاء محمد علي أن أضع هذا الجزء من بحثه في كتاب خاص يتكلم عن الدولة العباسية رحم الله أستاذي المؤرخ والعالم الجليل).

^(٣) قتل زيد بن علي بكناسة الكوفة، قتله هشام بن عبد الملك، ويحيى بن زيد قتل بجورجان خراسان، قتله أميرها الشهرستاني الملل والنحل، ص ٢١١.

^(٤) وبعد مقتل محمد وإبراهيم أخيه في عهد المنصور ولم ينتظم أمر الزيدية حتى ظهر بخراسان ناصر الأطروشى، نفس المصدر، ص ٢١١.

بعض حوائجه فقضاها له، ولكنه رأى من فصاحته ما أدهشه حتى أنه قال: "ما كلمت قرشيا قط يشبه هذا، وما أظنه إلا الذى كنا نتحدث عنه"^(١).

ثم تستطرد الرواية قائلة: "ثم شخص عبدالله بن محمد وهو يريد فلسطين، فبعث سليمان قوما إلى بلاد لحم وجدام ومعهم اللبن المسموم، فضربوا أخبية نزلوا فيها، فمر بهم: فقالوا: يا عبدالله هل لك فى شراب؟ فقال: جزيتم خيرا، ثم مر بآخرين فقالوا مثل ذلك فجزاهم خيرا، ثم مر بآخرين فاستسقى فسقوه، فلما استقر اللبن فى جوفه، قال لمن معه: أنا والله ميت ثم طلب منهم أن يميلوا به على ابن عمه محمد بن على بن عبدالله العباس بالخيمة فى أرض أشراه"^(٢)، فلما قدم إليه قال: يا ابن عم أنا ميت وقد صرت إليك، وهذه وصية أبى إلى وفيها أن الأمر صائر إلى ولدك والوقت الذى يكون ذلك والعلامة، وما ينبغى العمل به على ما سمع وردى عن أبيه عن على بن أبى طالب فاقبضها إليك"^(٣) ثم أن أباهاشم مات سنة ٧٩٨هـ/٧١٦م.

وهى قضية تشبه الأسطورة فى ترتيب التخلص من أبى هاشم بسمه، فهل كان سمه يحتاج إلى كل هذه الإعدادات فى طريقه؟ ثم لماذا رفض أن يشرب مرتين ثم وافق أن يشرب فى الثالثة؟

وماذا كان سيحدث لو رفض أن يشرب فى المرة الثالثة كذلك؟ وهل يعقل أن يخرج كما ذكر فى يوم شديد الحر دون أن يتزود بما يروى ظمأه على الطريق؟

على أن العجب يتراءى واضحا من هذا الإمام الذى كان يدعو لنفسه وفى يده وصية بأن الأمر سيئول إلى بنى العباس، وإن هذا الأمر قال به على

(١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٢٩٦.

(٢) الحُمَيْمَة : وهى عن الشوبك أقل من مسيرة يوم بينها وبين الشوبك وادى موسى وهى من الشوبك قبلة بغرب وتلك البقعة التى هى من الشوبك إلى جهة الغرب والقبلة يقال لها الشراه: أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج ١، ص ٢٠٩. وكان الأمويين قد اقطعوا العباسيين الحُمَيْمَة حيث عاشوا فيها سالمين معاهدين لبني أمية.

(٣) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ٩٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ١٥٩.

بن أبى طالب ﷺ نفسه، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يجهد نفسه ويعرضها للخطر؟، وهل كان وحده هو الذى يعرف سر هذه الوصية دون سائر العلويين؟!.

إنها قصة يبدو فيها الوضع واضحا ولا يمكن أن ترقى إلى درجة اليقين ثم أن قصة القتل بالسم هذه قد راجت كثيرا فى عهد الأمويين تشنيعا من أعدائهم عليهم كلما مات رجل من آل البيت ولكثرة الشائعات كان يصدق كل إدعاء^(١).

ولتبرير رفض أبى هاشم الشراب الذى قدم إليه أكثر من مرة فى الطريق ثم شربه فى نهايته مع توجسه شرا من تقديم الشراب إليه يروى صاحب الإمامة والسياسة أن محمدا خرج من عند سليمان فى وقت شديد الحر فكان لا يمر بموضع إلا قام إليه الرجل بعد الرجل يقول له: هل لك فى شربه سويق اللوز، وسويق كذا يا ابن بنت رسول الله ونفسه موجسة منهم، فيقول بارك الله لكم، حتى إذا خرج إلى آخر الطريق خرج إليه رجل من خبائه ويده عصا، فقال له: هل لك فى شربة لبن يا ابن بنت رسول الله؟ فوقع فى نفسه أن اللبن مما لا يسم، فشرب منه ثم مضى فلم ينشب أن وجد للسم حسا^(٢).

فترتيب من معهم السم على الطريق بحيث يكون حاملوا سويق اللوز وسويق كذا وكذا على طول الطريق ولكن حامل اللبن يكون فى آخره ليتناول أبو هاشم السم برغم توجسه وبرغم قطعه للطريق كله يتضح فيه الوضع والاختراع.

وهناك رواية أخرى تدعى أن قصة السم هذه وقعت فى عهد الوليد بن عبد الملك وليس سليمان وأن السم كان فى جلواء حملت إليه مثل الزاد وما يكون للطريق، فلما أكل منها أبو هاشم أحس بالسم فتحامل على نفسه إلى الحميمية وبها ولد عبدالله بن العباس بنو عمه فأعلمهم أن له رعاة وعرفهم أن هذا الأمر فيهم ويصل إليهم^(٣).

(١) محمد شاكر: تاريخ الدولة العباسية، ص ٤١.

(٢) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج ٢، ص ١٠٩.

(٣) مجهول: العيون، ص ١٨١.

وهكذا تختلف الأقوال في الخليفة الذي تم في عهده سم أبي هاشم وفي نوع الشراب الذي وضع فيه السم وهو ما يشكك في وقوع حادثة السم على أيدي الأمويين.

على أننا لا ندرى الحكمة في سم يقضى على صاحبه بعد شهرين وهو ما يجعل أمامه فرصة للعلاج والشفاء، وإذا كان سما لا يقتل صاحبه إلا بعد شهرين فكيف يحس به فور وصوله إلى معدته ويدرك أنه ميت؟ وهذا ما فطن إليه أحد المؤرخين حين قال "ولو كان وضع لأبي هاشم السم لقضى عليه بشكل سريع، وعادة الملوك أن تضع السم الزعاف، ولكن أباهاشم عاش بعد مغادرة سليمان ما يزيد على الشهرين وذلك سنة ٧٩٩هـ/٧١٧م^(١).

وأخيرا هل كان من حق أبي هاشم نقل الأمر من العلويين إلى العباسيين بهذه البساطة، وهل كان ممثلا لكافة العلويين؟

لعل ما يؤيد الشك في أمر تلك الوصية المزعومة من أبي هاشم محمد بن علي بن عبدالله اختلاف شيعة أبي هاشم بعد وفاته إلى خمس فرق هي: رأته أحداها صحة الوصية لمحمد بن علي، وقالت أخرى أن أباهاشم أوصى إلى أخيه علي بن محمد بن علي بن أبطالب، وعلى أوصى إلى ابنه الحسن فالإمامة لا تخرج من بني الحنفية إلى غيرهم، وقالت فرقة أخرى أن أباهاشم أوصى إلى عبدالله ابن عمرو بن حرب الكندي ثم تحولوا عنه إلى عبد الله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وقالت رابعة: أن الإمامة انتقلت من أبي هاشم إلى بنان بن سمعان، وساققتها فرقة خامسة إلى علي ابن عبدالله بن العباس بالوصية ثم ساقوها إلى محمد بن علي^(٢).

ويتضح من هذا أن أتباع أبي هاشم أنفسهم لم يكونوا مجمعين على أنه أوصى إلى محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، وإنما تعددت الوصية إلى أكثر من واحد.

(١) محمد شاکر: المصدر السابق، ص ٤٥.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل، ص ٢٠١-٢٠٥.

وهذا يهدم قصة الكتب والوصية وما قيل عن علي بن أبطالب τ من أن الأمر ينول إلى بني العباس.

ويشكك هذا في أن أيدي العباسيين الخفية وراء هذا الإدعاء بل أنه يشكك في موت أبي هاشم الذي لا شك في أنه مات في الحُمَيْمَة من أرض الشراة، ولكن كيف مات هناك؟ هنا تتور الشكوك، كما تصور الشكوك حول الوصية للعباسيين والمرجح أن هذه الوصية المزعومة هي ادعاء العباسيون بعد وفاة أبي هاشم بين زهرانيهم اكتسابا لأتباعه وتقوية لمركزهم في عمل لواء الدعوة لأنفسهم، وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد.

ويمكن القول أن عروج أبي هاشم على الحُمَيْمَة ثم وفاته كان فرصة للعباسيين عضوا عليها بالنواجذ ليحققوا بها الأمل الذي كان يراودهم في الوصول إلى الخلافة والذي من أجله وضعت الكثير من القصص.

والحق أن العباسيين كانوا يعيشون في الحُمَيْمَة التي أقطعهم إياها الخليفة الأموي الوليد بن عبدالمك هادفا من وراء ذلك إلى مراقبتهم حيث لم يغب عن الأمويين طموح العباسيين إلى الخلافة.

ومن القصص التي لا شك أنها كانت موضوعة لتؤيد حق العباسيين في الخلافة تلك القصة التي وردت في كتاب العيون والتي تقول: "لما أراد الخراسانيون القيام في أمر الدعوة لواحد من آل الرسول μ قالوا: لا يصلح هذا الأمر إلا لرجل من هؤلاء القوم، ولا يصلح إلا لرجل يجمع الناس أن فيه ثلاث خصال: يكون أعظمهم شرفا، وأفضلهم في نفسه دينا، وأسخاهم كفا، فيكون قوم يتبعونه لشرفه وموضعه وقوم يتبعونه لبراعته وفضله وقوم يتبعونه لشجاعته وكرمه، فقدموا المدينة، واتفق رأيهم على عبدالله بن الحسن فانسلوا إليه متكررين فقالوا: أن فلانا بعث بنا من خراسان وبعث معنا أموالا وأن الأموال أخذت من أيدينا وسلبت ثيابنا ونحن من خيار قومنا فلا تستهن بنا، وقد أردنا ألا تكون الصنيعة عندنا إلا لرجل يجتمع فيه خصلتان: الشرف في النسب والفضل في الدين، وقد دللنا عليك وكنت غايتنا، وقد احتجنا إلى قرض مال، وسموا له المال،

فقال عبدالله أنا أدلكم على رجل نظيرى فى الشرف والذهب والدين وهو أحمل لما تريدون منى وهو محمد بن على بن عباس، فمضوا إليه وقالوا له مثل ما قالوا لعبدالله فحمل إليهم المال وأكرمهم، وهو لا يعرفهم، فقالوا هذا رجل قد اجتمع فيه من الخصال التى أردتم وهو المجمع عليه بالفضل والبراعة، وقد أخبركم عبدالله أنه نظيره فى الجود وقد خبرتم كرمه وحسن طريقته، فهذا سبب قيامهم فى أمر دعوته^(١).

ويتضح من نسج القصة أنها عباسية موضوعة فهى ما وضعت إلا للترجيح بين رجلين يمثلان العلويين والعباسيين لترجح كفة الأخير باعتراف الأول الذى يعترف بأن محمد بن على هو نظيره فى الغنى ومع ذلك فهو أحمل منه لما يريدون فاعترافه بأنه نظيره فى الغنى ثم إحالتهم عليه وعدم قيامه لما يريدون أمر ينتقص من شأنه ومروءته وكان من الأفضل له أن يقول أن محمد بن على أقدر على القيام بما يريدون لأنه الأغنى والأقدر، ثم أنه بالنظر إلى طبيعة العربى لا نعتقد أن يتنازل رجل كعبدالله بن الحسن عن شرف كان سيناله وهو قادر على ذلك إلى غيره للقيام به.

وفى هذا المجال نرى العباسيين يعون أن النبى p أعلم عمه العباس أن الخلافة تنول إلى ولده، فلم يزل ولده يتوقعون ذلك ويتداولون بينهم الأخبار، وهم من أجل ذلك سموا محمد بن على بن عبدالله بن العباس أبا الأملاك، وعلى هذا فإن محمد بن على كان ينتظر أوقاتا معلومة وينتظر الأمر لولده ولا يسمى أحدا، على أنه إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد تنبأ لبني العباس بذلك، فهل خفى هذا على بنى على بن أبطالب؟ وإذا كانوا قد علموه فلماذا قدموا صحابهم شهيدا وراء شهيد إيماننا يقينا بأن الحق حقهم؟

على أن هذا الذى قال به حُبّه بنو العباس قال عنه ابن طباطبا، زعم ناس أنه p قال لعمة العباس r "أنها تكون فى ولدك، وأنه حين أتاه بابنه

(١) مؤلف مجهول: العيون، ص ١٧٩-١٨٠.

عبدالله أن في أذنه وتفل في فيه، وقال: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، ثم دفعه إلى أبيه وقال له: خذ إليك أبا أملاك ثم قال: "فمن زعم هذا الزعم قال: إن الدولة العباسية هي الدولة المبشر بها"^(١).

وعلى ما يؤكد أن الكثير من الروايات قد راجت لتؤيد حق هذا أو حق ذاك ما نراه على الجانب المقابل حيث راج أن محمدا النفس الزكية هو المهدي المنتظر حيث كان يروى أن النبي ﷺ قال: لو بقى من الدنيا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه مهدينا أو قائمنا اسمه كأسمى واسم أبيه كاسم أبي، فكان عبدالله المحصن يقول للناس عن ابنه محمد: هذا هو المهدي الذي بشر به محمد بن عبد الله"^(٢).

والمرجح أن هذه وتلك روايات موضوعة حاول كل طرف أن يقوى مركزه بها.

وقد قيل كذلك أن أباسلمة الخلال كبير الدعاة أخفى أبا العباس وأهل بيته عنه عند ارتحالهم إلى الكوفة، وكان يريد أن يكون الأمر في بني علي بن أبطالب، ولذلك كتب إلى جعفر ابن محمد كتابا وإلى عبد بن الحسن كتابا آخر، فأرسل جعفر إليه قائلا: لست بصاحبكم فإنما صاحبكم بأرض الشراة، أما عبدالله بن الحسن فإنه اعتذر بكبر سنه وطلب أن يكون الأمر لابنه محمد، فقال جعفر بن محمد: "أيها الشيخ"^(٣) لا تسفك دم ابنك فإنى أخاف أن يكون المقتول بأحجار الزيت".

وتروى نفس القصة في مصادر أخرى تبين كيف عرض أبوسلمة الخلال الأمر على جعفر بن محمد بن علي بن الحسن وعمر بن علي ابن الحسين بن علي وعبدالله بن الحسن بن عبدالله رضى الله عنهم فأرسل بكتبه إليهم فقال أولهم: وما أنا وأبوسلمة هو شيعة لغيرى وقرب إليه المصباح وأحرق الكتاب ولم

(١) ابن طباطبا: الفخرى، ص ١٤٣.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٦٦.

(٣) البيهقي: تاريخ البيهقي، ج ٢، ص ٣٤٩. وانظر ابن طباطبا الفخرى، ص ٥٥.

يقرأه وتمثل بقول الشاعر:

أيا موقد ناراً لغيرك ضوؤها * ويا حاطبا في غير حبلك تحتطب

أما ثانيهم فقرأ الكتاب وذهب إلى جعفر بن محمد وقال له: قد جاءني كتاب أبي سلمه يدعو إلى الخلافة ويرى أنى أحق بها، وقد جاءت شيعتنا من خراسان، فقال له جعفر بن محمد: ومتى صاروا شيعتك؟ وجهت أنت أبا مسلم إلى خراسان وأمرته بلبس السواد وغيره من الدعاة وهل تعرف أحدا منهم يكونون شيعتك وأنت لا تعرف أحداً منهم؟ ثم قال له: علم الله أننى أوجب النصح على نفسى لكل مسلم فكيف أدخره عنك فإن هذه الدولة تتم لبنى العباس وما هى لأحد من ولد أبى طالب وقد جاءني ما جاءك فلم أجب عنه وستعرف الخير، وأما عمه عمر بن على بن الحسين فإنه رد الكتاب وقال: لا أعرف كاتبة فأجيبه^(١).

ونحن لا ندري أى نوع من العلم الذى وصل إليه جعفر بن محمد حتى يعلم أن الأمر فى أبى العباس السفاح وحتى يعلم أن محمد بن عبد الله (النفس الزكية) سيقتل فى أحجار الزيت؟! فتلك ولا شك رواية عباسية موضوعة.

والحق أن العباسيين تحدثوا عن عبدالله بن الحارثية (أبى العباس السفاح) وكأنه نبى سيبعث وأن هذا سبق فى علم بعض أقطاب الشيعة وفى علم على بن أبى طالب نفسه، ولو كان الأمر كذلك ما ضحى زعماء العلويين بأرواحهم ليصل الأمر فى النهاية إلى بنى العباس فعلى لسان أبى هاشم لمحمد بن على: "يا ابن عم إنى ميت وأنت صاحب هذا الأمر، وولدك ابن الحارثية هو القائم به ثم أخوه من بعده، والله لا يتم هذا الأمر حتى تخرج الرايات السود من خراسان، ثم ليغلبن على ما بين حضرموت وأقصى إفريقية وما بين الهند وأقصى فرغانة"^(٢) وفى رواية أخرى قال: "أن هذه الدولة تتم لبنى العباس وماهى لأحد

(١) مجهول: العيون، من ص ١٩٦-١٩٧.

(٢) النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٢، ص ١٠.

من ولد على ابن أبي طالب" (١).

على أن أعرب ما فى الأمر أن هذا القول قيل فى سنة ٧١٧هـ/٧١٧م بينما أبوالعباس السفاح المعروف بابن الحارثية لأن أمه ريطة بنت عبد الله ابن عبدالله بن عبد المدان الحارثى ولد فى شهر ربيع الآخر سنة ١٠٤هـ/٧٢٢م (٢) وقيل أن رسول الله ﷺ أعلم عمه العباس أن الخلافة تتول إلى ولده، فلم يزل ولده يتوقعون ذلك ويتداولون أخباراً بينهم ويسمون محمد بن على بن عبدالله بن العباس أبا الأملاك، وكان محمد ينتظر أوقاتاً معلومة عنده وينتظر الأمر لولده ولا يسمى أحداً (٣).

على أننا ندهش لمثل هذا التبشير بدولة العباسيين، فالتاريخ يشهد أنها لم تقدم للإسلام خيراً مما قدمته دولة الأمويين التى وصلت فيها الفتوحات الإسلامية إلى أقصى مدى لها، والتاريخ يشهد كذلك أن ما أصاب العلويين فى عهد العباسيين يفوق ما أصابهم فى عهد دولة الأمويين والتاريخ يشهد كذلك بالتفتيت الذى أصاب الدولة فى عهدهم ... فعلام كان التبشير بها!؟

إن الأمر الوحيد الحقيقى الذى يمكن أن نصل إليه بعد كل ما تقدم والذى يمكن الجزم به هو أن أباهاشم مات مع الحميمة مع اختلاف فى طريقة موته وسبب موته والشك فى ذلك شكاً يرقى على اتهام بنى العباس لبنى أمية وذلك وصولاً لهدفهم الذى كانوا يسعون إليه.

ومن المجزوم به كذلك أن العباسيين كانوا قد سبقوا بالدعوة لأنفسهم قبل وصول أبى هاشم إليهم، ومن ثم كان ادعاء وصية أبى هاشم لهم ليضيفوا إلى قوتهم.

وقد بدأت الدعوة العباسية على يد محمد بن على بن عبدالله العباسى فى سنة ١٠٠هـ/٧١٨م وهى السنة التى ولد فيها محمد بن عبدالله (النفس الزكية)

(١) مجهول: المصدر السابق، ص ١٩٧.

(٢) النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٢، ص ١٢.

(٣) مجهول: العيون، ص ١٨٠.

وفى وقت كان فيه الشيعة الزيدية مازالوا يقاومون الأمويين ليسقط كل من زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بالعراق شهيدا فى سنة ١٢١هـ/٧٣٨م ثم ابنه يحيى فى خراسان سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م، وقد انتقلت الإمامة بعدهما بالوصية إلى محمد بن عبدالله (النفس الزكية).

وقد أخفى العباسيون أمرهم وتكتموه عملا على نجاح دعوتهم إلى درجة أنهم بايعوا محمد بن عبدالله فيما روى النفس الزكية نفسه فى إحدى الليالى عند اختلاف أمر بنى مروان بالخلافة فى حال سقوط الدولة الأموية وكان ممن بايعه أبو جعفر المنصور^(١) مما يدل على محاولة العباسيين ارضاء الرأى العام الشيعى فى أحقيتهم فى الخلافة حتى تحين فرصتهم للوثوب إلى الأمر الذى يعملون له والذى كان الترويج لوصية أبى هاشم لهم جزاء من السعى إليه.

لقد نجح العباسيون فى إخفاء تحركاتهم عن الأمويين والهاشميين على السواء وذلك نظراً لدقة تنظيماتهم^(٢) وتخطيطاتهم، فلما بدأت تظهر بعض خيوط هذه الدعوة كان أمرها قد تمكن وصارت فى دور العمل للتحرك الفعلى للقضاء على الأمويين ونقل الأمر عنهم.

ومن هنا نستطيع القول أنه قبيل سقوط الدولة الأموية وجدت حركتان تنظيميتان تطمحان إلى تولى مقاليد الحكم من بنى أمية لدى سقوطهم: كانت أولهما تعمل على اسقاط هذا الحكم بالقوة، وكانت الأخرى تنتظر تهأوى هذا الحكم دون أن تسعى إلى اسقاطه بعد أن سقط من رجالها زيد بن علي وابنه يحيى، الأولى حركة ثورية نشطة مركزها خراسان والكوفة^(٣) يتزعمها العباسيون الذين وجدوا فى الفرس الحاقدين على العرب خير مؤيدين لدعوتهم، والثانية حركة ثورية هادئة تتركز فى الحجاز يتزعمها محمد بن عبدالله (النفس الزكية) فى وسط يؤمن بأحقيته فى الخلافة.

(١) الطبرى: ج٧، ص٥١٧؛ وفاء محمد علي: المرجع السابق، ص١٢-١٦.

(٢) H.Ibrahim, Islamic culture. P.100.

(٣) H. Ibrahim, Islamic culture, P.100.

وكانت الحركة الأولى أقدر على التنظيم وعلى التحرك ومؤيدوها أكثر تعصبا وأقوى جلدا يمدهم الحق على العرب بطاقة عارمة حاقدة فى حين كانت الحركة الأخرى تعتمد على ما وقر فى النفوس من حق آل على ومن عطف عليهم وإن نقصها الوقود الذى توفر للحركة الأولى دعا بهابط، التحرك النشط.

وليس ثمة شك فى أن الدعوة العباسية فى مراحلها الأخيرة أحس بها الجميع: الأمويين والعباسيون والهاشميون والعلويون وأدركوا خطورتها.

ولم يكن فى أيدي العلويين سوى محاولة تجميع صفوفهم، وتجميع الأنصار من حولهم دون أن يتصدوا للعباسيين، وفى اعتقادهم أن الكثير من العامة سيفهمون من شعار "الرضا من آل محمد" الذى رفعه العباسيون أن الدعوة هى للعلويين، ومن ثم قد يستفيدون من جهود العباسيين معتمدين على ما كان من بيعة لمحمد النفس الزكية تكتل وراءهم الرأى العام المسلم المتعاطف مع قضيتهم فى كثير من الأمصار ومن ناحية أخرى خشوا من مواجهة العباسيين علانية فينكشف أمرهم جميعا أمام الأمويين فيتعرضون لفتكهم وانتقامهم.

أما الفرس وهم العنصر الذى أيد العباسيين فلا نصدق كثيرا أنهم كانوا غافلين عن أن العباسيين كانوا يدعون لأنفسهم، فهم على الأرجح كانوا على وعى تام بهذه الحقيقة وكان همهم الأكبر أن يتحول الأمر عن بنى أمية الذين تعصبوا - فيما رأى الفرس - ضدهم لبنى جلدتهم من العرب، ولا يهم بعد ذلك أن كان الحكام بعد ذلك عباسيين أو علويين، لا سيما وأن تولى العباسيين أو العلويين للأمر سيرضى اعتقاد العامة من الفرس الذين يؤمنون بمبدأ الحق الإلهي حيث أن الحكم على هذا الأساس سيكون وراثيا، بل أن العباسيين - كما رأى العباسيون أنفسهم - أولى بوارثه الحكم من بنى عمومته من العلويين حيث أن العباسيين هو عم النبي p فهم أولى بوارثة الحكم من بنى عمومته من العلويين مصداقا لقوله تعالى: "وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله".

ومن هذا المنطلق فإن الراوندية عدوا أبابكر وعمر رضى الله عنهما غاصبين لحق العباس τ وتبرأوا منهما، ولكنهم أجازوا البيعة لعلى بن أبطالب τ

لأن عبدالله بن عباس τ أجاز ذلك عندما طلب من علي τ أن يبايعه بعد وفاة الرسول ρ حيث قال له "يا ابن أخي هلم إلى أبايعك فلا يختلف عليك اثنان"^(١) ولقول داود بن علي بن منبر الكوفة يوم بويع لأبي العباس السفاح: "يا أهل الكوفة لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله ρ إلا علي بن أبطالب وهذا القائم فيكم" يعني أبا العباس السفاح"^(٢).

ولعل الراوندية باعقادهم هذا كانوا يعبرون عن اعتقاد العباسيين أنفسهم بهذا الحق، فإن آل العباس كانوا في انتظار الفرصة التي تلوح لهم ليقوموا بهذا الأمر، وقد لاحت لهم هذه الفرصة عندما عاج أبوهاشم بن محمد بن الحنفية عليهم بعد لقائه بسليمان بن عبدالمك (٩٦-٩٩هـ / ٩١٥-٩١٨م) حيث مات في الحُمَيْمَة حيث كانوا يقيمون معاهدين مسالمين لبني أمية.

وقد بدأ العباسيون منذئذ جهوداً منظمة انتهت بإعلان الخلافة العباسية^(٣) وسلك العباسيون في الدعوة لأنفسهم طريق السرية غير أنهم وضعوا لهذه الدعوة تنظيماً يكفل لها الانتشار دون تعريضهم لخطر يتضح مما أورده الطبري في أمر بدء الدولة حيث قال: "قال أبو جعفر: وهذه السنة-أعنى سنة مائة-وجه محمد بن علي بن عبدالله بن عباس من أرضى الشراة ميسرة إلى العراق، ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وهو أبو محمد الصادق، وحيان العطار خال إبراهيم بن سلمة إلى خراسان، وعليها يومئذ الجراج بن عبدالله الحكمي من قبل عمر بن عبد العزيز وأمرهم بالدعاة إليه وإلى أهل بيته فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم إلى محمد بن علي فدفعوه إلى ميسرة فبعث بها مسيرة إلى محمد بن علي واختار أبو بكر محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر رجلاً نقيباً منهم سليمان ابن كثير الخزاعي ولا هز بن قريظ التميمي وقحطبة بن شبيب الطائي وموسى بن كعب التميمي، وخالد بن إبراهيم

(١) المسعودي: مروج الذهب، ج ٤، ص ٢٥٢.

(٢) المسعودي: نفس المصدر، ج ٤، ص ٢٥٢.

(٣) محمد حلمي أحمد: الخلافة والدولة، ص ٢٠.

أبو داود من بنى عمرو ابن شيبان بن ذهل، والقاسم ابن مجاشع التميمي وعمران بن إسماعيل أبو المنجم مولى لآل أبي المعيط ومالك خزاعة، وشبل بن طهمان أبو علي الهروي مولى لبني حنفية وعيسى بن أعين مولى خزاعة، واختار سبعين رجلا، فكتب إليهم محمد بن علي كتابا ليكون لهم مثالا ومسيرة يسيرون بها".^(١)

ويجعل ابن الأثير النقباء جزءا من السبعين تم اختيارهم لهذا الدور فيقول: "وكان النقباء اثني عشر رجلا اختارهم محمد بن علي من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ثلاثة ومائة وأربع مائة".^(٢) وهذا ما رآه بعض المؤرخين حين جعل عدد النقباء اثني عشر نقبياً وعدد الدعاة ثمانية وخمسين"^(٣).

وكانت البيعة من الأتباع تتم على هذا النحو: "أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله محمد μ والطاعة للرضا من آل بيت رسول الله μ ، وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى إلى بيت الله الحرام، وعلى أن لا تسألوا رزقا ولا طعاما حتى يبندرکم ولا تكم"^(٤).

وكان الدعاة إمعانا في السرية يتزينون بزى التجار، ويسلكون طريق الكوفة خراسان التجارى، بمعنى أنهم يسلكون طريقا يكثر استخدامه حتى لا يثيروا الشكوك من حولهم، وكانوا يتظاهرون بالإشتغال بالتجارة، وكان بعضهم بالفعل من التجار"^(٥).

وبالنظر إلى الدعاة يتبين أن معظمهم كانوا من الموالى ومن الأصل الفارسي، فقد كان منهم خمسة من قبيلة موالى خزاعة، بينما كان السبعة

^(١) انظر: ج ٧، ص ٥٦٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢١١.

^(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٣١٠.

^(٣) H. Ibrahim, Islamic culture, P.101.

^(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٣١٠.

^(٥) محمد حلمي أحمد: الخلافة والدولة في العصر العباسي، ص ٣٠؛ عبد المنعم عبد المنعم ماجد: تاريخ الدولة العباسية، ص ٢٧.

الأخرون من موالى قبائل طيئ وتميم وبكر بن وائل وهي قبائل يمنية مشهورة كانت قد انتقلت إلى خراسان واندمجت بسكانها فارتبط كثير من الفرس لها بالولاء، وأختص سليمان بن كثير من موالى قبيلة خزاعة ليكون رئيسا للنقباء في خراسان، بينما كان طلحة بن رزيق حلقة الاتصال بين الدعوة والإمام لمن كان عليه من فقه بمذهب أبي هاشم (الهاشمية)^(١).

وكان إعتقاد العباسيين على الفرس في دعوتهم دون العنصر العربي لعلمهم أنهم لن يجدوا من العنصر العربي تأييدا، ومن ثم كانت المراكز الرئيسية في الدعوة العباسية تعتمد على الفرس بصفة عامة، والخراسانيين بصفة خاصة، يوضح هذا ما جاء في خطاب محمد بن علي إلى بعض: "أما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف وتقول: "كن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل، وأما الجزيرة فحروبة ما رقة وأعزاب أعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان، وفيهم عداوة راسخة وجهل متراكم، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر... ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء، ولم تتوزعها النحل، ولم يقدر فيها فساد، وهم جند لهم أبدان، وأحسام ومناكب وكواهل وهامات ولحي وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف ماكرة...

وبعد فإنى أتفاءل على المشرق مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق"^(٢). هذا، وقد توفي محمد بن علي في سنة ١٢٤ هـ بعد أن عهد بالأمر بعده لابنه إبراهيم الذي تلقب بالإمام دلالة على زعامته الحديثة. واختار إبراهيم الإمام رئيسا آخر للدعوة يكون على رأس النقباء هو

(١) عبدالمنعم ماجد: نفس المصدر، ص ٣٢.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٣٦٨.

عبدالرحمن بن مسلم وكنيته أبو مسلم الخراساني^(١)، وهو في سن التاسعة عشرة، وأرسل إلى خراسان في سنة ١٢٤هـ/٧٤٢م، وناصر العباسيون هذا الفتى رغم استصغار النقباء له ورده، بل وجعلوا له سلطة تامة على النقباء والدعاة ولقبوه بأمين أو أمير أو سيف آل محمد^(٢) ليرفعوا من شأنه.

وكانت أحلام أبن مسلم تتجاوز مجرد كونه نقيباً أو داعية إلى أن يكون قائداً للثورة ضد الأمويين، وعلى أية حال فإن قدوم أبن مسلم إلى خراسان كان يعنى اقتراب الدور التنفيذي للثورة ضد الأمويين^(٣).

على أن الأمويين اهتموا رائحة هذه الدعوة وهي ما زالت شرراً ولكنهم لم يقفوا منها موقفاً حاسماً، ولم يأخذوا أمرها مأخذ الجد، يؤيد هذا ما ذكره الطبري في أحداث سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م حيث شك رجل من تميم يسمى عمرو بن بحير بن ورقاء السعدي في بعض الكلام فتوجه إلى سعيد خزينة والي خراسان في ذلك الوقت وقال له: "أن ها هنا قوما قد ظهر منهم كلام قبيح فأرسل سعيد واستدعى هؤلاء القوم وسألهم عن حقيقتهم، فقالوا: أناس من التجار، قال: فما هذا الذي يحكى عنكم؟ قالوا: لا ندري، قال: جنتم دعاة؟ فقالوا: عن إن لنا في أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا، فقال: من يعرف هؤلاء؟ فجاء أناس من أهل خراسان جلهم من ربيعة واليمن، فقالوا: نحن نعرفهم، وهم علينا إن أتاك منهم شئ تكرهه، فخلى سبيلهم^(٤).

لكن الأمور اتضحت تماماً للأمويين في سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م حين وقع في يد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين^(٥)، كتاب موجه من إبراهيم الإمام إلى

(١) العدوي: نهر التاريخ الإسلامي، ص ٣٠١.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٢٤٥. :Sunders, Medieval, Islam, P.101.

(٣) عبدالمنعم ماجد: تاريخ الدولة العباسية، ص ٣٣.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٦، ص ٦١٧.

(٥) وقال له الجعدي، ويقال له الجمار، وقيل لقب بالجمار لأنه آخر الخلفاء الأمويين لأن الجمار يراد به الآخر، وفي

التاريخ السرياني انه لقب بهذا اللقب لكلفه بزهر الزعفران لأن هذا الزهر يسمى الحمار، وقيل لقب بالجمار لصبره

في الحرب. ابن العبري: مختصر تاريخ ابن العبري، ص ١١٩، هامش ١.

أبمسلم الخراساني يزوده فيه بتوجيهاته والتي أمره فيها "بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان"^(١)، وكان كتاب إبراهيم هذا رداً على كتاب أتاه من أبي مسلم، فأمر مروان بن محمد بالقبض عليه فتم ذلك وحبسه بحران فهلك في هذه السنة^(٢)، وقيل أنه هلك من وباء حدث في حران، وقيل أن مروان هدم عليه بيتاً فقتله، وقيل مات مسموماً^(٣)، وقيل جعل مروان رأسه بجراب نورة وشد عليه فمات غماً^(٤).

وقد رثى أحد الشعراء إبراهيم الإمام فقال: ^(٥)

قد كنت أحسبني جلدا فزعزعتني * قبر بحران فيه عصمة الدين
فيه الإمام وخير الناس كلهم * بين الصفائح والأحجار والطين
فيه الإمام الذي عمت مصيبتة * وعيلت كل ذي مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة * لكن عفا الله عن قال آمين

وكان إبراهيم الإمام وقد أدرك ألا منجاة له من يد مروان فأوصى بالأمر من بعده إلى أبي العباس عبدالله بن محمد وأوصى شيعته بطاعته فتوجه أبو العباس إلى أبي سلمة الخلال رئيس الدعوة بالكوفة فأنزلهما دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم: وكتب أمرهم أربعين ليلة من جميع القواد والشيعية^(٦).

ويرد هنا أن أبا سلمة الخلال قد حجب آل العباس طول هذه المدة لأنه أراد أن يحول الأمر إلى آل علي وهذا ما سبق أن أشرنا إليه وناقشناه في موضعه، ونزيد هنا أن هذه القصة تم اختلاقها لهدفين: الهدف الأول تسجيل لاعتراف العلويين بأحقية بني العباس وثانيهما لإظهار خيانة أبي سلمة للدعوى

(١) الطبري، المرجع السابق، ج٧، ص٤٢٣.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٤٢٢؛ الإمامة والسياسة، ج٢، ص٤.

(٣) ابن خلدون: ج٥، ص٣٦٨؛ ابن العبري، ص١٢٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج٤، ص٣٢٩. ومنذ ذلك الحين اتخذ العباس السواد شعارا لهم رمزا لحزنهم على إبراهيم.

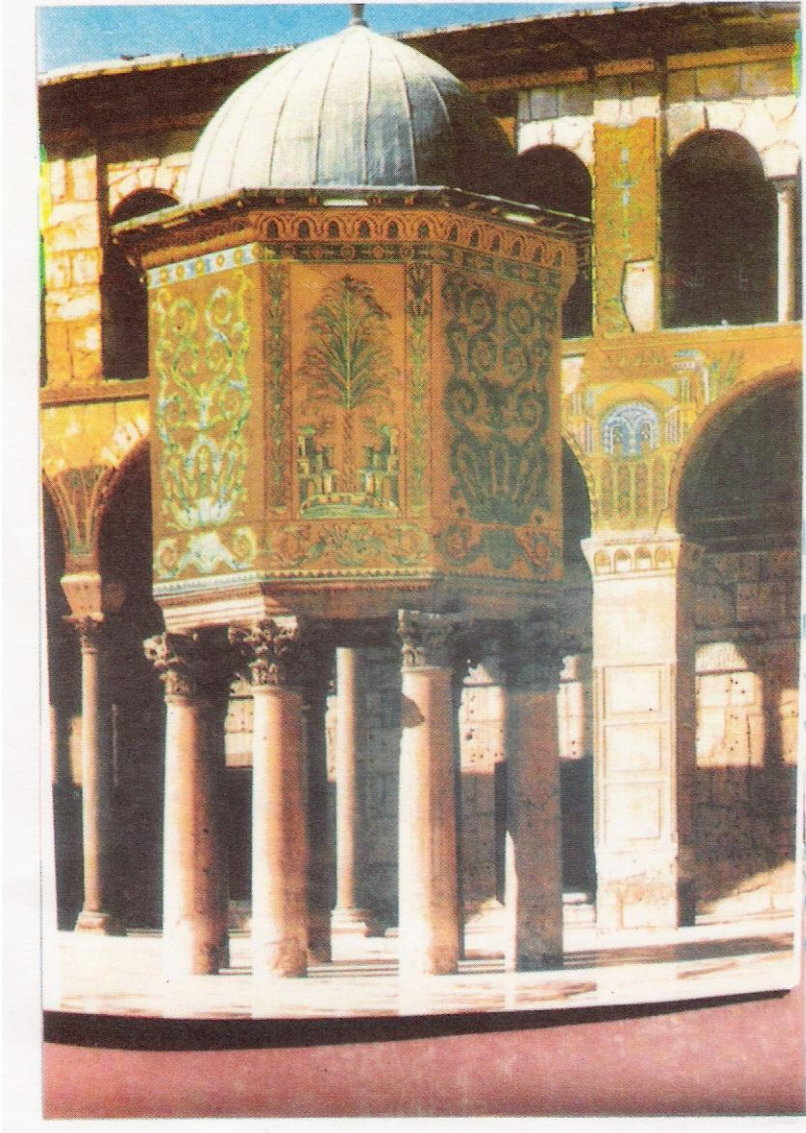
H. Ibrahim, Islamic culture, P.102.

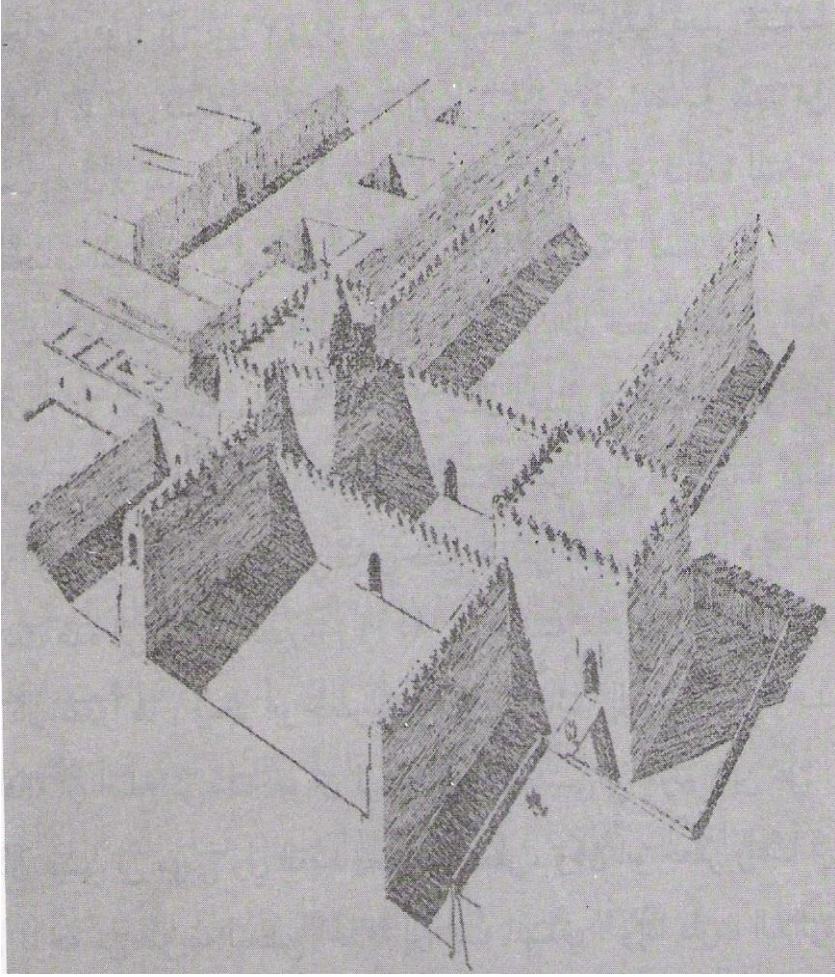
(٥) ابن الأثير: المرجع السابق، ج٤، ص٣٢٩.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٤٢٣.

للعباسيين ليتم التخلص منه مع أنه كان مخلصا فعلا للعباسيين وقد أخفى أمرهم حفاظا عليهم وحتى لا يتعرضوا للخطر، وقد تم فعلا التخلص من أبي سلمة بدسياسة من أئبمسلم الخراساني الذي كان ينفس عليه مكانته^(١)، ولو كان أبوسلمة فعلا عرض الأمر عليه بعض من آل على لكان من الممكن أن يقبلها بعضهم لا سيما وأنه كانت هناك بيعة تمت لمحمد النفس الزكية سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م، وهو الآن قد صار رجلا ناضجا وقد وصل أحد الكتب إلى أبيه عبدالله بن الحسن، فكيف تم رفض هذه الدعوة التي تقدم الخلافة إلى العلويين على طبق من ذهب حتى إذا آلت الأمور فعلا إلى بنى العباسيين وراح ضحية لهذه الثورة!؟

^(١) Amir Ali, The history of the saracenes, P.211.





منظور أحد مداخل مدينة السلام (بغداد)

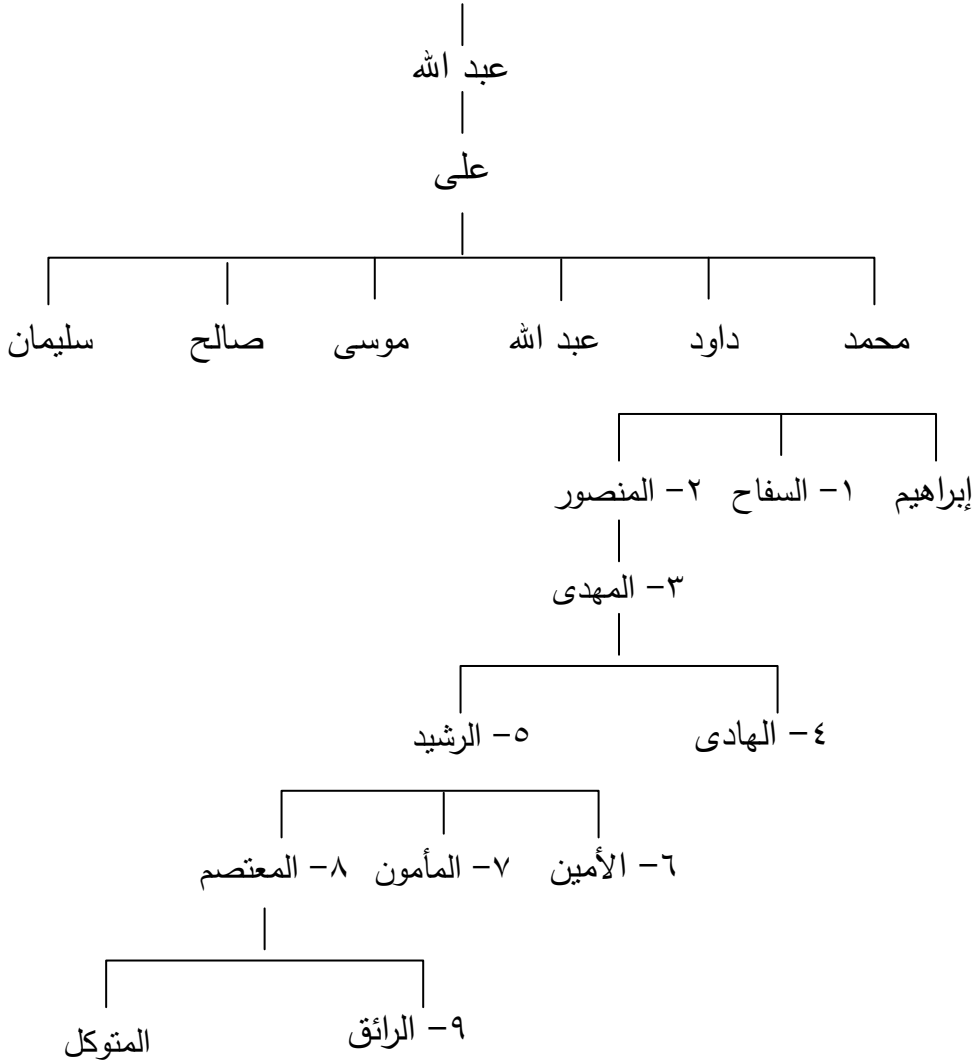
يوسف العش : تاريخ عصر الخلافة العباسية ، بيروت، دمشق، ١٩٩٦، ص ٣٨

الفصل الثاني خلفاء العصر العباسي الأول

- ١- أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي (١٣٢-١٣٦هـ/٧٥٠-٧٥٤م)
- ٢- أبوجعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م)
- ٣- محمد المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م)
- ٤- موسى الهادي بن المهدي (١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م)
- ٥- هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م)
- ٦- محمد الأمين (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٩-٨١٣م)
- ٧- عبدالله المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م)
- ٨- محمد المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م)
- ٩- هارون الواثق بالله (٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤٢-٨٤٧م)

أولاً: العصر العباسي الأول
١٣٢ - ٢٣٢ هـ / ٥٧٠ - ٨٤٧ م

العباس (١)



(١) علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام (الجاهلية ، الدولة ، الدولة العباسية)، مكتبة النهضة العربية، ص ٣٣٦.

خلفاء العصر العباسي الأول

١- أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس المعروف بأبي العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـ / ٧٥٠-٧٥٥م)

هو أول خلفاء الدولة العباسية، تولى الخلافة في ٣ ربيع الآخر سنة ١٣٢هـ وخطب في صبيحة اليوم التالي لخلافته بجامع الكوفة خطبة مدح فيها آل محمد، ثم أشاد بأهل الكوفة، وندد بالأمويين الذين اغتصبوا الخلافة من أصحابها الشرعيين، ثم ختم خطبته بقوله: "يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا، وآتاكم الله بدولتنا، فأنت أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا وقد زدتمكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فإنا السفاح المبيح والثائر المنيح، ولهذا السبب لقب بالسفاح. واختلف المؤرخون في تفسير كلمة السفاح ويرجح العدد الأعظم منهم أن لقب السفاح يعنى السفاك أو المحب للقتل، وأن هذه الصفة لصقت به لكثرة جرائمه والمذابح التي حدثت في عهده ضد الأمويين وأقرب الأقربين إليه كأبي سلمة الخلال وزير آل محمد. ويميل عدد من الباحثين إلى تفسير كلمة السفاح بمعنى الكريم الذى يسفح الدنانير، وأن هذا المعنى يتفق وما عرف عن أبي العباس من الكرم والعطاء وأنه سمي نفسه بالسفاح المبيح أى الذى يغدق الأموال على المؤيدين، والثائر المبير الذى لا يتردد فى سحق الأعداء والمتآمرين، ويعتقد هؤلاء الباحثون أن السفاح، بمعنى القاتل، لم يتلقب به أبو العباس فى المصادر التاريخية الأولى الموثوق بها كالتبرى واليعقوبى والدينورى والجهشياري، وأن اسم السفاح لم يرد فى كتابات المؤرخين إلا منذ القرن الرابع الهجرى، ويضيف هؤلاء أن ابن قتيبة صاحب كتاب الأمامة والسياسة يطلق اسم السفاح على عبدالله بن علي عبدالله بن عباس عم أبي العباس الذى اشتهر بشدة ألبطش وسفك الدماء وهو الذى قتل مروان فى مصر ومثل بأهل الشام، ينفى هؤلاء الباحثون صفة القوة وسفك الدماء من أبي

العباس الذى اتصف بالحلم وكرم الأخلاق وكرهيته لسفك الدماء ويبرؤونه من أعمال المذابح التى جرت فى بداية قيام الدولة وينسبونها إلى أعمام أبى العباس، كعب الله بن على الذى يسميه اليعقوبى بالسفاح^(١)، وداود وسليمان، وإسماعيل وصالح^(٢)، ولكن مهما دافع عن أبى العباس وبرئ من هذه التهم، فإنه هو المسئول عن المذابح ألبشعة التى اقترنت بقيام الدولة العباسية، أما القول بأن اسم السفاح لم يرد فى مدونات القرن الثالث فمردود بدليل ان مؤلفا مجهول الاسم (من القرن الثالث الهجرى) لعله ابن النطاح مولى جعفر بن سليمان بن على بن عبدالله العباسى^(٣)، يسمى أباالعباس بالسفاح^(٤)، ولا نستبعد لذلك أنه لقب بالسفاح لكثرة ما سفك هو من دماء أو ما سفك فى عهده من دماء الأمويين، ويكفى للدلالة على ذلك أنه خر ساجداً لله عندما وصله رأس مروان بن محمد ثم رفع رأسه وقال: "الحمد لله الذى أظهرنى عليك وأظفرنى بك، لم يبق ثأرى قبلك وقبل رهطك أعداء الدين وترديده لقول الشاعر:

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم * ولا دماؤهم للغيط تروينى^(٥)
ومن أمثلة سفكه للدماء ما فعله بسليمان بن هشام بن عبدالملك الذى كان فى مجلسه مطمئناً إلى أمان حصل عليه من الخليفة فسمع السفاح مولى له ينشده:
لا يفرنك ما ترى من رجال * إن تحت الضلوع داء دويما
فضع السيف وارفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرك أموياً^(٦)

(١) راجع : عبد العزيزالدورى، العصر العباسى الأول، ص ٦٥-٦٦.

(٢) عبد الحميد العبادى: صور وبحوث من التاريخ الإسلامى، ج ٢، ص ٧٠، الإسكندرية ١٩٤٨؛ أحمد مختار العبادى:

فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ٤١-٤٤. ويميل الزميل الجليل الأستاذ الدكتور عبد المنعم عبدالمنعم ماجد:

إلى تبرئته من أعمال القتل وسفك الدماء ويأتى فى ذلك بشواهد عديدة. راجع عبد المنعم عبدالمنعم ماجد::

العصر العباسى الأول، ج ١، القاهرة ١٩٧٣، ص ٥٠.

(٣) أخبار الدولة العباسية، ص ١٨.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٤١٠-٤١٢.

(٥) للسعودى، ج ٣، ص ٢٥٧؛ ابن الأثير، ج ٥، ص ٤٢٧.

(٦) نفس المصدر ص ٤٢٩- ابن طباطبا، ص ١٣٤.

فأمر السفاح فى الحال بقتل ضيفة سليمان وبهذه السياسة النادرة بدأ العباسيون مذابحهم فغدوا بالأمويين فى أبى فطرس، وخذوا حذو خليفاتهم السفاح، واعتقد أنه لو لم يكن أبوالعباس هو الذى شن هذه السياسة الانتقامية وباركها ما تجرأ بنو العباس أمثال عبدالله بن على^(١)، وسليمان بن على^(٢)، وغيرهم على البطش ببقايا الأمويين وتتبع أولادهم وأطفالهم فى كل مكان تصل إليه عساكر العباسيين. ودخل شاعر آخر هو شبلى بن عبدالله مولى بنى هاشم عند عبدالله بن على فوجد نحو من تسعين رجلاً من بنى أمية قد جلسوا للطعام، فقال شبلى أبياتاً من الشعر ختمها بقوله:

واذكروا مصرع الحسين وزيدا وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذى بحيران أضحى ثاويماً بين غربة وتناس

وقد وصف المؤرخون أبوالعباس السفاح بأنه كان سريعاً إلى سفك الدماء فاتبعه فى ذلك عماله فى المشرق والمغرب، وكان مع ذلك جواداً بالمال^(٣)، ويمكننا على هذا الأساس أن نفسر وصف السفاح بأنه كان يتوعد من ينوى الخروج عليه بسفك دمه، وأما المبيح فمعناها الرجل الجواد كثير العطايا، ولعله كان يقصد أنه يقدر ما هو سفاح فهو كريم يبذل المال لمن استحقه. والواقع أن هذه السياسة الحكيمة التى التزمها أبوالعباس وقوامها الشد والجذب والشدة واللين، والترهيب والترغيب كانت ضرورية فى أول قيام الدولة العباسية فقيام الدولة يقترن دائماً بمثل ذلك ومن المعروف أن معاوية بن أبى سفيان اتبع نفس السياسة، كما اتبعها أيضاً عبدالرحمن الداخل عندما أسس دولة بنى أمية فى الأندلس، واتبعها حفيده عبد الحميد عبدالرحمن الناصر عندما تولى إمارة

(١) أمر عبد الله بضرى تسعين رجلاً من بنى أمية بالعمد حتى قتلوا وسط عليهم الانطاع، فأكل الطعام عليها وهو يسمع (١) يسمع أين بعضهم حتى ماتوا جميعاً، وهو الذى أمر بنى قبور بنى أمية بدمشق وهو الذى تتبع بنى أمية وقتلهم بنهر أبى فطرس. وقد نسب ابن طباطبا هذا العمل الإجرامى إلى السفاح، ص ١٣٤.

(٢) قتل سليمان بالبصرة جماعة من بنى أمية عليهم الثياب الموشية، فأمر بهم فسحلوا (أى جروا من أرجلهم) حتى ماتوا وألقوا على الطريق فاكتلتهم الكلاب.

(٣) السيوطى، ص ٢٤١.

الأندلس والبلاد ممزقة الأوصال، وهى على العموم سياسة مجدية لأنها تمكن لنفوذ الدولة الجديدة. وأول ما قام به أبوالعباس أنه عزم على اتخاذ قصر لخلافته يكون قريبا من شيعته وأنصاره بدلا من دمشق حاضرة دولة بنى أمية البائدة، ومن المعروف أنه نزل بادئ ذى بدء فى موضوع قريب من الكوفة يسمى هاشمية الكوفة، ولكنه انتقل منها بعد عامين إلى مدينة الأتبار الواقعة على نهر الفرات إلى الشمال من نهر الكوفة، فأقام بجوارها مدينة عرفت بهاشمية الأتبار^(١)، اتخذها دار للخلافة. وظلت الأتبار مقر الدولة العباسية مدة سبع سنوات إلى أن قام المنصور ببناء مدينة بغداد فى سنة ١٤٥ هـ. ورأى أبوالعباس ضرورة القضاء على بقايا الأمويين حتى تستقر دعائم دولته ويصفو له الأمر، فقام بمذابح بشعة منها مذبحه نهر أبى فطرس عندما أعلن الأمان لكل أمير أموى يسلم نفسه للسلطات العباسية، وطلب من هؤلاء الأمراء الفارين بأن يسلموا أنفسهم، فلما اجتمعوا لهذا الغرض انقض عليهم العباسيون بإيعاز من عبدالله بن على العباسى وقتلوه، وكان فيمن قتل محمد بن عبدالملك بن مروان، والنمر بن يزيد بن عبد الملك، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وسعيد بن عبد الملك.

* التمثيل بجثث بعض الخلفاء من الأمويين :

ولم يكتف أبوالعباس بالقضاء على الأحياء من بنى أمية بل عمد إلى التمثيل بجثث الخلفاء المروانيين وإحراقها، ويأتى المسعودى فى ذلك برواية لعمر بن هانى جاء فيها: "خرجت مع عبدالله بن على لنبش قبور بنى أمية فى أيام أبى العباس السفاح، فانتهينا إلى قبر هشام، فاستخرجناه صحيحا ما فقدنا منه إلا خورمة أنفه فضربه عبدالله بن على ثمانين سوطا ثم أحرقه^(٢)، واستخرجنا سليمان من أرض دابق لم نجد منه إلى صلبه وأضلاعه ورأسه

(١) السيوطى ، ص ٢٤١ .

(٢) ذكر اليعقوبى أنه وجده فى مغارة على سريره قد طلى بماء يقيه ، فأخرجه فضرِبَ وجهه بالعمود، وضرِبَ مائة وعشرين

سوطا ثم حرقه. اليعقوبى: ج ٢، ص ٣٥٢.

فأحرقناه، وفعلنا ذلك بغيرهما من بنى أمية وكانت قبورهم بقتسرين. ثم انتهينا إلى دمشق، فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك، فما وجدنا في قبره قليلا ولا كثيرا، واحتقنا عن عبد الملك فما وجدنا إلا شؤون رأسه، ثم احتقنا عن يزيد بن معاوية، فما وجدنا فيه إلا عظاما وأحدا ووجدنا مع لحدده خطأ أسود كأنما خط بالرماد في الطول في لحدده، ثم اتبعنا قبورهم في جميع البلدان، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم^(١).

- العباسيون وابن هبيرة:

بعد أن أتم العباسيون امتلاك خراسان، وحقق قحطبة بن شبيب نصرا وراء نصر على نصر بن سيار حتى مات نصر مريضا في سأوة^(٢)، سار قحطبة وابنه الحسن إلى العراق قاصدين يزيد ابن هبيرة أميره من قبل مروان بن محمد، وقد قتل قحطبة بن شبيب في أحد اللقاءات على جانبي الفرات قبل أن تدور روى المعركة الكبرى مع الأمويين قتله معن بن زائدة أو مات غريقا في نهر الفرات وتولى الأمر مكانه ابنه الحسن بن قحطبة، وتمكن من الحاق عدة هزائم بيزيد بن هبيرة حتى انتهى الأمر بيزيد إلى اللجوء إلى واسط وخندق حول نفسه^(٣)، مخالفا بذلك رأى مستشاريه الذين أشاروا عليه بالتوجه إلى الكوفة بدلا من حصر نفسه بواسط لأنه على حد قولهم: "ليس بعد الحصار إلا القتل".

وقد وجه السفاح -إدراكا منه لقوة يزيد- أخاه أباجعفر المنصور ليتولى القيادة ضد يزيد، وأبدى يزيد وقواده ورجاله من البلاء الكثير حتى أن الحرب دامت بين الفريقين أحد عشر شهرا كانوا يحاربون فيها في النهار وفي الليل^(٤)،

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ وما يليها (طبعة بيروت ، دار الأندلس)

(٢) سأوة: مدينة مشهورة بين الره وهمدان: ياقوت: المشترك، ص ٣٣٩.

(٣) H. Ibrahim: History and Islamic culture, P.102.

وقد عبره المنصور بالخندقة حول نفسه، فقال: ابن هبيرة بخندق على نفسه كالنساء، فأرسل إليه ابن هبيرة أن برز إلى فقال المنصور: خنزير قال للأسد أبرز إلى فقال الأسد ما أنت بكفاء لي قال الخنزير لأعرفن السباع أنك جنت، فقال الأسد احتمال ذلك أيسر من تلطح برائتي بدمك، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ١، ص ١٩٠.

(٤) Amir Ali: A short history of the saraceness, P.210.

وكان العباسيون فى حصار ابن هبيرة يملأون السفن حطبا ويضرمونها بالنار لتحرق ما مرت به، وكان ابن هبيرة يهوى خرافات^(١) كان فيها كلاب تجر تلك السفن^(٢).

ولم يفت فى عزيمة ابن هبيرة وأصحابه غير من نعى إليهم مروان بن محمد وقال لهم: "علام تقتلون أنفسكم وقد قتل مروان"^(٣)، فجنح يزيد بن هبيرة إلى الصلح، وسارت السفراء فى ذلك بينهم وبين أبى جعفر وتم الصلح على أمان كتبه المنصور بعد مشاورة طويلة مع العلماء امتدت نحو أربعين يوما حتى رضيه ابن هبيرة، ووقع السفاح هذا الأمان، ولكنه ما لبث أن نقض أمانه وغدر بابن هبيرة وكان ذلك بإشارة من أبى مسلم الخراسانى، فأمر السفاح بقتله وهو ساجد فى صلاته وهو يقول: لا يعز ملك وأنت فيه"^(٤) كما قتل معه بعض من أعيان أصحابه"^(٥).

ويعيب ابن كثير مع أبى العباس السفاح الغدر بابن هبيرة بعد تأمينه ويقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم كيف يعطى الأمان وينكث؟ هذا فعل الجبابرة"^(٦) ويقتل ابن هبيرة انطفاً آخر مصباح للدولة الأموية"^(٧).

وقد سلك العباسيون مع بنى أمية طريقا إلى الانتقام فرشوه بالوعد والتأمين الكاذب لهم الذى كان لا يلبث أن يعقبه الغدر والأمثلة على ذلك كثيرة: منها ما فعله أبوالعباس السفاح بسليمان بن هشام بن عبد الملك الذى كان

(١) الخرافات تعتبر من كبار المراكب، وتستعمل فى حرق سفن العدو فتزود بالنفط. عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٧٤، ويقول الأعشى أنها نوع من السفن الحربية الخفيفة كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية، وكان بها تلقى منها النيران على العدو: ألبقى، مصطلحات، ص ١٠٤.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٧، ص ٤٥٣؛ وفاء محمد على: المرجع السابق، ص ٣٧-٤٠. وانظر: Amir

Ali: a short history of the saracenes, P. 210.

(٣) الطبرى: نفس المصدر السابق، ج ٧، ص ٤٥٤.

(٤) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، ج ١، ص ١٩٠.

(٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٧، ص ٤٥٦.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٥٥.

(٧) الخضرى: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، ص ٣٠.

يجلس فى مجلس السفاح ومعه ابناه مطمئنا إلى تأمين السفاح حتى دخل مولى لأبى العباس يسمى سويىف فأنشد:

أصبح الملك ثابت الأساس * ياليها ليل بنى العباس
لا تصلن عبد شمس عثارا * واقطعن كل وقلة وغراس

ثم قال محرضا مع بنى أمية:

أفنها أبو الخليفة واحسم * عنك بالسيف شأفة الأرجاس
ثم قال مشككا ومحرضا:

ولقد ساعنى وباء قبيلى * قريبهم من نمارق وكراسى
خوفهم أظهر التودد منهم * وبهم منكم كحز المواسى
واذكروا مصرع الحسين وزيد * وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذى بحران أمسى * رهن رمس فى غربة وتناسى

فقام سليمان بن هشام فقال: يا أمير المؤمنين أن مولاك هذا يحرضك فقد فعل بين يديك على قتلى وقتل ابنى وقد تبينت والله أنك تريد أن تغتالنا^(١).

وكلام سليمان يظهرنا على أن ثمة أمرا كان يدبره أبو العباس السفاح للتخلص من سليمان ابن هشام بعد أن يتسلى به تعذيبا له وأن دخول هذا الشاعر لم يكن غير ختام لهذه التمثيلية، وصدق حدس سليمان فقد قال أبو العباس: "لو أردت ذلك ما كان يمنعنى منكم غير غيلة، فأما إذ سبق ذلك إلى قلبك فلا خير فيه، ثم أمر بضرب عنقه وعنق ابنه، فنفذ أمره وأتى إليه برعوسهم^(٢)".

وتكررت لعبة القط والفأر هذه مرة أخرى من عبدالله بن على عند نهر أبى فطرس بين فلسطين والأردن حين نادى بالأمان لبنى أمية وأطعمهم فى

(١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ج٢، ص٣٥٩، وانظر فى ذلك: أبو الفدا: المختصر، ج١، ص٢١٢؛ ابن الوردى: تنمية تاريخ المختصر، ج١، ص١٩٢. والشعر هناك منسوب إلى شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم.

(٢) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ج٢٠، ص٣٦٠.

الجوائز والعطايا فأتاه منهم ثمانون رجلاً جهز لكل رجل منهم رجلين بالعمد، ثم قام العبدى الشعر فأنشد^(١).

أما الدعاة إلى الجنان فهاشم * وبنو أمية من كلاب النار وأخذ يحرض على قتل بنى أمية، فقال بعض بنى أمية لبعض: "قتلنا والله العبد"، فأقبل عليهم عبدالله بن علي فذكر لهم قتل الحسين وأهل بيته ثم صفق فضرب القوم رؤوسهم بالعمد حتى أتوا عليهم، ثم أمر فطرحت عليهم ألبسط وجلس عليها، ودعا بالطعام فأكل فقال: يوم كيوم الحسين بن علي سواء بسواء^(٢).

وكان ما فعله عبدالله بن علي بأوامر من السفاح الذي كتب إليه: "خذ بئارك من بنى أمية".

وعلى الجملة فإن عهد السفاح انقضى في الخلاص من بنى أمية 'فسفكت دماء كثيرة وأحدثت قدوة سيئة في نكث العهود واغتيال المخالفين'^(٣).

– العباسيون وأبو سلمة الحلال:

كان أبو سلمة الحلال زعيم الدعوة في الكوفة، وكان يقال له وزير آل محمد في حين كان يلقب أبو مسلم بأمر آل محمد، وكانت مكانة أبي سلمة عالية^(٤).

(١) وفي العيون وغيره: أنشد سوييف الشاعر:

لا يغرنك ما ترى من رجال * أن بين الضلوع داء دويبا
فضع السيف وارفع العفو حتى * لا ترى فوق ظهرها أمويبا

العيون، ص ٢٠٧. وانظر: المختصر، ج ١، ص ٢١٢.

(٢) اليعقوبي: نفس تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥٦.

(٣) الخضرى: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، ص ٥١.

(٤) كان أبو سلمة من مياسير أهل الكوفة وكان ينطق ما له على رجال الدعوة وقد اتصل بنى العباس بسبب مصاهرته لبيكر بن ماهان الذى كان خصصا بإبراهيم الإمام، فلما أدركته الوفاة قال لإبراهيم، أن لى صهرا بالكوفة يقال له أبو سلمة الخلال قد جعلته عوضى فى القيام بأمر دعوتكم، وقد قام أبو سلمة بأمر الدعوة العباسية قياماً عظيماً. ابن طباطبا: الفخرى، ص ٥٤.

وقد وصل إليه أبو العباس السفاح ومن معه من أهل بيته بعد أن قتل مروان بن محمد إبراهيم الإمام القائم على الدعوة وكان وصولهم إلى أبي سلمة بتوجيه من إبراهيم الإمام نفسه ثقة منه في أبي سلمة.

وقد احتاط أبو سلمة على أبي العباس السفاح ومن معه ليحميهم من بطش الأمويين فأخفى أمرهم أربعين يوماً كانوا فيها محل التكريم والإجلال في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني أود.

ولم يكن هذا يرضى بأبامسلم الخراساني بسبب ما سوف يتول إليه أمر أبي سلمة نتيجة لفضله هذا على بني العباس، وعلى هذا رأينا رواية - لا شك أن أبامسلم كان وراءها - تروح عن أن أبامسلم حاول أن يحول الأمر عن بني العباس إلى بني علي ابن أبي طالب وأنه أرسل في تلك الأثناء ثلاثة من العلويين هم: جعفر ابن محمد بن علي بن الحسن، وعمر بن علي بن الحسين بن علي، وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي رضى الله عنهم، وأرسل بكتبه إليهم، فقال أولهم: وما أنا وأبو سلمة هو شيعة لغيري وقرب إليه المصباح واحرق الكتاب ولم يقرأه وتمثل بقول الشاعر:

أيا موقدا نارا لغيرك ضوؤها * ويا حاطبا في غير حبلك تحتطب^(١)

أما ثانيهم فقد قرأ الكتاب وذهب إلى جعفر بن محمد وقال له: قد جاء لى كتاب أبوسلمة يدعو إلى الخلافة ويرى أنى أجود بها وقد جاءته شيعتنا من خراسان، فقال له جعفر بن محمد: ومتى صاروا شيعتك وجهت أنت أبامسلم إلى خراسان وأمرته بلبس السواد وغيره من الدعاة وهل تعرف أحدا منهم يكونون شيعتك وأنت لا تعرف أحداً منهم؟ ثم قال له: علم الله أننى أوجب النصح على نفسى لكل مسلم فكيف أدخره عنك فإن هذه الدولة تتم لبني العباس وما هى أحد من ولد أبطال وقد جاءنى ما جاعك فلم أحب عنه وستعرف الخبر، وأما عمه

(١) المسعودى: مروج الذهب، ج ٤، ص ٢٦٩.

ابن على بن الحسين فإنه رد الكتاب وقال: لا أعرف كاتبه فأجيبه^(١).
وهي تهمة حاول البعض إصاقها بأبى سلمة لمصلحة أئبمسلم حتى يتخلص من شخصية أبى سلمة بعد أن أدب السفاح وأهله وحفظهم من الخطر، وهي رواية يبدو فى ثناياها ما يكذبها فأين هي هذه الرسائل؟ وهل وقعت فى أيدى العباسيين "إن أول الرواية تقول أن جعفر بن محمد أحرق الرسالة وأخرها يقول أن عمر بن الحسين ابن على رد الرسالة، ونحن نرجح انه لم يكن هناك رسائل على الإطلاق، ثم أن قول عمر بن الحسين بأن هذه الدولة تتم لبنى العباس وما هي لأحد من ولد أبى طالب قول يتناقض مع إيمان بنى على بأحقيتهم فى الخلافة وتتناقض مع ما قيل من أن العباسيين عندما اختل أمر بنى أمية كانوا فيمن بايع محمد النفس الزكية بالخلافة إذا ما زالت دولة الأمويين.

فهذه رواية عباسية يقف من ورائها أئبمسلم ليتمكن بواسطتها من التخلص من شخصية أبى سلمة، وقد وصلت الرواية إلى مسامع السفاح فغيرته على أبى سلمة مراسل أئبمسلم فى ذلك فوجد أئبمسلم فيها فرصته التى رسم لها فأرسل إلى السفاح بمرار بن أنس الضبى ليقوم بقتل أبى سلمة^(٢).

وهنا تبرز صورة الغدر العباسى الذى يتنافى مع أخلاق العرب الأصلية، فإن السفاح أمر مناديا ينادى بأن أمير المؤمنين قد رضى عن أئبمسلم، ودعاه فكساه، وذهب أئبمسلم آمنا إلى السفاح وسهر معه معظم الليل، وفى طريقه إلى منزله خرج عليه مرار بن أنس الضبى ومن معه من أعوانه فقتلوه، ثم قيل بعد قتله أن الخوارج قتلوه^(٣)، وهذه طريقة غادرة فى التخلص من الرجل لا تليق بمن يحمل لقب أمير المؤمنين، وما كان أحراه بمحاكمة الرجل وتحرى الحقيقة فى أمره فإن ثبت تأمره حل قتله.

(١) مجهول: العيون، ص ١٩٦-١٩٧.

(٢) ابن الاثير: الكامل، ج ٤، ص ٣٣٦، محمد شاكراً: الدولة العباسية، ج ١، ص ٨٦.

(٣) Amir Ali: A short history of the saracenes, P.211.

وقد أبان الشاعر سليمان بن المهاجر ألبجلي عن فهم حقيقى لمقتل
أبى سلمة حيث قال:

إن الوزير وزير آل محمد * أودى فمن يشناك كان وزيراً^(١)
ويؤكد صدق شكه فى الأمر وإنه كان من تدبير أبومسلم لعدم رغبته فى
وجود شخصيات قوية تشاركه النفوذ فى دولة العباسيين تخلص أبومسلم كذلك
من شخصية داعى الدعاة سليمان بن كثير حيث اتهمه بنفس التهمة، وقال له:
"أنت منطو على غش الإمام" وأمر بضرب عنقه وادعى أنه يقوم بوصية إبراهيم
الإمام له حيث قال: "من اتهمته فاقتله"^(٢).

ولم يرغب على فطنة المنصور ما رمى إليه أبومسلم للتفرد بالنفوذ
والسلطة فى دولتهم فقال للسفاح فى أعقاب ذلك: "لست خليفة ولا أمرك بشئ أن
تركت أبامسلم ولم تقتله"^(٣).

أجمعت المراجع التاريخية على أن أباالعباس كان كريماً حليماً وقوراً
حسن الأخلاق سخي اليد كثير العطاء والهبات، والدليل على ذلك قصته مع أبى
دلامة حين كان واقفاً بين يديه، فقال له: سلني حاجتك يا أبادلامة! فقال: كلب
أتصيد به، قال: أعطوه إياه فقال أبادلامة: ودابة أتصيد عليه، فوافق أبوالعباس
فقال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه فأنعم أبوالعباس عليه بجارية. فقال:
هؤلاء عبيدك يا أمير المؤمنين فلا بد لهم من دار يسكنونها، فأمر بإعطائه داراً.
فقال: فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟ قال: أعطيتك مائة جريب عامرة
ومائة عامرة. فقال وما المغامرة يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب عامرة
من فيافي بني أسد فضحك الخليفة أبى العباس وقال: اجعلوها كلها عامرة فقبل
أبادلامة يده.

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٤٥٠؛ مجهول: العيون، ص٢١٣. وانظر: ابن طباطبا: الفخرى، ص١٥٥.

(٢) ابن الاثير: الكامل، ج٤، ص٣٣٦. وانظر: جمال سرور: الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية، ص١٧٩.

(٣) ابن الاثير: نفس المصدر، ج٤، ص٣٣٦.

٢. أبوجعفر المنصور (المؤسس الحقيقي للدولة العباسية)

(١٣٦.١٥٨هـ/٧٥٤.٧٧٥م)

كان السفاح قد عقد في سنة ١٣٦هـ لأخيه أبي جعفر عبدالله بن محمد بالخلافة من بعده، وجعله ولي عهد المسلمين، على أن يليه في ولاية العهد عيسى بن موسى بن محمد العباسي، فلما توفى السفاح كان أبوجعفر بمكة، فأخذ عيسى بن موسى البيعة لأبي جعفر وكتب إليه يعلمه بوفاة السفاح والبيعة له، وهكذا ولي المنصور الخلافة والأخطار ما تزال محيطة بالدولة، فهناك العلويون من آل الحسن وجماعة من أقاربه وأنصاره يكيدون له، وكان أبوجعفر على حد قول السيوطي "فحل بنى العباس هيبته، وشجاعته، وحزما ورأيا وجبروتا، جماعا للمال، تاركا للهو واللعب، كامل العقل، جيد المشاركة في العلم والأدب فقيه الناس، قتل خلقا كثيرا حتى استقام ملكه وهو الذي ضرب أبا حنيفة -رحمه الله- على القضاء ثم سجنه، فمات بعد أيام^(١)، ويصفه ابن طباطبا بقوله: " كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلانهم وعلماهم وذوى الآراء الصائبة منهم، والتدبيرات السديدة، وقورا شديد الوقار، حسن الخلق في الخلوة، من أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح.

ويضيف إلى هذه الصفات صفة المكر والتيقظ وينسب إليه أصل الدولة، وضبط المملكة وترتيب القواعد وإقامة الناموس^(٢)، ولهذا كله يعتبر أبوجعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية^(٣)، ولا شك أن الفترة التي قضاها المنصور في الخلافة العباسية تعتبر من أهم عصور الخلافة إن لم تكن أهمها على الإطلاق، فقد حكم ما يقرب من ٢٢ عاما حكما استبداديا اصطنع خلاله العنف والقسوة وأشاع أنه يحكم بتفويض من الله، كما يتجلى في قوله "إنما أنا

(١) السيوطي، ص ٢٤٢.

(٢) ابن طباطبا، ص ١٤١، ١٤٣.

(٣) عبدالمنعم ماجد: العصر العباسي الأول، ص ٥٥.

سلطان الله فى أرضه^(١)، وعلى هذا الأساس عمل العباسيون على الاحتفاظ بالخلافة فى دولة تيوقراطية أساس السيادة فيها لزعماء الدين، وكان من أثر ذلك أن أصبحت الخلافة العباسية ذات طابع استبدادى ودينى وركز الخليفة فيها جميع سلطات الدولة فى يده فلم يكون للوزير من الأمر شىء وفى سبيل تثبيت دعائم الدولة العباسية الفتية لم يتردد أبوجعفر المنصور فى الغدر بكثير من أنصاره و ببعض أقربائه^(٢)، وأصبح الغدر العباسى سمة تمثل الطابع الذى التزمته الدولة العباسية طوال تاريخها الطويل وقد استهل أبوجعفر عهده بقتل عمه عبدالله بن على الذى يرجع إليه الفضل الأول فى إيقاع الهزيمة بمروان بن محمد فى موقعة الزاب، وهو الذى تتبع الأمويين بالقتل والتشريد، وقضى على الفتن الكبرى التى قامت فى الشام ضد الحكم العباسى.

- المنصور وعبد الله بن على:

على حين كان الخطر الذى تهدد العباسيين أمويا فى عهد أبى العباس السفاح، تهدد أباجعفر المنصور خطر عباسى تمثل فى عمه عبدالله بن على الذى تطلع إلى الخلافة بعد موت السفاح^(٣) فى سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٤م حيث زعم أن أبى العباس السفاح عندما أراد توجيه الجنود إلى مروان بن محمد دعا بنى أمية فأرادهم على المسير إليه فهو ولى عهدى^(٤) فلم ينبر للأمر غيره وتشعر عبارة عبدالله بن على أن هذا كان أكبر حافظ له للسير إلى حرب مروان حيث يقول: "فعلى هذا خرجت من عنده وقتلت من قتلت"^(٥)، وشهد على صدق قول عبدالله عدة من قواد خراسان وقد شق عبدالله عصا الطاعة على المنصور ونادى بنفسه

(١) العقد الفريد، تحقيق الأستاذ أحمد أمين، القاهرة ١٩٤٤، ج ٤، ص ٩٩.

(٢) عبد العزيز الدورى: العصر العباسى الأول، ص ٧٠.

(٣) العدوى: نهر التاريخ الإسلامى، ص ٣٠٥.

Amir Ali, A short history of the saracenes, P. 213.

وكان عبد الله يعرف بعبد الله الأصغر لأن له أخوان أحدهما عبد الله الأكبر والثانى عبد الله الأوسط، عبد المنعم

ماجد: تاريخ الدولة العباسية، ص ٥٦.

(٤) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ٧٤؛ العيون، ص ٢١٧؛ نهر التاريخ الإسلامى، ص ٣٠٥.

(٥) ابن الوردي: تسمية المختصر، ج ١، ص ١٩٣. وانظر: Shaban, Islamic history, PP. 6-11.

خليفة، وبايعه على ذلك قواد جيشه العباسيون والجند الخراسانيون، وتوجه عبدالله إلى حران وأسر حاكمها فقاتل العكي واستولى على حصنه بعد حصار دام أربعين ليلة^(١).

وضرب عبدالله بن علي بنفسه قبل أن يغدر به مثالا للغدر ونقض الأمان حيث أمن فقاتل العكي وأرسله وابنيه إلى عثمان بن عبد الأعلى بن سراقه الأزدي في الرقة، وحمل العكي كتابا إلى عثمان كان من نتيجته أن قتل عثمان فقاتل العكي وحبس بنيه فلما بلغته هزيمة عبدالله بن علي بعد ذلك بنصيبين^(٢)، أخرج ابنى مقاتل من الجيش وعاقبهما.

وبنفس الأسلوب الغادر كتب عبدالله بن علي لحميد بن قحطبة كتابا وجهه به إلى حلب يأمر فيه حاكم حلب فرفر بن عاصم لقتله ولكن حميد بن قحطبة خشى من أمر الكتاب الذي يحمله ففتح في الطريق وقال: "إن ذهابي بكتاب لا أعلم ما فيه لغدر"، وكان حميد صادقا في حدسه إذ قرأ في الخطاب "إذا قدم عليك حميد ابن قحطبة فاضرب عنقه"^(٣).

وعلى الجملة، تمكن أبو مسلم الخراساني قائد المنصور من هزيمة عبدالله بن علي، وأنقذ الدولة العباسية الناشئة من خطر داهم وقد فر عبدالله عند هزيمته هاربا إلى البصرة^(٤) تاركا جيشه لمصيره خاتماً بذلك حياته شر ختام بهروبه من ميدان القتال^(٥) وأقام لدى سليمان بن علي، وذلك في سنة ١٣٧هـ^(٦).

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ٤٧٥؛ أبو الفدا: المختصر، ج ١، ص ٢١٤. وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٦١.

(٢) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة بينها وبين سنجار تسعة فراسخ وبين الموصل ستة أيام، وبين رينسر يومان عشرة فراسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٨٨-٢٨٩.

(٣) الطبرى: نفس المصدر، ج ٨، ص ٤٧٥.

(٤) الجوشيارى: الوزراء والكتاب، ص؛ مجهول: العيون، ص ٢١٩.

(٥) الخضرى: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، ص ٥٦.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٣٣٣.

وقد كتب سليمان وعيسى أخو عبدالله المنصور فى أن يؤمنه واستقر الأمر على إعطائه الأمان، وتولى كتابة صيغة كتاب الأمان عبدالله بن المقفع الكاتب الشهير الذى كان يكتب لسليمان بن على وقد أكد ابن المقفع الأمان أكبر تأكيد حتى أنه لم يدع للمنصور حيلة فيه لفرط احتياطه، وشق على المنصور بعض ما جاء فى هذا الأمان حيث كتب ابن المقفع على لسان المنصور "إن أنا نلت عبدالله بن على أو أحدا فمن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير، أو أوصلت إلى أحد منهم ضررا سرا أو علانية على الوجوه والأسباب كلها تصرحا أو كتابة أو بحيلة من الحيل فأنا نفى من محمد بن على ابن عبدالله ومولود لغير رشدة^(١)، وقد حل لجميع أمة محمد خلعى وحربى والبراءة منى، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى"^(٢).

وقد أثار ما ورد فى هذا الخطاب حنق المنصور على الكاتب من كتب هذا الأمان، فقليل ابن المقفع كاتب، فقال أبو جعفر فما أجد يكفنيه، وهكذا حكم المنصور بالإعدام على أن المقفع بهذه الجملة^(٣).

وعلى هذا الأساس اشخص عبدالله بن على إلى المنصور ولكن المنصور ما لبث أن غدر به ونقض عهده، وجاءت خاتمة عبدالله مثالا صادقا على غدر المنصور ونقض لعهوده وذلك أن المنصور أراد أن يتخلص من عيسى بن موسى ابن أخيه وولى العهد من بعد المهدي آنئذ وكذلك من عمه عبدالله بن على.

وقد كان المنصور عزل عيسى بن موسى من الكوفة وأرضها وولى مكانه محمد بن سليمان وأوفد عيسى على بغداد فدعا به ودفع إليه بعبدالله بن على فى جوف الليل، وتستكمل القصة مع الطبرى الذى يقول: "ثم قال: أى المنصور" له: يا عيسى أن هذا أراد أن يزيل النعمة عنى وعنك وأنت ولى عهدى

^(١) أى ولد سفاح وزنى.

^(٢) الجهشارى: الوزراء والكتاب، ص ١٠٤.

^(٣) أحمد شلى: موسوعة التاريخ الإسلامى، ج ٣، ص ٩٢.

بعد المهدي، والخلافة صائرة إليك، فخنصر إليك فاضرب عنقه، وإياك أن تخور أو تضعف فتتقض على أمرى الذى تدبرت ثم إن المنصور ألح على عيسى ثلاث مرات أن يقتل عبدالله فأخبره أنه قتله وكان عيسى تردد فى الأمر واستشار فى ذلك كاتبه يونس بن فروة فنصحه بقوله: أراد أن يقتلك ويقتله، أمرك بقتله سرا ثم يدعيه عليك علانية ثم يعيدك به " ثم أشار عليه بأن يحتفظ عليه فى منزله ولا يطلع على سره أحد وأنه إذا طلبه منه فيما بعد علانية فإن عليه أن يدفعه إليه علانية ولا يدفعه إليه سرا أبدا.

وصدق الرجل فيما توقعه، فإن المنصور اطمع أعمامه عن طريق بعض رجاله فى أنه سيهبه لهم إذا ما طلبوه منه، فجاءه فى ذلك وكلموه فوافقهم واستدعى عيسى بن موسى فأتاه فقال له: " يا عيسى قد علمت أنى دفعت إليك عمى وعمك عبدالله بن على قبل خروجى إلى الحج وأمرك أن يكون فى منزلك، فقال: قد فعلت ذلك يا أمير المؤمنين، ألم تأمرنى بقتله فقتله، قال: ما أمرك بقتله، إنما أمرك بحبسه فى منزلك: قال: قد أمرتنى بقتله، قال له المنصور كذبت أمرك بقتله، ثم قال لعمومته: "إن هذا قد أقر لكم بقتل أخيكم وادعى أنى أمرته بذلك، وقد كذب، قالوا: فادفعه إلينا نقتله به، قال: شأنكم به، فأخرجوه إلى الرحبة واشتهر الأمر فقام أحدهم فشهّر سيفه ليضربه، فقال له عيسى: أفاعل أنت؟ قال: أى والد، قال: لا تعجلوا ردونى إلى أمير المؤمنين فرده إليه، فقال: إنما أردت بقتله أن تقتلنى، هذا عمك حى سوى أن أمرتنى بدفعه إليك دفعته، قال اتنا به، فأتاه به فقال له عيسى: "دبرت على أمرا فخشيتك فكان كما خشيت شأنك وعمك المنصور لم يفرج عنه وحبسه حتى مات فى محبسه ضاربا عرض الحائط بوعوده وتأمينه، وقيل أنه حبسه فى بيت أسقط عليه وذلك أنه جعل فى أساسه الملح ثم أجرى فيه الماء فوق عليه^(١).

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ٧-٩؛ التوبرى: نهاية الأرب، ج ٢٢، ص ٦٣-٩٤؛ أبو المحاسن: النجوم لزاخرة، ج ٢، ص ٧-٨. وانظر: عبدالمنعم ماجد: تاريخ الخلافة العباسية، ص ٥٩؛ على حبيبة: العباسيون فى التاريخ، ص ٨٨.

ويقول صاحب شذرات الذهب: انهدم الحبس على الأمير عبدالله بن علي.... سجنه المنصور سراً وقيل أنه قتله سرا وهدم الحبس قصداً^(١).

ويقول ابن كثير: "أنه سجنه بدار جدرانها مبنية من ملح فلما كان من الليل أرسل على جدرانها الماء فسقط عليه البناء فهلك"^(٢).

ونحن نميل إلى أنه حبس حتى مات في حبسه، أما قصة البيت الذي بناه له المنصور ووضع في أساه ملحا أو أن البيت أن مبنيا قليلا وجدرانه فيها الملح، ثم أجرى عليه الماء فذاب الملح وسقط البيت فهو قول أقرب إلى الخيال. وعلى أية حال فقد راح عبدالله بن علي ضحية لغدر المنصور وعدم وفائه بعهوده، وقد كان هو نفسه مثالا للغدر وعدم الوفاء بالعهود فهي صفحة مزدوجة مليئة بالغدر ونكث العهود.

- موقف أبو جعفر المنصور من أبو مسلم الخراساني:

كان أبو مسلم الخراساني أكبر الركائز التي اعتمد عليها العباسيون في قيام دولتهم ولكن العباسيين ما لبثوا أن تخلصوا منه بعد أن ثبتت أركان دولتهم ورأوا في التخلص منه ضرورة ليستقر ملك بني العباس وإن تم التخلص منه بطريقة غادرة.

حقا كان أبو مسلم الخراساني شخصية طموحة وكان طموحه يخيف كلا من السفاح والمنصور، حتى أن المنصور طلب من السفاح قتل أبا مسلم لأن في رأسه غدره.

وحقا أن السفاح عارض أو -نظرا لبلاء أبا مسلم في نصرة العباسيين- ولكن المنصور قتل من فضل أبا مسلم حين قال: "إنما كان بدولتنا والله لو بعثت سنورا لقام مقامه وبلغ ما بلغ"^(٣)، فوافق السفاح على قتله ثم رجع نفسه وطلب من المنصور ألا يقدم على ذلك.

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ١، ص ٢١٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٠٤.

(٣) مجهول: العيون، ص ١٨٣.

ولا شك أن تقليل المنصور من دور أبمسلم نوع من نكران الجميل وهو فى جملة قول غير صحيح فنحن نشك كثيرا فى نجاح دعوة بنى العباس لو وُكِّل الأمر إلى شخص غير أبمسلم بكل ما كان له من مؤهلات الذكاء والدهاء السياسى، ولكنها المغالطة التى تسوغ الغدر.

وعلى الجملة فإنه بغير النظر إلى الأسباب الموضوعية التى كانت تدعو أباجعفر المنصور للتخلص من أبمسلم كانت هناك دافع شخصية تدفعه إلى ذلك، وقد أتاح أبو مسلم للمنصور فرصة الانتقام منه بسعيه لتحقيق طموحاته فى السلطان والقوة أو ما هو أكثر من ذلك، فادعى أنه من ولد سليط بن عبدالله بن العباس، وطلب أن يتزوج من آمنة بنت على عمّة المنصور ليثبت أنه من أصل عربى فيتحقق له ما يريد بالإضافة إلى تصرفاته الشخصية واعتداده بقوته أمام المنصور^(١).

ورغم كراهية المنصور له وادعائه أنه لم يكن له ما كان إلا بدولتهم فإنه اعتمد عليه - كما رأينا - فى القضاء على عمه عبدالله بن على الذى طمح إلى الخلافة بعد وفاة السفاح وهو ما يعد فى واقعه اعترافا عمليا من المنصور بما لأبى مسلم من وزن وقوة وهو ما يخالف قوله فيه فى حياة السفاح.

ونحن لا ندعى أن المنصور أخطأ بقتله أبمسلم الخراسانى فقد كان الرجل يمثل فعلا خطرا على الخلافة العباسية بأطماعه المجنحة، وهذا ما فطن له وجوه القوم فى دولة العباسيين كمسلم بن قتيبة الذى قال للمنصور عندما سأله عن رأيه فى أبى مسلم: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا"^(٢)، وما قال له جعفر بن حنظلة بعد قتل المنصور لأبى مسلم: "يا أمير المؤمنين أن كنت أخذت من

(١) مجهول: نفس المصدر، ص ١٨٣. وانظر كتاب: الزواج السياسى فى عهد الدولة العباسية، ص ١٥-٢٧.

(٢) المسعودى: مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٠٤؛ ابن الاثير: الكامل، ج ٤، ص ٣٥٥؛ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٧،

رأسه شعرة فاقتل ثم اقتل "كما أن جعفر بن حنظلة عد يوم مقتل أبومسلم أول أيام خلافة المنصور"^(١).

ولكننا نسوق قصة مقتله كشاهد على تحيل العباسيين وعدم وفائهم بعهودهم، فحتى يوم خروجه إلى القتل خرج مع عيسى بن موسى الذي طلب منه أن يكرب معه قائلا له: تقدم وأنت في ذمتي"^(٢)

وقد استقدمه المنصور بعد أن أرسل إليه من يكلمه باللين كلام ويمنيه ويعلمه أنه رافعه وصانع به ما لم يصنعه أحد"^(٣).

وقد اتخذ المنصور ليمثل أبومسلم أمامه بجانب أطماعه في الأمان الكثير من الوسائل فأوعز إلى البعض بتخويله، وقد نقل هؤلاء له على لسان المنصور قوله: "است للعباس واني برئ من محمد وإن مضيت مشاقا ولم تأتني، أن وكلت أمرك إلى أحد سوى لم آل طلبك وقتالك بنفسى، ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى اقتلك أو أموت قبل ذلك"^(٤)، وهو تهديد يحمل في طياته معان التأمين بمعنى أن حضوره بين يدي المنصور سينجيه من وعيده وتهديده.

كما أوعز إلى بعض وجوه بنى هاشم بمكاتبته يعظمون أمره له ما كان منه ويطلبون منه أن يظل على الطاعة وأن عود إلى أمير المؤمنين مطمعين إياه في رضاه بل وأظهر أنه يخصه بولاية مصر والشام على أن يقيم بالشام ليكون بقربه إذا أحب لقائه"^(٥).

وهكذا سلك المنصور كل الوسائل التي تقوده إلى غايته وهي التخلص من أبامسلم، وهي وسائل لا تتفق مع المثل العربية والإسلامية القائمة على

(١) المسعودى: مروج الذهب، ج٣، ص٣٠٤؛ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص١٩٢.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٤٩٠.

(٣) الطبرى: نفس المصدر، ج٧، ص٤١٤.

(٤) الطبرى: نفس المصدر، ج٧، ص٤٨٤.

(٥) الطبرى: نفس المصدر، ج٧، ص٤٨٤.

الوفاء بالكلمة ومعرفة قيمة العهود ولكنها تتفق مع مبدأ الغاية تبرر الوساطة، وفى هذا المعنى يقول الذهبي: "فما زال يستحيل عليه حتى انخدع ووقع فى مخالبيه"^(١).

على أية حال لم يجد أبو مسلم أمامه من سبيل غير المثل بين أيدي أبي جعفر المنصور وهو بين اليأس والرجاء: اليأس لعلمه بأخلاق العباسيين والرجاء فى أن يكون لتأمين المنصور له بعدما قام به فى نصرته الدولة شئ من الصدق وكان جزاء من انتقام أبي جعفر المنصور من أبو مسلم أن يمد له حبل الرجاء بعد أن مثل بين يديه فإنه عندما دخل عليه عشية وسلم عليه قال له المنصور: انصرف يا عبدالرحمن فأرح نفسك وادخل الحمام إن للسفر قشف ثم أعدو لى^(٢). وهكذا بات الرجل ليلة يحدوه الأمل خاصة والمنصور يخاطبه باسمه عبدالرحمن أفرأخا لروعه وإشعارا له بقربه.

وكان المنصور أعد العدة لقتله ولكن بعد أن يلاعبه لعبة القط بالفأر إمعانا فى تعذيبه فاستنكر أن يجرده من سيفه عند دخوله وقال له: "ومن فعل بك هذا قبحه الله" فأحيا الأمل فى نفس أبو مسلم فى العفو عنه ثم سارع فأمات هذا الأمل عندما أقبل عليه يعدد عليه مسأوته فقال له: "ألست الكاتب إلى تبدأ بنفسك والكاتب إلى تخطب أمينة بنت على وتزعم أنك ابن سليط بن عبدالملك بن عباس... فأيقن أبو مسلم أن نية الغدر مبيتة ولكن لا مانع من المحاولة فقال له: "استبطنى أمير المؤمنين لعدوك" فقال: "وأى عدو لى أعدا منك"^(٣) ثم قال: "قتلنى الله إن لم أقتلك" فضربه بعمود ثم خرج رجال أعدمه لقتله فتعأوروه بسيوفهم ثم قال متشفيا:

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٧، ص ٤٨٤، ٤٩٠.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٧، ص ٤٨٧؛ مجهول: العيون، ص ٢٢٢.

(٣) ابن طباطبا: الفخرى، ص ١٧٠؛ الذهبي: دول الإسلام، ج ١، ص ٩٤.

زعمت أن الدين لا ينقضى * فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأسا كنت تسقى بها * أمر فى الحلق من العلقم^(١)
وهكذا قضى أبوجعفر على أبمسلم فى شعبان سنة ١٣٧^(٢) بعد أن
خدعه بأمان زائف ومناه بأمانى كاذبة مكررا بذلك ما فعله مع يويد بن هبيرة من
قبل حين قتله بعد أمنه بمشورة من أبى مسلم^(٣).
وهى قتله وإن أدت الغرض منها إلا أنها خلت من شرف الكلمة والحفاظ
على العهد.

وعلى أية حالة فإن قتل أبى مسلم لم يكن محلا للإستغراب، "وكذلك نولى بعض
الظالمين بعضا مما كانوا يكسبون"^(٤).

وفى عهد المنصور ظهرت عدة نحل دينية أشهرها حركة الراوندية التى
ظهرت فى قرية رأوند بالقرب من أصفهان عقب مقتل أبمسلم الخرسانى وهى
حركة مستمدة من الأفكار الفلسفية القديمة التى روجها الفرس بدافع الشعور
بالقومية الفارسية ويعتقد أصحاب هذه الحركة بتناسخ الأرواح ويزعمون أن روح
أدم حلت فى عثمان بن نيهك وأن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم هو المنصور
وقد اعتبر المنصور هذه النحلة خروجا على الدين فحارب أصحابها فانقلبوا عليه
وكادوا يفتكوا به لكنه ظفر بهم وقتلهم. ثم تشكلت الراوندية فى حركات متفرعة
مختلفة منها الخرمية، وهى فرقة تدعى أيضا بالمسلمية قطعت بعدم موت
أبمسلم الخرسانى ومنها المقتنية نسبة إلى رجل من مرو من أنصار أبمسلم
ادعى الألوهية واتخذ قناعا يخفى قبح وجهه، وأباح المقتنع ترك الصوم والحج

(١) الطبرى: المصدر السابق، ج٧، ص٤٩١؛ مجهول: المصدر السابق، ص٢٢٤. وانظر النويرى: نهاية الأرب، ج٢٢، ص٧٥.

(٢) أبوالفدا: المختصر، ج١، ص٢١٤، ٢١٥.

(٣) الخضرى: محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، ص٤٠٥. وانظر: جمال سرور: الحياة السياسية
فى الدولة العربية الإسلامية، ص١٧٩.

(٤) أحمد شلى: موسوعة التاريخ الإسلامى، ج٣، ص١١٠.

والزكاة، كما أباح النساء لأتباعه، ولم يتم القضاء على هذه الحركة إلا فى زمن المهدي.

- الغدر ونقض العهود مع العلويين:

نشطت قبيل سقوط الدولة الأموية حركتان تنظيميتان تطمحان إلى تولى مقاليد الحكم من بنى أمية، كانت أولهما تعمل على إسقاط هذا الحكم بقوة، وكانت الأخرى تنتظر تهاوى هذا الحكم بدون أن تسعى جدياً إلى إسقاطه، الأولى: حركة ثورية نشطة مركزها خراسان والكوفة يتزعمها العباسيون الذين وجدوا فى الفرس الحاقدين على العرب خير مؤيد لدعوتهم، والثانية ثورية هادئة تتمركز فى الحجاز يتزعمها محمد النفس الزكية.

وكانت الحركة الأولى أقدر على التنظيم وعلى التحرك ومؤيدوها أكثر تعصبا وأقوى جلدًا يمدهم الحقد على العرب بطاقة عارمة حاقدة فى حين كانت الأخرى تعتمد على ما وقر فى النفوس من حق آل على وعطف عليهم وإن نقصها الوقود الذى توفر للحركة الأولى، وعابها ببطء التحرك النشط.

وانتهى الأمر بانتصار العباسيين وقيام دولتهم وتفجر الصراع فى عهد المنصور بينه وبين محمد النفس الزكية^(١)، وسار الصراع بينهما على محورين: سياسى بالكلمة والحجة وحربى بالسلاح والجند.

ويهمنا فى هذا المجال مكاتبتان بين المنصور وبين محمد النفس الزكية: قال له المنصور: 'فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به'^(٢)، وكان جواب محمد النفس الزكية: 'فأى الأمانات تعطينى أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبدالله بن على أم أمان أبى مسلم'^(٣) ويقول له: 'فإنك تعطى العهد ثم تنكث ولا تفى، كما فعلت بابن هبيرة

(١) Sounders: A history of Medieval Islam, P.112.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ٥٦٦.

(٣) الطبرى: نفس المصدر، ج ٨، ص ٥٦٨، مجهول: العيون، ص ٢٤١.

فإنك أعطيته العهد ثم غدرت به، ولا أنشد غدا بأمر أمام أغانر، وكذلك فعلت بعمك عبدالله بن علي وأبمسلم الخراساني ولو أعلم أنك تصدق لأجبتك لما دعوتني إليه، ولكن الوفاء بالعهد من مثلك لمثلي بعيد والسلام^(١).

ونستشهد بذلك أن غدر العباسيين وعدم احترامهم لمواثيقهم لم يجعل العباسيين محلاً لثقة العلويين، ولقد أصابهم فعلاً أنواع من هذا الغدر ونقض العهود .

- بناء مدينة بغداد في عهده :

ويرجع سبب بنائه لها على حد قول بن الأثير إلى أنه لما ثارت الراوندية في الهاشمية الواقعة بنواحي الكوفة "كره سكانها لذلك ولجوار أهل الكوفة أيضاً فإنه كان لا يأمن أهلها على نفسه وكانوا قد أفسدوا جنده، فخرج بنفسه يرتاد له موضعاً يسكنه هو وجنده فأنحدر إلى جرجرايا ثم أصدع إلى الوصل وسار نحو الجبل في طلب منزل يبني له، حتى اهتدى إلى موضع ببغداد، الذي يجمع بين الماء والزرع في موقع يمكن أن تصل إليه السفن من الشام والرقعة والميرة من الصين والهند والبصرة وواسط والموصل وأرمينية بين أنهار لا يصل إليه عدوه إلا على قنطرة فأعجبه المكان وعزم على اختياره لإنشاء بغداد وأمر باختيار قوم من ذوى العقل والعلم والمعرفة بالهندسة ليتولوا تخطيط المدينة فابتدأ المنصور بإنشائها في سنة ١٤٥ هـ وكتب إلى عماله بالشام والجبل والكوفة ورباط والبصرة يأمرهم بإنقاذ الصنائع والفعلة فكان ممن أحضر من الكوفة من كبار العقلاء الحجاج بن أرتاء وأبو حنيفة وتم البناء في سنة ١٤٦ هـ وجعلها المنصور مدورة وفتح سورها أربعة أبواب^(٢)، ومن أسمائها بغداد أو بغدان والزوراء

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٨٥.

(٢) هي باب خراساني في الشمال الشرقي وباب البصرة في الجنوب الشرقي وباب الكوفة في الجنوب الغربي وباب الشام في الشمال الغربي وعلى كل باب منها مجالس وقاب مذهبة يصعد إليها على الجبل. يعقوبي، ج ٢، ص ٣٧٣.

لأنحراف قبلتها إلى اليسار وقيل لازورار نهر دجلة عند مروره بها، كما سمي الجانب الشرقي منها الروحاء لانبساط مجرى النهر عنده. وفي وسط المدينة أقام قصره والجامع ودار حرسه ومنازل أولاده ومنازل من يقوم بخدمتهم وقصور الأمراء ورجال الدولة^(١)، ودور الأهالي تتخللها الأسواق وقد حرص على تحصينها لتحاكى فى العظمة والفخامة والمناعة القسطنطينية العظمى ومن أشهر قصور بغداد قصر الضيافة المعروف بالخضراء وكان ينزل فيه السفراء والوافد من على بغداد من مختلف الأقاليم حتى يحدد لهم المنصور وقت مقابلته لهم وكان بأعلى هذا القصر تمثال على صورة فارس فى يده رمح يدور مع الريح^(٢)، ووصفت قبة القصر بأنها كانت تاج البلد وعلم بغداد كذلك بنى قصر الخلد على شاطئ دجلة الغربى خارج بغداد بينما كان قصر الذهب فى قلب المدينة وأقام المنصور خارج بغداد على الضفة الشرقية من نهر دجلة فى قبالة المدينة ربضا سمي برصافة بغداد واتخذة ثكنات لجنده وسوره وخندق حول السور وسرعان ما عمرت الرصافة وأصبحت تضاهى بغداد فى العظمة وفى سنة ١٥٧ هـ أمر المنصور ببناء "محله الكرخ" فى الجهة الجنوبية ويرجع السبب فى بناء الكرخ إلى ارتفاع الدخان المتصاعد من الأسواق وسببه فى أسوداد بغداد الأمر الذى أزعج المنصور وضايقه فأمر بنقل هذه الأسواق والتي كانت تشغل قسماً كبيراً من مدينته إلى الجنوب حيث الكرخ وقيل فى سبب نقل الأسواق إلى الكرخ أن رسول ملك الروم جاء إلى بغداد فأمر الربيع فطاف فى المدينة فسأله المنصور: كيف رأيتها؟

قال : "رأيت بناء حسناً إلا أنى رأيت أعداءك معك وهم السرقة فلما عاد الرسول عنه أمر بإخراجهم إلى ناحية الكرخ وقيل إنما أخرجه لأن الغرياء

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٥٧٤.

(٢) البيهقي، ج ٢، ص ١٤٢.

يطرقونها ويبيتون فيها وربما كان فيهم الجاسوس وفي عهد المنصور غزاه البيزنطيون بعض أراضي الشام في سنة ١٣٨هـ (٧٥٥م) في عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس واستولوا على ملطية وهدموا سورها ولكن المنصور تمكن من استردادها في العام التالي وأقام فيها حامية عسكرية كبيرة وفي عهده استقل عبدالرحمن بن معاوية المعروف بالداخل بالأندلس عن الخلافة العباسية فأراد المنصور أن يقضى على سلطان عبدالرحمن الأموي فبعث العلاء بن منيث اليحصي إلى الأندلس لمحاربة عبدالرحمن ولكن الأمير تمكن من إيقاع الهزيمة بالعباسيين في قرمونة^(١).

- المنصور وعيسى بن موسى:

عقد السفاح في سنة ١٣٦هـ قبل وفاته لأخيه أبي جعفر عبدالله بن محمد من بعده، وجعل ولي عهد المسلمين^(٢) ومن بعد أبي جعفر المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى^(٣) بن محمد على وجعل العهد في ثوب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته، ودفعه إلى عيسى بن موسى وقد أخطأ أبو العباس السفاح في توليته العهد اثنين، وكان ذلك من عوامل ظهور الخلافة والنزاع بين البيت العباسي^(٤) فلما توفي السفاح كان أبو جعفر بمكة فأخذ عيسى بن موسى البيعة لأبي جعفر وأرسل إليه يخبره بوفاة السفاح والبيعة له^(٥).

وفي نفس الوقت أرسل عيسى بن موسى إلى عبدالله بن علي بالشام يخبره بوفاة السفاح ويأمره بأخذ البيعة للمنصور فكان من أمره ما ذكرناه.

(١) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ١٩٨ .

(٢) Amir Ali, A short history of the Saracenes, P. 213.

وقد توفي السفاح في الأنبار بعد حكم دام أربعة سنين وتسعة شهور.

H. Ibrahim, history and Islamic culture, P. 103.

(٣) ويبدو أنه ولاه بقصد أرضا أعمامه وربما حدا لطموح عبد الله بالذات. عبد المنعم ماجد: تاريخ الدولة العباسية، ص

(٤) جمال سرور: الحياة السياسية في الدول العربية الإسلامية، ص ١٠٨ .

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٧٤٧ .

وكان المنصور يضمّر إزاحة عيسى بن موسى عن ولاية العهد حتى أنه عندما أرسله إلى قتال محمد النفس الزكية قال: "لا أبالي أيهما قتل صاحبه"^(١) فلما انتهى أمر محمد النفس الزكية وجه المنصور بعيسى بن موسى إلى قتال إبراهيم بن عبدالله أخي محمد النفس الزكية وفي نفسه الرغبة نفسها.

وفي سبيل إزاحة عيسى بن موسى من ولاية العهد لم ينال المنصور بما سبق وعقده السفاح ولجأ إلى أساليب غير نظيفة^(٢) في سبيل تحقيق هذا الهدف أوجزها ابن العماد الحنبلي في قوله: "الح المنصور وتحيل بكل ممكن على ابن عمه ولي العهد عيسى ابن موسى بالرغبة والرغبة حتى خلع نفسه كرها، وقيل بل عوضه عشرة آلاف درهم وعلى أن يكون أيضا ولي عهده بعد المهدي بن المنصور."^(٣)

وقد بدأ المنصور محاولته بأن ألان الكلام لعيسى بن موسى ليقبل، ولكن عيسى تمسك بحقه بشدة في ولاية العهد ورأى ضرورة الالتزام بعهد أبي عبدالله السفاح له فقال للمنصور: "يا أمير المؤمنين فكيف بالإيمان والمواثيق التي على وعلى المسلمين لى من العتق والطلاق وغير ذلك من مؤكد الإيمان ليس إلى ذلك سبيل يا أمير المؤمنين"^(٤)، فبدأ المنصور يتغير عليه في مجالسه ويشعره بذلك في تحد سافر، فكان يأذن للمهدي قبله في الدخول ويجلسه عن يمينه في مكان عيسى بن موسى من قبل فإذا ما دخل عيسى جلس دون مجلس المهدي عن يمين المنصور أيضا ولا يجلس عن يساره في مكان المهدي سابقا فكان ذلك يغبط المنصور، ثم زاد المنصور: فكان يأذن للمهدي ثم لعيسى بن على، وبعد فترة يأذن لعبد الصمد ابن على، وأخيرا يأذن لعيسى بن موسى وكان

(١) ابن الأثير: نفس المصدر، ج ٥، ص ٨.

(٢) Amir Ali, A short history of the saracenes, P.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ١، ص ٢١٩.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ١٠؛ مجهول: العيون، ص ٢٥٩؛ ابن طباطبا: الفخرى، ص ١٧٢.

يوهم عيسى بن موسى بأنه إنما يقدمهم لحاجة تعرض ولمذاكراتهم بالشئ من أمره والتزم عيسى بن موسى بضبط النفس فلم يشك ولم يستعجب.

ثم خطأ المنصور خطوة أخرى في إهانة عيسى بن موسى فكان يسمع في الحجرة التي يجلس فيها مع بعض ولده حتى يؤذن لى بالدخول إلى المنصور، الحفر في أصل الحائط وينظر إلى لخشب من سقف المجلس قد حفر من أحد طرفيها لتقلع فيسقط التراب وقال يا عيسى ما يدخل على أحد بمثل هيئتك من كثرة الغبار عليك والتراب عليك والتراب، أفكل هذا من الشارع؟ فيجيبه عيسى: احسب ذلك يا أمير المؤمنين^(١).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وصل إلى دس السم له فى شراب شربه، أحس بعده عيسى بالماء فى بطنه فارتحل إلى الكوفة وأراد الله له أن يشفى بعد أن أشرف على الموت، وحاول المنصور تبرئة نفسه من أن يكون له دخل فى ذلك فأظهر الفزع مما أصاب عيسى، وأمر طبيبه بختيشوع بمعالجته، ولم يخف الأمر على عيسى بن موسى وعلى خاصة الخليفة، وقد أوعز الطبيب بختيشوع إلى عيسى بأن يعالج فى الكوفة وليس فى قصر الخلافة وقال لعيسى: "والله ما اجترئ على معالجتك بالحضرة، وما آمن على نفسى"^(٢).

وكان ما أصاب عيسى بن موسى من آثار هذا السم شديدا أثر فى مسمعه وفى بصره بل إنه أدى إلى سقوط شعره.

ويبدو أن بيختشوع نفسه هو الذى نفذ أمر الخليفة أولا باسقائه السم، ومن ثم فكان يعرف ترياق ما أعطاه يعرف طريقة علاجه ولعل حرص على ألا يرجع المنصور فى أمره بعلاجه أو يصدر أمراً آخر ينهى حياة عيسى فطلب من عيسى ألا يعال فى قصر المنصور.

(١) ابن طباطبا: المصدر السابق، ص ١٧٣، النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٢، ص ٩٣.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ١١.

وفى وصف ما أصاب عيسى بن موسى ونجاته من الموت قال

الشاعر: (١)

أفلت من شربة الطيب كما * أفلت طبى الصريم من فترة
من قانص ينفذ الفريص إذا * ركب سهم الحتوف فى وتره
دافع عنك المليك صولة ليد * ث يريد الأسد فى ذرى خمره
حتى أتانا وفيه داخله * تعرف فى سمعه وفى بصره
ازعر قد طار عن مفارقه * وحف أثيث النبات من شعره

ويبدو أن المنصور وجد فى تحريض عيسى بن على له على إجبار عيسى بن موسى على خلع نفسه طريقة ناجدة لتحقيق هذا الأمر، فقد قال عيسى بن على للمنصور: أن عيسى إنما يمتنع من البيعة للمهدى لأنه يربص هذا الأمر لابنه موسى، فموسى الذى يمنعه^(٢) فطلب منه المنصور أن يكلم عيسى بن موسى فى ذلك ويتهدده فى ولده ويحذره من غضب المنصور.

وأدرك موسى بن عيسى بن موسى ما يتهدد أباه فقصد العباس ابن محمد وقص عليه تصرفات المنصور مع أبيه وتصميم أبيه على التمسك بحقه، فأظهر له خوفه على أبيه وطالبه بأن يطلب من المنصور أن يظهر محاولة الفتك به أمام أبيه لعل ذلك يثنيه عن التمسك برأيه حتى لا يكون فى ذلك هلاكه، فاستصوب الرجل رأيه، واخبر المنصور بذلك، فوافق على القيام بهذه التمثيلية، وانتهى الأمر بموافقة عيسى بن موسى وهو يرى ابنه يكاد يهلك أمام عينية مشدودا بحمائل سيفه وقال للمنصور: "والله يا أمير المؤمنين ما ظننت الأمر يبلغ منك هذا كله فمر بالكف عنه، فإنى لم أكن لأرجع إلى أهلى وقد قتل بسبب هذا الأمر عبد من عبيدى، فكيف يا بنى؟ فما أنا أشهدك أن نسائى طوالق ومماليكى أحرار، وما أملك فى سبيل الملك تصرف ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين وهذه يدى بالبيعة للمهدى.

(١) الطبرى: نفس المصدر السابق، ج ٨، ص ١١.

(٢) الطبرى: نفس المصدر، ج ٨، ص ١١ - ١٢.

فقال أهل الكوفة: هذا الذي كان غدا فصار بعد غد^(١) هكذا تنازل الرجل عن حقه مكرها، فهل تصبح بذلك بيعة؟ وهل تتعقد بذلك خلافة؟ وأن ولاية العهد للمهدى على هذا النحو سبة في جبين عهد المنصور توضح بجلاء خلة الغدر وعدم احترام العهود والعقود.

وقد أردف المنصور إكراه عيسى بن موسى على التنازل عن ولاية العهد بإكراهه على أمر آخر وهو أن يجعل نفسه تاليا في ولاية العهد للمهدى بن المنصور، وأن ألبس ألباطل هنا ثوب الحق حيث قال لعيسى بن موسى: لى حاجة أحب أن تقضيها طائعا فتغسل بها ما فى نفسى من الحاجة الأولى: تجعل هذا الأمر بعد المهدي لك، "فقال عيسى: "ما كنت لأدخل فيها بعد إذ خرجت منها"، فلم يتركه المنصور ومن كان معه من أهل بيته حتى قال: "يا أمير المؤمنين أنت أعلم".^(٢)

وهكذا أجبر المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى فى الأول وفى الآخر، ونقض عهد أخيه أبى العباس السفاح دون نظر إلا إلى أنانية نفسه فى ولاية ابنه.

ونتيجة لرضا عيسى بن موسى وانصياعه فى النهاية لأمر المنصور أنصلح أمره وأمر بنية عند المنصور، وأقبل عليه بعدما كان أعرض عنه^(٣). على أن ثمة روايات أخرى مختلفة فى مسألة تحويل ولاية العهد عن عيسى بن موسى إلى المهدي غير أنها تتفق جميعا فى أنها وسائل غير شريفة: كحثه الجنود على الإساءة إليه وإسماعه ما يكره، فلما شك الأمر إلى المنصور أفصح عن سريرته فقال:

"يا ابن أخى أنا والله أخافهم عليك وعلى نفس فإنهم يحبون هذا الفتى

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٢٤.

(٢) مجهول: العيون، ص ٢٦١.

(٣) الطبرى: نفس المصدر السابق، ج ١٠، ص ١٤.

فلو قدمته بين يديك لفقوا"^(١) فكان ذلك السبب في استجابة عيسى بن موسى لرغبة المنصور.

وكذلك رواية تدعى أن المنصور اشترى ذلك من عيسى بن موسى بأحد عشر مليوناً من الدراهم فاشهد عيسى على نفسه بالخلع ورواية تذكر أن المنصور استشاره خالد بن برمك في هذا الأمر، وإن المنصور أرسل خالد ومعه ثلاثون من كبار شيعته فامتنع عيسى، ولكن القوم رجعوا إلى المنصور وشهدوا أن عيسى خلع نفسه^(٢) فبايع المنصور للهدى، وقد يقال فيما يختص بهذه الرواية أن المنصور أرسل رسلاً وعمل بشهادتهم" ولكن هل كان المنصور في حاجة إلى إرسال خالد برمك إلى عيسى مع أن عيسى كان يحضر مجالس المنصور ومع ذلك فإن كان ذلك قد تم فإن الرواية تذكر أن عيسى أتى إلى المنصور وأنكر ما شهد به القوم من خلع نفسه، وعلى ذلك فهو تدبير سيء من المنصور يضيف إليه صفة تزوير أرادة عيسى بن موسى بقضية ملفقة ويشهود زور.

وتوفى المنصور في سنة ١٥٨ هـ بالقرب من مكة وهو في طريقة للحج.

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٢٤.

(٢) مجهول: العيون، ص ٢٦١.



ملوية جامع أبي دلف

٣- الخليفة المهدي بن منصور (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٧-٧٨٥م)

هو محمد بن عبدالله المنصور، بويع له بمكة ، لان الناس سبق لهم ان بايعوه بولاية العهد ، وكان الشاعر أبو دلالة اول من هناه بالخلافة وعزه فى وفات أبيه فى قصيدة رائعة منها:

عيناي واحدة ترى مسرورة بأمرها جذلى وأخرى تذرف

تبكى وتضحك تارة ويسوعها ما أنكرت ويسرها ما تعرف

وحكم المهدي قرابة ١١ سنة قضتها الدولة فى سلام وساعد على ذلك ميله إلى السلم واستقرار أمور الدولة فى حياة أبيه. وقد عكف المهدي على الفنون وخاصة العمارة فأقام سور الرصافة وبنى مسجدها ووسع المسجد النبوى بالمدينة وجملته بالفسيفساء والعمد وكسا الكعبة سنة ١٦٠هـ بالديباج والخز والقباطر، وظلى جدرانها بالمسك والعنبر وبنى على جوانب الطريق المؤدى إلى الحج منازل ومحطات لراحة الحجاج وأمر كذلك بالزيادة فى المسجد الجامع بالموصل فى سنة ١٦٣هـ وكان المهدي من أكثر الخلفاء العباسيين حبا للموسيقى والغناء، وكان بلاطه يكتظ بالمغنيين وذوى المواهب الفنية أمثال حكم الوادى وسياط وإبراهيم الموصلى، وبشير بن خلكان إلى أنه كان أحسن الناس صوتا، وكان ابنه أبو إسحق من كبار المغنيين الموسيقيين فى بلاط الرشيد والأمين، وعد إبراهيم زعيم الحركة الموسيقية الإبداعية الفارسية، بخلاف إسحق الموصلى الذى تزعم المدرسة التقليدية العربية^(١).

(١) راجع فارمر، تاريخ الموسيقى الأندلسية، ترجمة الدكتور حسين نصار، القاهرة ١٩٥٦، ص ١٤٢.

وكان المهدي شديداً على أهل الضلال والزندقة لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم^(١)، ففي عهده ظهرت حركة المقنعية بزعامة المقنع الخرساني سنة ١٥٩ هـ قادها رجل من أهل مرو - موطن النحل الفارسية - أعور، قصير القامة، دميم الخلق، اتخذ لوجهه قناعاً من ذهب لإخفاء قبح وجهه، وادعى الألوهية، وكان يقول أن الله خلق آدم، فتحول في صورته نوح، وهكذا هلم جرا إلى أبي مسلم الخرساني ثم تحول إلى هاشم، وسمى نفسه هاشماً وكان يقول بالتناسخ، فتابعه في الضلال خلق كثير وكانوا يسجدون إلى ناحيته أينما كانوا من النواحي، وكانوا يقولون في الحرب: "يا هاشم أعنا". وتجمع حوله حشد كبير من التابعيين وتحصنوا في قلعة بسنام وسنجرده من رستياق كش، وأعانه الترك في بخارى والصند^(٢)، ولكن هذه الحركة لم يطل أمدها، فقد انتهت بهلاك المقنع، ذلك أن المهدي سير إليه جيشاً بقيادة معاذ بن مسلم، وسعيد الحرشي أوقع بأصحاب المقنع فهزمهم فلما أيقن المقنع بالهلاك جمع نساءه وأهله وسقاهم السم، وأمر أن يحرق هو بالنار حتى لا يمثل بجثته^(٣).

كذلك ظهرت في أيام المهدي حركة الزندقة، وكان أصحاب هذه الحركة ينادون بالإباحية المطلقة والفوضى والتحلل من جميع القيم والروابط الاجتماعية وقد تتبع المهدي الزنادقة في كل مكان، ونكل بهم وعين لمطاردتهم رئيساً يعرف بصاحب الزندقة، قتل منهم أعداداً هائلة، وبلغه أن صالح بن أبي عبيدالله كاتبه زنديق، فأحضره فلما تأكد لديه ذلك قتله^(٤)، والمهدي أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين .

— المهدي وعيسى بن موسى:

(١) ابن طباطبا، ص ١٦١.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٣٩ ابن طباطبا، ص ١٦٢

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٥٢. ابن طباطبا، ص ١٦٢

(٤) البعقوبي، ج ٢، ص ٤٠٠.

وسار المهدي على نهج أبيه واتخذ نفس السبيل ليجعل عيسى ابن موسى يخلع نفسه من ولاية العهد لصالح موسى بن المهدي، وذلك بعد مضي سنة واحدة من خلافته^(١) وأرهبه وأرغبه^(٢) ولم تسمح نفسه موسى بأن يتكرر معه مع المهدي نفس ما حدث مع المنصور فرفض النزول عن حقه الذي سبق أن زحج عنه بغير وجه حق ولكن كيف له أن يتمسك حتى النهاية والمهدي يتهدده قائلاً: "أنك أن لم تحين أن تنخلع منها حتى أبايع لموسى وهارون استحللت منك بمعصيتك ما يستحل من العاصي وأن اجبتني عوضتك منها ما هو أجدى عليك وأعجل نفعاً"^(٣).

وكيف له أن يتمسك وقد بلغ الأمر بالمهدي أن حرض شيعته على عيسى حتى إذا حضر الدار يوماً وجلس في مقصورة الربيع اجتمع رؤساء شيعة المهدي على خلعه، فثاروا به وضربوا باب المقصورة بالعمد حتى حشموه، وشتموا عيسى اقبح الشتم، وأظهر المهدي إنكاراً لما فعلوه فلم يرجعوا، فبقوا في ذلك أياماً، وكاشفه المهدي وألح عليه فذكر أن عليه أيماناً في أهله وماله، فأفتاه الفقهاء بما رأوا أنه لا يحنت فأجاب إلى خلع نفسه، فأعطاه المهدي عشرة ملايين من الدراهم وضياعاً بالزاب وكسكر"^(٤)

كان عيسى مضطراً إلى خلع نفسه في عهد المنصور واضطر إلى خلع نفسه في عهد المهدي دوت أن يراعى أي من المنصور أو المهدي عهداً أو يرضى ميثاقاً فكلاهما كان غادراً للعهد ناقضاً للمواثيق، وأن كان المهدي زاد فأبعد عيسى تماماً حيث جعل ولاية العهد من بعده لموسى ثم لهارون، ومن ثم فقد ابتعدت الخلافة عن عيسى بن موسى بنفس القدر الذي ابتعد به خلفاء بني العباس عن الوفاء بعودهم.

(١) الجهمشاري: الوزراء والكتاب، ص ١٤٥.

(٢) ابن طباطبا: الفخرى، ص ١٨٠.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٢، ص ١١١.

(٤) النويري: نفس المصدر، ص ١١٢.

وقد عاب بعض الشعراء على عيسى قبوله خلع نفسه ورأى أن موته فى سبيل ذلك كان أكرم له فقال^(١):

كره الموت أبو موسى وقد * كان فى الموت نجاة وكرم
خلع الملك واضحى لابساً * ثوب لوم لا ترى من القدم
على أن العبرى يذكر عيسى بن موسى أبى البيعة للمهدى بعد وفاة المنصور، وأنه امتنع بالكوفة وأراد أن يتحصن بها^(٢) ولكنه فيما يبدو لم يجد أنصاراً فأضطر إلى الدخول فى طاعة المهدي وإلى هذا يشير الشيخ الخضرى حيث يقول: "وفى رأى أنه لو وجد نصراء لفعل وأنه قد أثر عن عيسى أنه أثر مصلحة الأمة على نفسه فقال:

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما * أما صغار وأما فتنة عم
وقد همست مرارا أن أساجلهم * كأس المنية لولا الله والرحم^(٣)

وفى عهد المهدي ساءت العلاقات بين البيزنطيين والعباسيين فلم تنقطع الحرب البرية البحرية بينهما، فمنذ سنة ١٥٩ هـ توالى حملات المهدي على البيزنطيين، وقد رد البيزنطيين على تلك الغارات، فأغاروا على مرعش وأحرقوها، فجعل ابنه هارون فى حلب لمهاجمة البيزنطيين، وعمل هارون على مقاتلتهم، فوصل جيشه إلى سواحل البسفور، وأرغم الإمبراطورة إيرين الوصية على ابنها قسطنطين السادس على أن تدفع للمسلمين مبلغاً قدره سبعون ألف دينا سنوياً، وعقدت الهدنة بين المهدي وإيرين لمدة ثلاث سنوات.^(٤)

(١) التويرى: نفس المصدر، ج ٢٢، ص ١٢٢؛ الجهشارى: الوزراء والكتاب، ص ١٤٦.

(٢) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ١٢٥.

(٣) الخضرى: محاضرات الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، ص ٥٠٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ٢٢-٢٣.

٤- موسى الهادي بن المهدي

(١٦٩-١٧٠ هـ / ٧٨٥-٧٨٦ م)

هو محمد موسى الهادي بن المهدي بويع له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه المهدي، وفي عهده القصير ضعفت الخلافة العباسية، فقد أصبحت أموال الدولة تصرف على المقربين والمتصلين به من الشعراء وغيرهم، كذلك بدأ نساء القصر يتدخلن في شئون الدولة، مما قلل هيبتها، فكانت أمة الخيزران حاكمة مستبدة بالأمر الكبار، وكانت المواكب تندو إلى بابها، وقيل أنها سعت إلى قتله لما وعك فسمته وقيل غموا وجهه ببساط جلسوا على جوانبه^(١). وقال فيها الشاعر مراون بن ابي حفصه (من بحر الوافر) :

ياخيزران هناك ثم هناك أمسى العباده يسوسهم ابناك

- نقض الهادي لعهد المهدي:

واستمرارا لسلسلة نقض العهود في البيت العباسي نفسه سلسلة الهادي مسلك جده وأبيه مع أخيه هارون الرشيد فعمل على خلعه من ولاية العهد وتوليه ابنه جعفر^(٢) فعرض عليه أن يعطيه الأمر ما يشاء ليخلع نفسه^(٣) فرفض بإيحاء من يحيى بن خالد البرمكي وقد نصح يحيى الهادي قائلاً: "يا أمير المؤمنين، إنك أن حملت الناس على نكث الإيمان، هانت عليهم إيمانهم وأن تركتهم على بيعة أخيك، ثم بايعت لجعفر من بعده كان أوكد لبيعته"^(٤).

^(١) ابن الأثير، ج ٦، ص ١٠٠؛ السيوطي، ص ١٦٠ وما يليها. يعللون سبب حقدتها عليه بأنه حاول اقضاء أخيها هارون الرشيد عن الخلافة وألبيعه لابنه جعفر فخافت الخيزران على هارون، وكانت تحبه ففعلت بالهادي ما فعلت، وقيل أنه كان شديد الغيرة على الخيزران فكره منها خروجها في المواكب، واتهمها بمصاحبة رجل يقال له عبدالله بن مالك، فغاضبها وأقسم ليضربن عنقه. راجع: السعودي، ج ٣، ص ٣٢٨؛ ابن الأثير، ج ٦، ص ١٠٠؛ ابن طباطبا، ص ١٧٣.

^(٢) محمود شاكر: الدولة العباسية، ج ١، ص ١٥٢.

^(٣) الرئيس: الخراج في الدولة الإسلامية. وانظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٠.

Brokwlman, History of Islamic people, P. 114.

^(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ٢٠٩. Brokelman , Ibid, P.114

وظهر الإجماع فى نقض العهود فى تصرف موسى الهادى بعد ذلك ليتخلص من هارون ومن يحيى، فقد أرسل إلى القائد هرثمة بن أعين وقال له: "قد تأذيت بهذا الكلب الملحد يحيى بن خالد ليس له شغل إلا تدريب الرجال، واجتذابهم إلى صاحبه هارون فأريد منك أن تمضى الليلة إلى هارون وتجيئنى برأسه أما أن تفعل ذلك فى داره وتحتاط فى التدبير حتى لا يفوتك أو تخرجه برسالة منى تستدعيه منها إلى حضرتى، ثم تعدل به إلى حيث تقتله وتجيئنى برأسه، ولما أراد هرثمة نصحه بالابتعاد عن ذلك هددته قائلاً: "عليك أن تسمع وتطيع وإلا ضربت عنقك"^(١).

هكذا وصل الأمر بعدم احترام العقود والعهود المبرمة إلى درجة أن يريد الأخ قتل أخيه، ولم يتم الأمر للهادى كما أراد حيث مات قتيلاً على يدى أمه الخيزران بعد أن استعطفته ألا يقدم عليه قتل أخيه وكشفت له رأسها وبكت أمه، فقال لها: "أن أمسكت وإلا ضربت عنقك"^(٢)، وراح الهادى ضحية لرغبته فى قتل أخيه غير عابئ بعهد أبيه ولأسباب أخرى منها سوء تصرفاته مع أمه الخيزران^(٣).

- الغدر بإدريس ويحيى ابنى عبد الله:

فى سنة ١٦٩هـ فشلت ثورة الحسين بن على بن الحسن المثلث^(٤) فى عهد الخليفة موسى الهادى ابن حسن بن على بن أبطالب وأخوه يحيى وهما أخوا محمد النفس الزكية^(٥).

(١) العيون، ص ٣٨٨.

(٢) مجهول: العيون، ص ٣٨٨.

(٣) انظر كتابنا: نفوذ النساء، ص ١٨.

(٤) العدوى: نهر التاريخ الإسلامى، ص ٣١٥؛ محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية، ص ٢٠٢.

(٥) محمود شاكر: الدولة العباسية، ج ١، ص ١٥٤. وانظر:

توجه إدريس إلى مصر حيث ساعده واليها "واضح" فى الهروب إلى أرض المغرب حيث انتهى به الأمر إلى الوصول إلى مدينة ولىلى فى سنة ١٧٢هـ / ٧٨٠م^(١)، وقد أطاح الرشيد بعنق "واضح" والى ودس إلى إدريس ابن عبدالله شخصا يعرف بالشماخ اليمنى وكتب له كتابا إلى إبراهيم بن الأغلّب عامله على إفريقية^(٢)، وتمكن الشماخ من التقرب إلى إدريس مدعىا الطب كما ادعى أنه من شيعة وأنه مبعوض لبني العباس حتى اطمأن له إدريس وأنس به وأنزله مكانة عالية.

واشتكى إدريس علة أصابته فى أسنانه فأعطاه الشماخ سنونا مسموما قاتلا على أن يستن به عند طلوع الفجر وفى ذلك الوقت كان الشماخ هرب، فلما شعر إدريس بأثر السم أرسل فى طلب الشماخ فلم يجده حيث كان توجه إلى إبراهيم ابن الأغلّب ومنه إلى مصر حيث كافأه المنصور بولاية يريدها^(٣).

وقد مات إدريس متأثرا بهذا السم تاركا وراءه أمه حاملا وضعت طفلا أسمته إدريس على اسم أبيه نسبت إليه دولة الأدارسة بالمغرب العربى. وكان نجاح هذه الدولة الإدريسية حافزا شجع الشيعة على تركيز نشاطهم فى بلاد المغرب العربى بدلا من المشرق العربى^(٤).

أما يحيى بن عبدالله فقد ذهب إلى بلاد الديلم واشتدت شوكته وكثرت جموعه وأتاه الناس من الأمصار مما أعاظ الرشيد ندب لحربه الفضل بن يحيى، وقد استمال الفضل بن عبدالله وبسط أمامه الأمل فرضى يحيى بالمصالحة على أن يؤمنه الرشيد بأمان مكتوب بخطه فكتب الفضل إلى الرشيد بذلك، فكتب

(١) جمال سرور: الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية، ص ٢٠٣.

(٢) كان الرشيد اتخذ صلة للوقوف فى وجه الأدارسة فاقطع إبراهيم بن الأغلّب منطقة تونس وكان ذلك بدءا بقيام دولة

الأغلّبة، احمد شلى: موسوعة التاريخ الإسلامى، ج ٣، ص ١٥٤.

(٣) مجهول: العيون، ص ٢٩٣.

(٤) العدو: نهر التاريخ الإسلامى، ص ٣١٥ وانظر Brokelman: optc, P.157; Shaban: Islamic

الرشيد هذا الأمان وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وعظماء بني هاشم ومشايخهم وقد كتب هذا الأمان من نسختين نسخة عنده ونسخة عند يحيى البرمكي^(١)، وأرسل إليه مع الأمان بالأمان بالهدايا والجوائز والكرامات، فأرسل الفضل بذلك كله إلى يحيى بن عبد الله، فأتى يحيى إلى الفضل وتوجه معه إلى بغداد، فلقبه الرشيد أحسن لقاء وأمر له بأموال كثيرة وجعل له رزقا كبيرا وأنزله منزلاً فخماً. غير أن الرشيد ما لبث أن نقض عهده وأمانه مر يحيى بن عبد الله فأمر بحبسه، وقيل أن الرشيد استفتى فقهاءه في نقض العهد فاستشار محمد بن الحسن الفقيه، وأبا ألبختري القاضي، فأشار عليه أبو ألبختري بما أباح له نقض العهد فمزقه الرشيد^(٢).

وقد اختلفت الروايات في أسباب موت يحيى بن عبد الله بعد ذلك^(٣)، فقيل إنه ظل في حبسه حتى مات^(٤)، وقيل أنه قتل^(٥) وإن قتله كان بأن شد إلى جدار وسمر على يديه ورجليه وسد عليه المنافذ حتى مات^(٦).

كما قيل أنه وقع في رقعة إلى يحيى بن خالد طلب منه كتمها حتى موته وأن يدفعها بعد موته إلى هارون الرشيد، فلما مات دفعها يحيى إلى الرشيد فإذا مكتوب فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم، يا هارون المستعدى عليه قد تقدم، والخصم بالأثر، والقاضي لا يحتاج إلى بينة"^(٧).

وقد ختم عهد الرشيد كذلك صورة أخرى من صور الغدر بالعلويين وهي تلك الصورة التي تختص بالفتك بموسى الكاظم^(٨) بن جعفر الصادق حيث وشى

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ١، ص ٣٣٨.

(٢) ابن الاثير: الكامل، ج ٥، ص ٩؛ المسعودي: مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٥٣.

(٣) محمود شاكر: الدولة العباسية، ج ١، ص ١٦٦.

(٤) ابن الاثير: الكامل، ج ٥، ص ٩٠، النويري: نهاية الأرب، ج ٢٢، ص ١٢٨.

(٥) المسعودي: مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٥٣.

(٦) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ١، ص ٣٣٨.

(٧) ابن العماد الحنبلي: نفس المصدر، ج ١، ص ٣٣٩.

(٨) سمي الكاظم لأنه كان يحسن إلى من يسى إليه. أبو الفدا: المختصر، ج ٢، ص ١٦.

به ألبعض إلى الرشيد حسدا له وقال للرشيد "إن الناس يحملون إليه خمس أموالهم، ويعتقدون إمامته وأنه على نية الخروج على الرشيد، فقبض الرشيد على موسى عندما حج سنة ١٨٣هـ وحمل في قبة إلى السندی بن شاهك، ثم أمره بقتله فقتل قتلا خفيا، ثم ادخلوا عليه جماعة من العدول بالكرخ ليشاهدوه إظهاراً أنه مات حتف أنفه^(١).

وهكذا غدر بالرجل وهو التقى الورع، حكى عنه أخت السندی ابن شاهك التي قامت على حبسه أنه كان إذا صلى العتمة حمد الله ومجده ودعاها إلى أن يزول الليل، ثم يقوم يصلى حتى يطلع الصبح فيصلى الصبح ثم يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى ثم يرقد ويستيقظ قبل الزوال ثم يتوضأ ويصلى حتى يصلى العصر ثم يذكر الله تعالى حتى يصلى المغرب ثم يصلى ما بين المغرب والعتمة وكان دأبه إلى أن مات^(٢).

وكان الهادي عنيفا في محاربة الزنادقة في سنة ١٦٩هـ التي تولى فيها الخلافة، فقتل منهم جماعة فيهم على بن يقطين ويعقوب بن الفضل بن عبدالرحمن ابن عباس.

^(١) ابن طباطبا: الفخرى، ص ١٩٦؛ جمال سرور: الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، ص ٢٠٥؛ Amir

Ali: A short history of the Saracenes, P.243.

^(٢) أبو الفدا: المختصر، ج ٢، ص ١٥-١٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٢، ص ١٣٤.

٥- هارون الرشيد

أعظم وأعدل خلفاء بني العباس

(١٧٠-١٩٣هـ / ٨٧٦-٨٠٩م)

هو أبو جعفر هارون بن محمد المهدي، من أعظم خلفاء بني العباس وأكثرهم ذكراً في التاريخ العباسي، لما اتصف به من كرم وجود ولما وصلت إليه الدولة الإسلامية في عهده من نهضة حضارية بلغت الأوج، فقد أصبحت بغداد في أيامه كعبة العلم والأدب ومركز التجارة والصناعة، حتى أصبح اسمه مقروناً بألف ليلة وليلة، وفي عصره ارتقى فن الغناء والموسيقى بفضل جهود مغنيه إبراهيم الموصلي وعواده زلزل، وظهر في أيامه شعراء عظام أمثال أبو العتاهية والعباس بن الأحنف، ومروان بن أبي حفصة، ومؤرخين أمثال الأصبغى والوافدى وفي عهده أيضاً ظهر التأثير الفارسي في الحياة الاجتماعية فاحتفل الناس بالأعياد الفارسية القديمة كالنيروز الذي أصبح يحتل منذ قيام الدولة العباسية ما كان له من عظمة وروعة ولم يقتصر الاحتفال بهذا العيد على الفرس حسب تقاليدهم القديمة، بل عد عيداً شعبياً عاماً كما احتفل به الخلفاء احتفالاً رسمياً^(١)، وأصبحت الأزياء تتبع النمط الفارسي كما انتشرت الأطعمة والأشربة الفارسية. ومن أنواع الأطعمة الفارسية التي شاعت في هذا العصر الكباج^(٢)، والأسفيدباج ومن أمثلة الحلوى الفارسية الفالودج والخشكانج ويتميز عصر الرشيد بقيام عدة ثورات: منها ثورات العرب في الشام ومصر والموصل وفتنة الخوارج في الجزيرة وخروج العلويين في طبرستان وإفريقية (تونس) وفي عصره نكب بالبرامكة سنة ١٨٧هـ / ٨٠٢م بعد أن سيطروا على الدولة اقتصادياً وإدارياً وكانوا يهيمنون على جميع مرافق الدولة في الحكم، وفي الشؤون الماليه،

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد: النوروز وأثره في الأدب العربي، بيروت ١٩٧٢، ص ٤٨.

(٢) البغدادي: الطبخ، تحقيق الدكتور داود الحلبي، الموصل، ١٩٣٤، ص ٣٢.

وفى الإدارة وفى العلوم والفنون، وستحدث عن نكبتهم بالتفصيل عند تعرضنا لعلاقة العباسيين بالفرس.

أما عن علاقة الدولة العباسية بالدولة البيزنطية فكانت علاقة حرب بخلاف علاقتها بالدولة الكارولنجية التى ارتبط عاها شارلمان (٧٦٨-٨١٤/ ١٥١-١٩٩م) مع الرشيد بعلاقات المودة والصداقة، وتبادل الجانبان الهدايا والسفارات ومن المعروف أن الرشيد قاد الحملات ضد البيزنطيين بنفسه، ففى سنة ١٨١هـ/٧١٧م خرج على رأس جيش كثيف إلى آسيا الصغرى واجتاز منطقة الثغور، واقتحم المواقع البيزنطية فى آسيا الصغرى، وافتتح حصن الصفصاف، كما غزا قائده عبدالملك بن صالح بلاد البيزنطيين فى نفس السنة فبلغ أنقرة^(١)، فاضطرته الإمبراطورة إيرين إلى شراء سلم مهين لبيزنطة من العباسيين ثم قامت فى بيزنطة حركة انقلابية ضد إيرين فى ١٨٧هـ/٨٠٢م، أطاحت بحكمها وخلفها الإمبراطور نقفور الأول ٨٠٢هـ/٨١١م الذى نقض الهدنة، وامتنع عن دفع الجزية، ويروى ابن الأثير هذا الخبر بقوله: وكان يملك الروم حينئذ إمارة اسمها رينى فخلتها الروم وملكت نقفور، وتزعم الروم أنه من أولاد جفنة بن عسان، وكان قبل أن يملك يلى ديوان الخراج وماتت رينى بعد خمسة أشهر من خلعتها فلما استوثقت الروم لنقفور كتب إلى الرشيد:

"من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التى كانت قبل إقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كانت حقيقا بحمل أضعافها إليها، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابى هذا فارد ما حصل لك من أموالها، وافند نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك"^(٢)، فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يقدر أحد أن ينظر دون أن يخاطبه، وكتب على ظهر الكتاب:

"بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٦، ص١٥٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص١٨٥.

قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام^(١). وعلى أثر ذلك زحف بجيوشه مخترقا آسيا الصغرى حتى نزل على هرقله، ففتحها وغنم غنائم كثيرة وانتصر على البيزنطيين فى عدة مواقع، وأرغم الإمبراطور نقفور على إبرام معاهدة صلح تعهد فيها بدفع الجزية من جديد. ولكن البيزنطيين نقضوا هذه المعاهدة مرة ثانية، وهاجموا الدولة العباسية والرشيدي فى طريق عودته، وهزموا المسلمين فى جنوبى آسيا الصغرى ومنتهزين انشغال الخليفة ببعض الفتن الداخلية، ولكن الرشيد خرج فى سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٥م وفتح هرقلة والصفصاف وملقونية وغيرها، وأسر من البيزنطيين ستة عشر ألفا وفرض جزية عليهم قدرها خمسون ألف دينار.

نقض الأمين والمأمون لعهد الرشيد:

كان الرشيد قد وثق عهده لوالديه الأمين والمأمون أوثق توكيد حيث وضعها فى الكعبة المشرفة واشهد عليه أهل بيته ووزراءه وقواده ومواليه وكتابه ومن كان معه فى الكعبة.

وقد أدرك الناس أن هذه الأيمان والعهود لن تحترم: فقال قائلهم:

وبيعة قد نكث أيمانها * وفتنة قد سمرت نيرانها

وقال: "أن السيوف ستسل والفتنة ستقع، والتنازع فى الملك سيظهر"^(٢)

وقد وقعت الفتنة فعلا وغدر كل أخ بأخيه وعن ذلك يعبر الطبرى بقول عزم كل وأحد منهما بالخلاف على صاحبه فيما كان والدهما هارون أخذه عليهما العمل به"^(٣)، وانتهى الأمر هذه المرة بأن قتل الأخ أخاه وأمر برفع رأسه على خشبة فى صحن الدار، ومنح الجنود الأعطيات ابتهاجا بانتصاره"^(٤).

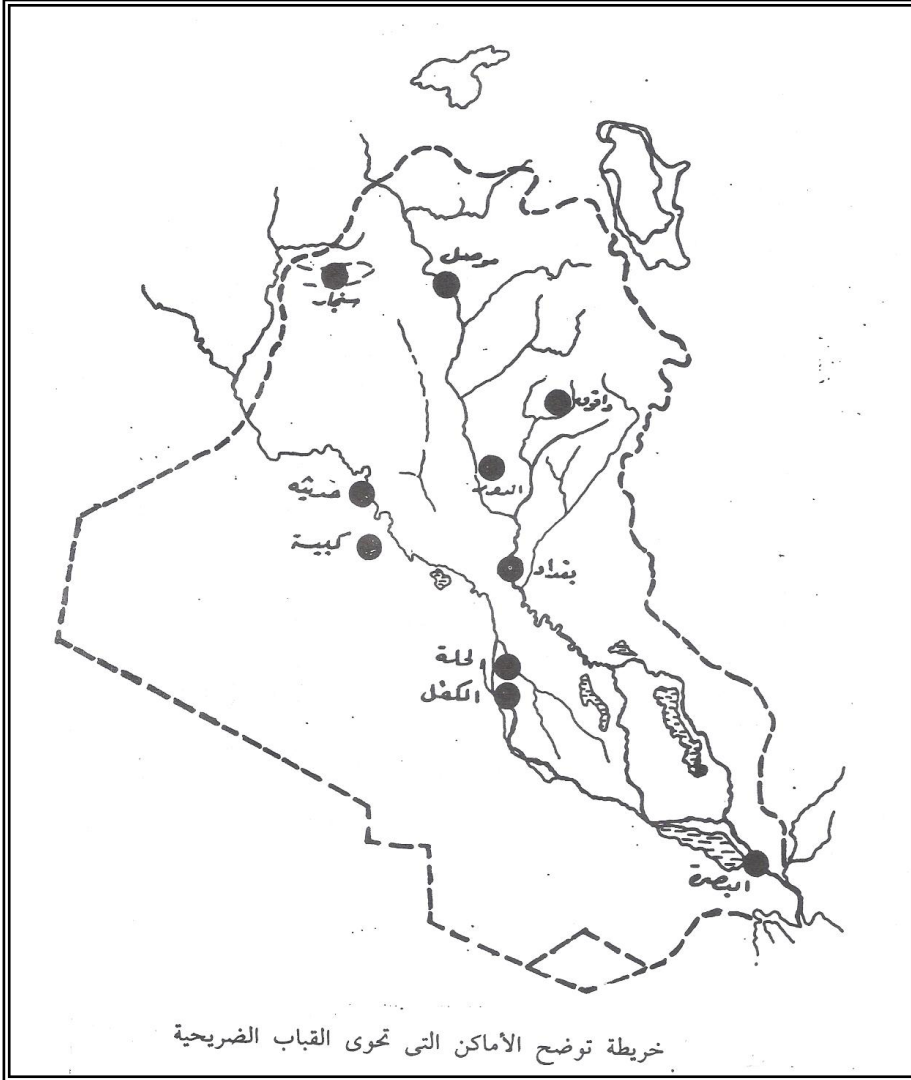
(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ١٨٥

(٢) المسعودى: مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٦٤. وانظر كتاب: صفحات فى تاريخ العباسيين (حول الصراع بين الأمين والمأمون)

(٣) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ١٦٥؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب، ص ٢٧٥.

(٤) المسعودى: مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٢٣، السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٣٠٠. وانظر:

توفى الرشيد وهو غاز بخرسان، فدفن بطوس في ٣ جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ / ٨٠٨م، وكان قد بايع بولاية العهد لأولاده الثلاثة: الأمين سنة ١٧٥هـ / ٧٩١م ثم المأمون سنة ١٨٣هـ / ٧٩٩م ثم المؤتمن سنة ١٨٦هـ / ٨٠٢م وقسم دولته بينهم، فعهد بالقسم الشرقي إلى المأمون وبالجزيرة والعاصم إلى المؤتمن أما الأمين فتولى الشام والعراق إلى آخر المغرب.



٦- محمد عبدالله الأمين

(١٩٣-١٩٨ هـ / ٨٠٨-٨١٣ م):

هو ولد الرشيد من زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور . ولى الأمر بعد الرشيد صبيحة الليلة التي توفى فيها وكان المأمون حينئذ بمرور وعلى الرغم من الانتقادات التي وجهها المؤرخون إليه^(١)، وإقباله على اللهو وانقطاعه إلى معايشة المجان عن تدبير الدولة وتوجيهه إلى جميع البلدان في طلب الملهمين واستخفافه بأخويه ويقواده وإسرافه في الإنفاق على لذاته ومتعه على الرغم من ذلك كله فقد كان شجاعاً فصيحاً أديباً كريماً^(٢)، وفي ذلك يقول الشاعر :

ملك ابوه وأمه من نبعه منها سراج الأمة الوهاج
شربت بمكة من ذرى بطحائها ماء النبوة ليس فيها مزاج

أما ما وصمه به المؤرخون فإنما يعبر عن النزعة الشعوبية التي اعتبرت النزاع بين الأمين والمأمون صراعاً بين القومية العربية والقومية الفارسية وكان من الطبيعي أن تمجد العناصر الفارسية المأمون في صراعه ضد الأمين، لأن المأمون بحكم كون أمه فارسية، يمثل النزعة الشعوبية وكان وزيره الفضل بن سهل فارسياً وكان أبو مأي أبو الفضل مجوسياً إلى أن أسلم في زمن الرشيد واتصل بالرشيد عن طريق جعفر البرمكي فعينه الرشيد مع ابنه في إدارة القسم الشرقي من دولته فالفضل بن سهل هو الذي أشعل نار الفتنة بين الأخوين سعياً

(١) ذكروا أنه كان سعي التدبير كثير التبذير ضعيف الرأي أرعن لا يصلح للإمارة وبدللون على ذلك بأنه أمر أول ما بويح بالخلافة ثاني يوم بناء ميدان بجوار قصر المنصور للعب بالكرة، وأنه عزل أحاه المؤتمن سنة ١٩٤ هـ عما كان الرشيد ولاءه ووقعت الوحشة بينه وبين أخيه المأمون بسبب سعي الأمين على عزل المأمون فأسقط اسم الأمين من الطراز وقطع البريد عنه.

(٢) ابن طباطبا، ص ١٩٣ . ومن الأمثلة الدالة على كرم عنصره أن الفضل الربيع اقترح عليه لما تأزم الموقف بعد هزيمة قوات الأمين أن يأخذ ولدى المأمون رهينة حتى ينفذ له مطالبه فإذا أبي تنفيذها قتلها فرد عليه الأمين: أنت إعرابي مجنون ، أدعوك إلى ولاية أئنة العرب والعجم وأوليتك خراج الجبال إلى خراسان وأرفع منزلتك على نظراتك من أبناء القواد والملوك وتدعوني إلى قتلولدى وسفك دماء أهل بيتي. ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٢٥٤ .

لإقصاء العرب عن السلطان وتحويله إلى الفرس، وهو الذى سعى إلى فصل خراسان عن الدولة العباسية لهذا لا تستبعد أن يكون ما وصم به الأمين من صفات ذميمة من نسج خصومه وصنائعهم الشعبيين وكل ما فى الأمر أن الأمين لم يوفق فى اختيار رجاله، ولم يفتن إلى حقيقة المؤامرات التى كان يحكيها أعداؤه وضده.

- أسباب الفتنة بين الأمين والمأمون :

ويرجع سبب الفتنة بين الأمين والمأمون إلى الفضل بن الربيع وزير الأمين فطن إلى المأمون إذا آلت إليه الخلافة وهو حى لن يبقى عليه، فسعى الفضل إلى إغراء الأمين وحثه على خلع المأمون من ولاية العهد والبيعة بولاية العهد لابنه موسى بن الأمين فبادر الأمين بالدعاء لابنه بالإمرة بعد الدعاء للمأمون للمؤمن ثم خلع المؤمن ووجهه إلى المأمون يطلب إليه أن يقدم ابنه موسى على نفسه ويحضر عنده، فاستشار المأمون وزيره الفضل بن سهل وخاصته فأغروه بالامتناع فامتنع وكتب يعتذر وفى نفس الوقت عمد الفضل إلى استمالة العباس بن موسى رئيس وفد الأمين إليه ملوحاً له بإمرة بعض مواضع من مصر، فأجاب إلى بيعة المأمون وأصبح العباس عيناً للمأمون يكتب إلى الفضل بن سهل بأخبار الأمين من بغداد . ثم عمل الفضل بن سهل على توسيع هوة الخلاف بين الأخوين فحرض المأمون على الاستقلال بخراسان عندما أرسل الأمين إلى عماله فى خراسان يطلب النزول عن بعض كورها فامتنع المأمون عن إجابة الأمين إلى طلبه، وأمر بسد الطريق والمنافذ المؤدية إلى خراسان بثقات رجاله حتى يمنعوا أحداً من العبور فحظر أهل خراسان أن يستمالوا برغبة أو رهبة وضبط الطرق بثقات أصحابه فلم يمكنوا من دخول خراسان إلا من عرفوه وأتى بجواز أو كان تاجراً معروفاً وفتشت الكتب بل عمد المأمون إلى مكاتبة ملك كابل وملوك الترك وخاقان التبت الذى خرجوا على طاعة الأمين وبعث إليهم ببعض الهدايا.

فلما علم الأمين بذلك بايع لولده موسى بولاية العهد وسماه الناطق

بالحق وأمر بالدعاء له على المنابر، وقطع ذكر المأمون والمؤمن في ربيع الأول سنة ١٩٥هـ / ٨١٠م وأرسل إلى الكعبة بعض الجبة فأتوه بكتابي العهد الذين وصفهما الرشيد في الكعبة ببيعة الأمين والمأمون فأحضرهما عنده فمزقهما الفضل بن الربيع وكان لنكت الأمين لعهد أبيه أثر عميق في إغضاب أهل خراسان وغيرهم ثم تطورت الفتنة وأصبحت نزاعاً بين الفرس أنصار المأمون والعرب أنصار الأمين وقد ساند الأمين في موقفه ضد الفرس وزيره الفضل بن الربيع، وعلى بن عيسى بن ماهان وعبدالرحمن بن جبلة أعظم قواده. أما المأمون فقد وقف إلى جانبه الفضل بن سهل، ومن قواده هرثمه بن أعين وطاهر بن الحسين وبدأ الأمين يجهز قواته لمواجهة الفتنة ثم أمر على بن عيسى بن ماهان بقيادتها لحرب المأمون بعد أن جهزه بخمسين ألف فارس وكتب إلى أبي دلف القاسم بن إدريس العجلي، وهلال بن عبدالله الحضرمي بالانضمام إليه وخرج على بن عيسى في شعبان سنة ١٩٥هـ / ٨١٠م وركب الأمين يشيعة ومعه القواد والجنود.

- الجولة الأولى :

وفي نفس الوقت كان طاهر بن الحسين يعسكر بالرى والأمداد تأتيه من خراسان وكان يتأهب للقتال فلما بلغ على بن عيسى ذلك وكان مغروراً بقوته، علق بقوله: (إنما طاهر شوكة من أغصاني ومثل طاهر يتولى الجيوش، وقال لأصحابه: "ما بينكم وبين أن ينقصف انقصاص الشجر من الريح والعاصف إلا أن يبلغه عبورنا عقبة همذان فإن السخال لا تقوى على النطاح والبغال لا صبر لها على لقاء الأسد، وإن أقام تعرض لحد السيف وأسنة الرمح وإذا قاربنا الرى ودنونا منهم فت ذلك في أعضادهم^(١).

وحدث الاشتباك بالقرب من الرى واستطاع طاهر بن الحسين بسهولة التغلب على قوات الأمين ولقى على بن عيسى مصرعه، وبويع للمأمون بالخلافة

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٢٤١.

فى جميع خراسان وبيالغون فى استهتار الأمين بالخبر فيذكرون أن نعى على بن عيسى جاءه وهو يصيد سمكاً فغضب إذ قطع عليه الناعى لذة الصيد وقال: "ويلك دعنى فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين وأنا ما صدت شيئاً بعد"^(١).

- الجولة الثانية :

وتبع ذلك فترة مشحونة بالارتباك والفوضى، فقد تعجل الأمين فى الرد على الهزيمة التى أصيب بها جيشه دون إعداد مسبق أو وفقاً لخطة موضوعة كما أنه لم يحسن اختيار القادة فقد وجه عبدالرحمن بن جبلة الأنبارى فى عشرين ألف رجل نحو همدان واستعمله عليها وعلى ما كان يفتحه من بلاد خراسان فلما وصل ابن جبلة إلى همدان شرع فى تحصين سورها ولكن طاهر بن الحسين لم يمهل له لذلك فأتاه إلى همدان فخرج إليه ابن جبلة على غير تعبئة واشتبك الفريقان فى قتال عنيف انتهى بهزيمة جيش المأمون ودخل ابن جبلة همدان فأقام بها أياماً أعاد خلالها جمع صفوفه ثم خرج لقتال طاهر فانهمز أصحابه ووضع فيهم عسكر طاهر السيوف وامتنع ابن جبلة فى المدينة فحاصره طاهر فأرسل إليه ابن جبلة يطلب الأمان لنفسه ولمن معه فأمنه وسلم له ابن جبلة همدان ولكن ابن جبلة تظاهر بعد ذلك برضائه بأمان طاهر ثم اغتروهم وهم أمنون فركب فى أصحابه وبادر طاهر بالهجوم دون أن يشعر، وعلى الرغم من ذلك فقد انهزم ابن جبلة وأصحابه وظل يقاتل حتى قتل^(٢)، ثم سير الأمين للمرة الثالثة جيشاً عدته أربعون ألفاً لمحاربة طاهر بقيادة أسد بن يزيد بن مزيد وأحمد بن مزيد وعبدالله بن حميد بن قحطبة وسار العسكر إلى خانقين ولكن طاهر بث العيون والجواسيس فى معسكر الأمين واحتال فى وقوع الاختلاف بينهم فاختلفوا وانتقض أمرهم وقاتل بعضهم بعضاً ثم انسحبوا من خانقين دون أن يواجهوا عسكر طاهر وحدث بعد ذلك أن انقلب الحسين ابن على بن عيسى بن ماهان

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٢٦٠-٢٦١؛ ابن طباطبا، ص ١٩٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٦، ص ٢٤٨.

أحد قادة الأميين عليه وخلعه وحبسه بقصر المنصور وبياع للمأمون وتتبعه في ذلك فريق من العسكر، ولكن فريقا آخر استاء من هذا التصرف وتبعهم أهل الأرباض فقاتلوا الحسين بن علي بن عيسى وأسروه ودخل أسد الحربى على الأميين فخلعه من قيوده وأعادته إلى قصر الخلد ثم استقدم الأميين قائده الأسير فعاتبه فاعتذر إليه وعفا الأميين عنه ثم خلع عليه وولاه العسكر وأمره بمقاتلة المأمون فخرج ثم هرب ولكن قوما أدركوه وقتلوه.

- الجولة الثالثة :

وفى هذه الأثناء كان طاهر بن الحسين يستولى على الأقاليم الخاضعة للأميين إقليما بعد إقليم فضم إقليم الجبال الواقع جنوبى بحر قزوين ثم إقليم الأهواز وواسط والمدائن، واقتربت جيوشه من بغداد وبياع عامل الحجاز للمأمون وتمكن هرثمة بن أعين من محاصرة بغداد من الجانب الشرقى أما طاهر بن الحسين فتولى حصار الجانب الغربى من بغداد ودام الحصار مدة ١٥ شهر، وقد أصيب عمران بغداد من جراء هذا الحصار الطويل بأضرار كبيرة بسبب قذائف المنجنيق والنفط فتهدمت أسوار المدينة ودمرت المباني، واشتعلت النيران فى كل مكان حتى زالت محاسنها ودرست معالمها ونفذت الأقوات فى المدينة وانتشرت الأمراض والمجاعات واضطر الأميين إلى بيع ما فى خزائنه من أمتعة وتحف لينفق على الجند أما طاهر بن الحسين فقد عجز عن الاستيلاء على بعض أحياء بغداد مثل الكرخ ومدينة المنصور وأسواق الخلد، فسماها طاهر دار النكث. ثم تخرج الأميين عندما خذله كثير من أعوانه وقواده ومنهم محمد بن عيسى صاحب شرطته وعلى أفراهما رد الموكل بقصر صالح، وعبدالله بن حميد بن قحطبة وأخوته، ويحيى بن على ماهان، وخزيمة بن خازم وترتب على ذلك سقوط أسواق الكرخ على يد طاهر وتحصن الأميين بمدينة المنصور، تولى الدفاع عنه العيارون وأهل السجون وكانوا يقاتلون عراة، فى أوساطهم المآزر، وقال الاميين شعرا :

تفرقوا ودعوا ونى * يامعشر العوان

فكأنم ذو وجوه * كثيرة الألبان
وما ادري غير أفك * وبرهان الأماني
ولست املك شيئاً * فسألوا خزاني
الويل لي مالي ما دهاني * من نازل البستان

ونصحه بعض أصحابه بالخروج إلى الشام وإعادة جمع قواته من هناك فافتنع بنصحهم وعزم على ذلك ولكن طاهر بن الحسين علم بذلك الخبر فكتب إلى عدد من أصحاب الأمين يأمرهم باقناع الأمين بالعدول عن عزمه وأثنوه عما أقدم عليه ونصحه بعض الناصحين بأن يستسلم لأخيه وينزل له عن الخلافة فقبل أن يسلم الخاتم والقضيب والبردة وهي من مخلفات الرسول، لطاهر ويسلم نفسه إلى هرثمة بن أعين لكبر سنه، ولما عرف من قسوة طاهر، غير أن طاهر خشى ألا يكون الأمين جادا في تنفيذ ما أعتزمه لاسيما وقد بلغه من قبل أنه كان ينوي الخروج من بغداد إلى الجزيرة وبلاد الشام، فوضع حول القصر كميناً بالسلاح، فلما أرسل هرثمة إلى الأمين حراقة على باب خراسان ونزل الأمين بالحراقة أرسل طاهر جماعة من العوامين خرقوها بالسهام، وقيل قلبوها بمن فيها، وسبح الأمين إلى الشاطيء فقبض عليه بعض عساكر المأمون وذبحوه في المحرم سنة ١٩٨ هـ وطافوا برأسه فأرسلها هاطر إلى المأمون فحزن المأمون لقتله، وكان يرغب في أن يرسل إليه حيا ليرى فيه رأيه، فحقد بذلك على طاهر بن الحسين وأهمله إلى أن مات طريداً بعيداً.

٧- عبدالله المأمون (أبو العباس)

(١٩٧هـ-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م)

هو ابن هارون الرشيد من جارية فارسية تدعى مراجل بويع له بالخلافة وهو بخراسان في سنة ١٩٧هـ وبويع له البيعة العامة ببغداد في سنة ١٩٨هـ وفي هذه الأثناء كان الفضل بن سها يستبد بأمر الدولة ويدبرها من مرو التي كان ينوى اتخاذها دارا للخلافة ويحول الإدارة المركزية من العراق العربي إلى خراسان الفارسية ولكي ينفذ هذا المخطط الخطير حجر على المأمون ومنع أهل بيته وكبار قواده، من الدخول إليه إلا بإذن منه ثم أمر على لسان المأمون بتعيين أخيه الحسن بن سهل على إقليم العراق والحجاز واليمن^(١)، تمهيدا لجعل بلاد الشرق العربي ولايات تابعة لخراسان. وقد أثار هذا الوضع ثائرة العرب في بغداد وغيرها من الحواضر العربية واستاء له العباسيون.

- خروج نصر بن سيار على الخليفة المأمون :

ثار نصر بن سيار ابن شيبث من بني عقيل بشمال حلب في أواخر سنة ١٩٨هـ / ٨١٤م وتغلب على ما جاوره من البلاد واستولى على سيطاط من مدن الجزيرة وانضم إليه حشد كبير من الأعراب وكثرت جموعه فأمر الحسن بن سهل طاهر بن الحسين بالسير إلى الرقة لمحاربة نصر بن شيبث العقيلي المقبل في أوائل سنة ١٩٩هـ، بعد أن ولاه المول والجزيرة والشام والمغرب فزحف طاهر واشتبك مع نصر بنواحي كيسوم بالغرب من حلب في قتال شديد أبلى فيه نصر وأتباعه العرب بلاء عظيما وارتد طاهر إلى الرقة شبه مهزوم وترتب على ذلك ارتفاع شأن نصر بن شيبث بالجزيرة فقد قوى من أمره وأعلى شأنه وتوافد عليه الأتباع والأنصار ولم يرضى ابن شيبث أن يجعل من هذا النصر مكسبا شخصا له وإنما عبر عن ثباته على المبدأ عندما أتاه نفر من شيعة الطالبين فقالوا له: "قد وترت بنى العباس رجالهم وأعلقت عنهم العرب فلو بايعت لخليفة كان أقرب

(١) السيوطي ، ٢٧٩.

لأمرك فقال "من أى الناس؟ قالوا: "تبايع آل على بن أبطالب" فقال: "أبايع بعض أولاد السوداوات فيقول أنه هو خلفنى ورزقنى؟ قالوا: "فنبايع لبعض بنى أمية" قال: "أولئك قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقل أبداً ولو سلم على رجل مدبر لأعدانى إداره وإنما هو فى بنى عباس وإنما حاربتهم محاماة على العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم^(١)، ولم يوفق المأمون فى إخماد حركة شبت إلا فى سنة ٢٠٩هـ/٨١٤م عندما حاصره عبدالله بن طاهر بكيسوم وضيق عليه حتى طلب الأمان، وكما عجز الحسن بن سهل فى إخماد ثورة نصر بن شبت العقيلى أخفق فى إخماد الفتن التى اشتعلت فى العراق - وبالذات فى البصرة - والكوفة حيث استدل العلويون هناك ضعف نفوذ الحسن بن سهل واستبداد الفضل بن سهل بالمأمون وأعلنوا ثورتهم عليه.

- ثورة العلويون على المأمون :

فى سنة ١٩٩هـ/ ٨١٤م ظهر أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن على بالكوفة ودعا إلى الرضا من آل محمد والعمل بالكتاب والسنة وهو المعروف بابن طباطبا وقاد الثورة أبو السرايا السرى بن منصور القيم يأمره فى الحرب ونجح فى إيقاع الهزيمة بالجيوش التى وجهها إليه الحسن بن سهل واستولى على الكوفة وعلى الرغم من وفاة محمد بن إبراهيم بن طباطبا فجأة فقد تولى مكانه محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين بن على، وانتشر الطالبيون فى البلاد^(٢)، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة وعاشت جيوشه بالبصرة وواسط ونواحيهما فتغلب على البصرة والمدائن ثم ولى عمالا على مكة واليمن

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٣٨٨

(٢) وثبت بالمدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن على ووثب بالبصرة على بن محمد بن جعفر بن محمد بن على بن على بن الحسن بن على، وزيد بن موسى بن محمد بن على بن الحسين المعروف بيزيد النار لكثرة ما أحرق بالبصرة من دور العباسيين وظهر فى اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسن بن على وفى مكة محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسن الذى دعت إليه السيطيّة من فرق الشيعة وقامت بإمامته. المسعودى، ج٣، ص ٤٣٩؛ البقوي، ج٢، ص ٤٤٥.

والأهواز والبصرة والمدائن واستفحل خطر حركة أبي السرايا واستعصى على الحسن بن سهل قمعها، فاستنجد بالقائد هرثمة بن أعين الذى تمكن من هزيمة أبي السرايا وحمله على الفرار من الكوفة فى سنة ١٩٩هـ/ ٨١٥م إلى القادسية، ومن هناك مضى إلى خوزستان وانتهى به الأمر إلى الوقوع فى يد الحسن بن سهل الذى قتله وبعث برأسه إلى المأمون وفى نفس الوقت كانت الثورات تجتاح سائر أقاليم الدولة العباسية لاسيما فى الحجاز واليمن ومصر والشام ويرجع سبب هذه الثورات إلى تغلب الفضل بن سهل على المأمون " وأنه أنزله قصرًا حجب فيه عن أهل بيته وقواده وأنه يستبد بالأمر دونه فغضب لذلك بنو هاشم ووجوه الناس واجترأوا على الحسن بن سهل وهاجت الفتن فى الأمصار^(١).

– موقف الفضل بن سهل من القائد هرثمة بن أعين:

وفى خضم هذه الأحداث الخطيرة كان الفضل بن سهل يتحكم فى أمور الدولة فى مرو فتلقب بلقب "الوزير الأمير" كما تلقب أيضا بلقب "ذى الرياستين" لجمعه بين السيف والقلم ولإصلاح الأمور كان لابد للخليفة المأمون من أن يطلعه رجل عربى غيور على حقائق الأمور التى كانت تخفى عليه بسبب الحصار المحكم الذى فرضه الفضل بن سهل على بلاطه وتمثل هذا الشخص الغيور فى شخصية هرثمة بن أعين القائد العربى، الذى قرر السير إلى مرو ليبيصر الخليفة بالمؤامرات التى يدبرها بنى سهل وصنائعهم الفرس وفطن ابن سهل إلى نوايا هرثمة فاستصدر أمرا من الخليفة بتوليته الشام والحجاز حتى يبعده عن خراسان ويحول بينه وبين الاتصال بالمأمون، ولكن هرثمة رفض أن ينفذ هذا الأمر وواصل سيره إلى مرو قائلاً: "لا أرجع حتى ألقى أمير المؤمنين إدلالاً منه عليه ولما يعرف من نصيحته له ولآبائه وأراد أن يعرف المأمون ما يدبر عليه الفضل بن سهل وما يكتم عنه من الأخبار وأنه لا يدعه حتى يرده إلى بغداد ليتوسط سلطانه وبلغت هذه الكلمات مسامع الفضل، فأوهم المأمون بأن

(١) البعقوبى ، ج ٢، ص ٤٤٦ وما يليها.

هرثمة هو الذى أثار عليه البلاد وهو الذى دس أبا السرايا وأنه خالف أمر أمير المؤمنين عندما قلده ولاية الشام والحجاز، وحث الفضل الخليفة على تأديبه حتى يكون عبرة لمن يعتبر ونجح الفضل فى تغيير قلب المأمون على هرثمة فلما وصل هرثمة مرو أمر الفضل بالطبول فدقت لى يسمعها المأمون فسأل المأمون عنها فقالوا له: "هرثمة قد أقبل يرعد ويبرق وفى نفس الوقت ظن هرثمة أن قرع الطبول يعنى قبول قوله، فأمر المأمون بإدخاله ثم وجه إليه تهمة تأليب أبى السرايا وأهل الكوفة العلويين عليه ولم يقبل منه أى عذر أو اعتراض فأمر به فديس بطنه وضرب أنفه وحبسه أما الفضل فقد أمر أعوانه بالتشديد عليه وتعذيبه^(١)، وأقام هرثمة أياما فى سجنه ثم توفى مقتولاً. وثار أهل بغداد على الحسن بن سهل وطرودا عماله من بغداد، كما أخرجوا على بن هشام من بغداد قبل الحسن بن سهل، وأردأوا أن يبايعوا المنصور بن المهدي العباسى بالخلافة فامتنع عن ذلك ثم عرضوا عليه الإمرة عليهم على أن يدعو المأمون بالخلافة فأجابهم إليه فى سنة ٢٠١ هـ عندما أصروا على ذلك قائلين: "لا ترضى بالمجوس بن المجوس الحسن بن سهل وتضامن أهل بغداد على إصلاح ما فسد من أحوال الأمن ووضع حد لجرائم الشطار وقطاع الطرق والعاثين فى بغداد نفسها وعرف هؤلاء الذين تجردوا لذلك بالمقطوعة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بالكتاب والسنة.

- موقف الخليفة الأمين من الإمام على الرضا العلوى:

وجد الفضل بن سهل بعد أن تخلص من هرثمة الطريق أمامه مهيناً لنقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين فمازال يزين الأمر للمأمون لتنفيذ هذه الخطوة وينفره من آل العباسيين الذين خرجوا عليه فى بغداد مستغلا فى ذلك ما كان يتحلى به المأمون من مرونة تجاه العلويين^(٢)، حتى أقنعه بأن يختار الإمام

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٣١٥.

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع: فاروق عمر فوزى، سياسة المأمون تجاه العلويين، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد،

على الرضا بن موسى الكاظم وليا لعهدده فى سنة ٢٠١هـ ويذكر المؤرخون أن المأمون نظر فى بنى العباس وبنى على فلم يجد أحد أفضل ولا أروع ولا أعلم منه فاستقدمه المأمون إلى مرو وأنزله أحسن إنزال، ثم بايع له بولاية العهد ولقبه الرضى من آل محمد p وأمر جنده بطرح السواد من الثياب والأعلام ولبس الثياب الخضراء فى رمضان سنة ٢٠١هـ، وضرب اسمه على الدينارين والدراهم ثم زوجه من أم حبيب ابنته وزوج محمد بن على بن موسى الرشا بابنته أم الفضل والظاهر وأن الإمام على الرضا أطلع المأمون على حقيقة الأوضاع، وأطلعته على سوء الحال من الفتن والحروب والثورات التى استمرت منذ قتل الأمين، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من أخبار^(١)، وهكذا تظاهر المأمون وعلى الرضا برضايهما عن تحويل الخلافة إلى العلويين حتى لا يثيرا رغبة الفضل بن سهل ولكن أهل بغداد أبو أن تخرج الخلافة من ولد العباس، وظنوا أن تحويلها إلى العلويين حلقة فى مؤامرة خططها الفضل بن سهل وكانوا قد استاءوا من منصور بن المهدي لاعتماده على الشطار بطانته فبايعوا إبراهيم ابن المهدي^(٢)، بالخلافة ولقبوه المبارك وخلصوا المأمون فى غرة الحرم سنة ٢٠٢هـ وبايعه سائر بنى هاشم، فاستولى إبراهيم على الكوفة والسواد كله، واستعمل على الجانب الغربى من بغداد العباس بن موسى الهادى وعلى الجانب الشرقى منها إسحاق بن موسى الهادى^(٣).

وعزم المأمون على السير إلى العراق، فتحرك إلى سرخس وهناك تم اغتيال الفضل بن سهل فى حمامه غيلة فى حمام دار المأمون فى ٢ من شعبان فاستعظم المأمون ذلك وأمر بقتل قتلته. وقيل أنه هو الذى أمر بقتل الفضل بن

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٣٤٦. كذلك أبلغه أن الفضل بن سهل كذب عليه وأن الناس سينقمون على المأمون مكان الفضل ومكان أخيه الحسن ومكان الإمام على الرضا، واستحضر الأمام على الرضا عددا من الشهود فأخبروه بأن أهل بغداد بايعوا لإبراهيم ابن المهدي وأنهم سموه الخليفة السننى على أساس أتباعهم للمأمون بالرفض ثم أطلعوه على أكاذيب الفضل فيما يتعلق بهرثمة بن أعين، وطالبوا المأمون بالخروج إلى بغداد. ابن الأثير: ج٦، ص ٣٤٧.

(٢) كان يعرف بن شكلة. المسعودى، ج٣، ص ٤٤١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٦، ص ٣٢٦.

سهل، وذلك أنه لما رأى إنكار أهل بغداد لما فعله من نقل الخلافة إلى بنى علي، وأنهم نسبوا ذلك إلى الفضل بن سهل ورأى الفتنة قائمة، دس جماعة على الفضل بن سهل فقتلوه في الحمام ثم أخذهم وقدمهم ليضرب رقابهم، فقالوا له: "أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا. فقال: "أنا أقتلكم بإقراركم، وأما ما ادعيتموه على من أنى أمرتكم بذلك فدعوى ليس لها بينه".

وفي مدينة طوس توفى الإمام على الرضا فجأة في صفر سنة ٢٠٣هـ/ ٨١٨م، بسبب غيب أكثر منه وقيل لعنب مسموم^(١)، فصلى عليه المأمون ودفنه عند قبر أبيه الرشيد ثم جد المأمون في السير إلى بغداد فلما علم إبراهيم بن المهدي بقرب وصوله فمر من بغداد في ٢ من ذى الحجة سنة ٢٠٣هـ/ ٨١٨م ووصل المأمون إلى بغداد فنزل الرصافة ثم تحول ونزل قصره على شاطيء دجلة وكان قد استقدم معه طاهر بن الحسين من الرقة ليوافيه بالنهروان ويصحبه إلى بغداد ولما استقر في بغداد تلقاه العباسيون وسألوه أن يترك لباس الخصرة ويأمر بالعودة إلى السواد، فأجابهم إلى ذلك في ٢٣ صفر سنة ٢٠٤/ ٨١٩م.

أما إبراهيم بن المهدي فقد أمر المأمون بالبحث عنه فظفر به في سنة ٢١٠هـ/ ٨١٥م وكان متكرراً في زى امرأة، فعفا المأمون عنه وأما الحسن بن سهل فقد عزله عن ولاية العراق واستوزره جبر المصابه بعد قتل أخيه وتزوج بابنته بروان في رمضان سنة ٢١٠هـ/ ٨١٥م أما طاهر بن الحسين فقد ولاه المأمون خراسان في سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م بينما ولى ابنه عبدالله بن طاهر الجزيرة والشام ومصر وتوفى طاهر في جمادى الأولى سنة ٢٠٧هـ/ ٨١٢م وقيل أنه كان ينوى الاستقلال بخراسان وقطع اسم المأمون في الخطبة، ولكن الموت فاجأه فقد ذكر ابن الأثير أن كلثوم بن ثابت بن أبي سعيد، القائم بالبريد في خراسان قال، فلما كان سنة سبع ومائتين حضرت الجمعة فصعد طاهر المنبر

(١) المسعودي، ج٣، ص٤٤١. ابن الأثير: الكامل، ج٦، ص٣٥١.

فخطب فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له وقال : اللهم أصلح أمة محمد بما أصلحت به أوليائك وأكفنا مؤونة من بغى علينا وحشد فيها بلم الشعث وحقن الدماء وإصلاح ذات البين^(١).

ومن بين الثورات التي قامت في عهد المأمون:
١- ثورة عرب مصر وأقباطها سنة ٢١٦هـ / ٨٢١م:

قامت بالوجه البحرى بسبب تعسف الولاة وتشددهم مع الأقباط والعرب فى جباية الضرائب والجزيات وقد شملت هذه الثورة كل بلاد الوجه البحرى واضطر المأمون إلى الخروج بنفسه إلى مصر فى سنة ٢١٣هـ / ٨١٨م، لتهدئة الأحوال فأقام بها ٤٧ يوماً والظاهر أن المأمون استخدم العنف فى القضاء على هذه الثورة وعهد إلى الأفشين بمحاربتهم وخاصة قبط البشروء من أهل الحوف فقتل منهم الأفشين عدداً كبيراً وسباهم فنزلوا على حكم المأمون. واستفتن المأمون فى ذلك فقيها مالكيًا بمصر يقال له الحارث بن مسكين فقال: "إن كانوا خرجوا لظلم نالهم فلا تحل دماؤهم وأموالهم. فقال المأمون: أنت تيس ومالك أتيس منك وهؤلاء كفار لهم ذمة إذا ظلموا إلى الأمام وليس لهم أن ينتصروا بأسياهم ولا يسفكوا دماء المسلمين فى ديارهم . وأخرج المنصور رؤساءهم فحملهم إلى بغداد.

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٦، ص ٣٨٢.

٢- ثورة الزط^(١)، فى جنوبى العراق بنواحي البصرة:

قام الزط بثورتهم منذ قيام الفتنة بين الأمين والمأمون، وقد ولى المأمون لمحاربتهم فى سنة ٢٠٥ هـ عيسى بن يزيد الجلوزى^(٢)، كما عهد فى العام التالى لمحاربتهم قائده داود بن ماسحور وأسند إليه أعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين^(٣)، واستمر الزط يشكلون خطرا كبيرا على الموارد الاقتصادية للدولة العباسية وإذا كانوا يفرضون المكوس على السفن الداخلة إلى بغداد، ولم تخدم حركتهم إلا فى سنة ٣١٩ هـ عندما وجه المعتصم لمحاربتهم قائده عجيف بن عنبسة فى جمادى الآخر، وفى ذلك يقول ابن الأثير: "وكانوا غلبوا على طريق البصرة، وأخذوا الغلات من البيادر بكسكرو وما يليها من البصرة، وأخافوا السبيل، ورتب عجيف الخليل فى كل سكة من سكة البريد تركض بالأخبار فكان يأتى بالأخبار من عجيف فى يوم فسار حتى نزل تحت واسط وأقام على نهر يقال له بردودا حتى سده، وأنهرا آخر كانوا يخرجون منها ويدخلون وأخذ عليهم الطرق ثم حاربهم فأسر منهم فى معركة واحدة ٥٠٠ رجل وقتل فى المعركة ٣٠٠ رجل فضرب أعناق الأسرى^(٤)، ثم خرج الزط إليه، بعد أن أمنهم فى ذى الحجة سنة ٢١٩ هـ وبلغ عددهم ٢٧ ألفا بما فى ذلك النساء والصبيان والمقاتلة منهم ١٢

(١) هم فى الأصل من أهل السند وألبجاب ووقعوا فى سبي الفرس، واسلموا زمن الفتوحات، فأترلهم أبو موسى الأشعري فى البصرة كذلك أتى الحجاج بجماعة من زط السد ومعهم أهلوهوم وأولادهم وجواميسهم فأسكنهم بأسافل ككر فغلبوا على ألبطيحة وتناسلوا بها. ثم انضم إليهم قوم من أباق العبيد وموالى بأهله وخولة محمد بن سليمان بن على وغيرهم فشجعوهم على قطع الطريق ومبادرة السلطان بالمعصية وكان همهم بادی ذى بدء اختلاس الشىء الطفيف من أهل السفن فتحامى الناس المرور بهم فى أيام المأمون. راجع ألبلاذرى: فتوح البلدان، طبعة الدكتور المنجد، ج٢، ص ٤٦٢. ولمزيد من الأخبار عن الزط أو الجت بالهندية راجع: القاضى أظهر: مباركورى الهندى والعرب والهند فى عهد الرسالة، ترجمة عبد العزيز عزت عبد الجليل، القاهرة ١٩٧٣، ص ٤٨-٥٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٦، ص ٣٦٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٦، ص ٣٧٩.

(٤) العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ١٠٨.

ألف ثم عبأهم فى سفنهم ومعهم البوقات ونقلوا بعد ذلك إلى عين زربة وظلوا هناك إلى أن أغار البيزنطيون على عين زربة فى سنة ٢٤١هـ فى خلافة المتوكل العباسى فأسروا كل من كان بها من الزط مع نساءهم وذريتهم ودوابهم^(١)، ونقلوهم إلى القسطنطينية ويبدو أنهم انتشروا من هناك فى نواحي أوروبا الغربية ونزل بعضهم أسبانيا ولعل الغجر (المسلمون بالأسبانية Glittanes) من سلالة هؤلاء الزط لتشابه كلمة زط بالاسم الفارسى لهم وهو جت وتقارب جتن من جياتو الأسبانية لا سيما وأن هؤلاء الزط اشتهروا فى المشرق الإسلامى باشتغالهم بالغناء والرقص وإلهاء الجماهير^(٢). وسنعود إلى الحديث عنهم.

٣- حركة بابك الخرمى:

وبدأت هذه الحركة فى سنة ٣٠١هـ فى الجأويدانية وهم أصحاب جأويدان بن سهل صاحب اليد وأدعى بابك أن روح جأويدان حلت فيه وقال بالتناسخ واستفحل خطر هذه الحركة الأمر الذى دفع المأمون إلى محاربة بابك فسير إليه فى سنة ٢٠٤ فأنه يحيى بن معاذ ولكنه لم ينجح فى مهمته ثم أعاد المأمون الكرة فى سنة ٢٠٦هـ، ووسير لمحاربة بابك قائده عيسى بن محمد بن أبى خالد ولكن بابك هزم قوات المأمون ونكبها^(٣)، وتابع المأمون تسيير قواته لمهاجمة بابك ففى سنة ٢٠٩هـ عهد إلى على بن صدقه المعروف برزيق واليه على أرمينية وأذربيجان بمحاربة بابك، ولكن بابك أسر أحد القادة الذين سيرهم رزيق

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٦، ص ٤٤٣.

(٢) العبادى: المرجع السابق، ص ١٠٨، وراجع أيضا تفصيلات عن هذا الموضوع فى بحثه القيم بعنوان: حركة الزط فى العصر العباسى الأول من بحوث مؤتمر الدراسات التاريخية لشرقى الجزيرة العربية، الدوحة ٢١-٢٧ مارس ١٩٧٧، ص ٤٤-٤٩ من ملخصات أبحاث.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٦، ص ٣٢٨.

لمحاربتة^(١)، وظل أمر بابك يشدد وجموعه تتكاثر حتى آلت الخلافة إلى المعتصم، فتولى قائده الأفشين مطاردته على النحو الذى سنشير إليه فيما بعد.

وعلى الرغم من الفتن والثورات التى ملأت عهد المأمون فإن عصره يعتبر من أزهى عصور الدولة العباسية من الناحية العلمية فقد اهتم بالمسائل العلمية والفلسفية وشجع على النهضة الفكرية ونشر العلوم فزود دار الحكمة التى كان الرشيد قد أسسها فى بغداد بمختلف أنواع الكتب من الهند وبلاد الروم والفرص حتى أصبحت دار الحكمة أشبه بجامعة علمية تضم دار الكتب يجتمع فيها شيوخ العصر للترجمة والتأليف والتحصيل كما خصص فيها مواضع للنساخين وذكروا أنه استخرج كتب الفلاسفة واليونان من جزيرة قبرص^(٢)، واطلع على الكثير مما جاء فيها فكان أول من فحص من الخلفاء عن علوم الحكمة وحصل كتبها وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها وحل إقليدس ونظر فى علوم الأوائى، وتكلم فى الطب وقرب أهل الحكمة^(٣)، وجره ذلك إلى القول بخلق القرآن^(٤)، وامتحان القضاة والشهود والمحدثين بالقرآن فمن أقر أنه مخلوق محدث خلى سبيله ومن أبى أعلمه به ليأمره فيه برأيه وممن امتحنهم فى ذلك الإمام أحمد بن حنبل الذى أصر على أن القرآن كلام الله، فأمر به فشد فى الحديد، ثم أمر به فأرسل إلى طرسون مع جماعة ممن خالفوا المأمون فى مقالته^(٥).

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٦، ص ٣٩. أسر بابك القائد أحمد بن الجعيد الاسكافى.

(٢) السيوطى، ص ٣٠٣. وقد اهتم بترجمة هذه الكتب وغيرها من لغاتها إلى العربية واشتغل بذلك حنين بن اسحق وبخيتشوع والحاج بن مطر وثابت بن قررة.

(٣) ابن طباطبا، ص ١٩٨.

(٤) السيوطى، ص ٢٨٤. أيد المعتزلة فيما ذهبوا إليه من القول بأن القرآن مخلوق.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٤٢٧.

وكان المأمون يحب لعب الشطرنج ويولع به وكان يبرر ذلك بقوله "هذا يشحذ الذهن" واقترح فيها أشياء وكان يقول: "لا أسمع أحد يقول تعالى حتى نلعب، ولكن يقول: نتداول أن نتناقل"^(١).

وكان المأمون يشترك في المناظرات في الفقه، فأوجد مجالس المناظرة، وكان يجلس لذلك يوم الثلاثاء من كل أسبوع وكانت المناظرة تناول المسائل الكلامية وتجري داخل غرفة مفروشة وجرت العادة أن يبدأ المأمون مع من يناظره من الفقهاء بتناول الطعام والشراب، فإن فرغوا بخروا بالمجامر وطيبوا ثم يبدأ في مناظرتهم إلى أن تغرب الشمس ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون^(٢).

وقد أجمع المؤرخون على أن المأمون كان أفضل رجال بنى العباس حزما وعزما وحلما ورأيا ودهاء وهيبة وشجاعة وأنه لم يل الخلافة من بنى العباس أعلم منه.

وفي عهد المأمون قامت في الدولة البيزنطية ثورة يتزعمها الصقلي ضد الإمبراطور البيزنطي ميشيل الثاني العمورى في سنة ٢٠١ هـ / ٨٢١م كادت تطيح بعرض الإمبراطور وقد أيد المأمون ثورة توماس، وأمدّها بقوة إسلامية مقابل أن يتنازل له توماس بعد أن يتحقق هدفه عن بعض الحصون البيزنطية ولكن ثورة توماس فشلت بعد عامين في سنة ٨٢٣م.

(١) السعوى ، ج ٣ ، ص ٤٣٢ ؛ السيوطى ، ص ٣٠٣ .

(٢) ابن طباطبا ، ص ١٩٧ ؛ السيوطى ص ٢٨٤ .

٨- أبو اسحق محمد المعتصم

(٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م)

هو ابن الرشيد من ماردة أم ولده التركية ببيع له بعد وفاة أخيه المأمون وهو في غزوته الأخيرة إلى بلاد البيزنطيين في رجب سنة ٢١٨هـ، وقد سار المعتصم على سياسة أخيه في حمل الناس على القول بخلق القرآن فأهان ابن حنبل إهانة بالغة فقد أحضره أول خلافته وامتنحه بالقرآن، فلم يجب إلى القول بخلقه فأمر به فجلد جلدًا شديدًا حتى غشى عليه وتقطع جلده وحبس مقيداً^(١)، كذلك تشدد المعتصم مع العلويين فتخلص من الإمام محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى في ٥ من ذي الحجة سنة ٢١٩هـ/ ٨٣٤م فقد قيل أن أم الفضل بنت المأمون سمته لما قدمت معه من المدينة إلى المعتصم^(٢)، كذلك قبض على محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين العلوي فسجنه في أنج اتخذه في بستان بمدينة سر من رأى، ثم دس له السم فمات^(٣)، وإن كان فريق من الزيدية اعتقدوا أنه مهدى هذه الأمة^(٤).

- بناء مدينة سامراء :

كان المعتصم شجاعاً قوياً من أشد الناس بطشاً وكان قائداً موفقاً في حروبه لقد استحق لقب الخليفة القائد وهو أول من أدخل الأتراك في الديوان، وكان يتشبه بملوك الأعاجم ويمشى مشيتهم واعتمد المعتصم على الأتراك اعتماداً كلياً في الجيش^(١)، واسقط العرب من ديوان العطاء، وأهمل الفرس فقويت شوكة الأتراك وارتكبوا الكثير من أعمال الشغب ببغداد مما أثار عليهم العامة^(٢)،

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٤٤٥.

(٢) المسعودي، ج ٣، ص ٤٦٤.

(٣) المسعودي ج ٣، ص ٤٦٥.

(٤) المسعودي ج ٣، ص ٤٦٥؛ السيوطي ٣١٠.

فاضطر المعتصم إلى تأسيس مدينة تتسع لجنده الأتراك فأسس مدينة سامراء في سنة ٢٢١هـ / ٨٣٦م^(٣)، وانتهى من بنائها في ٢٢٣هـ / ٨٣٧م وأقام فيها مسجداً جامعاً وأفرد سوقاً لأرباب الحرف والصناعات ونقل إليها الأشجار والثمار وأقام القصور العظيمة التي بلغ عددها ١٧ قصراً.

وفى عهد المعتصم ازداد خطر بابك الخرمي الذي لاذ بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية منذ سنة ٢٢١هـ / ٨٣٦م ، ولكن المعتصم وضع كل إمكاناته العسكرية للقضاء عليه وعهد بهذه المهمة إلى قائده الأفشين الذي نجح في القبض عليه وسيره إلى الخليفة بسامراء حيث قتل شر قتلة في سنة ٢٢٣هـ / ٨٣٧م^(٤).

والمعتصم هو بطل عمورية ففي عهده ساءت العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية وكان الإمبراطور البيزنطي تيوفيل بن ميشيل العموري يعين بابك الخرمي بمعونات عسكرية انتقاماً لما فعل العباسيون زمن المأمون من مساعدتهم لتوماس الصقلي فقد أغار البيزنطيون في سنة ٢٢٣هـ / ٨٣٧م على مدينة زبطرة وفتحوها بالسيف ثم أغاروا على ملطية وقتلوا ونهبوا وسبوا فاستنفر المعتصم قواته وسار على رأس جيش ضخم يقوده الأفشين وأشناس وتمكن من هزيمة الإمبراطور البيزنطي في أنقره ثم حاصر عمورية ودخلها بالسيف وتركها أربعة أيام نهباً للسلب والتدمير وأراد المسيرة إلى القسطنطينية ومحاصرتها براً وبحراً فبلغه عزم العباس بن المأمون على الخروج عليه ومكاتبة الإمبراطور البيزنطي فعجل المعتصم في مسيرة وقبض على العباس وأنصاره وفي نيج منع

(١) المسعودي ج ٣، ص ٤٦٥.

(٢) المسعودي ج ٣، ص ٤٦٠.

(٣) ذكر المسعودي أنه كان يحب جمع الأتراك وشراءهم من أيدي مواليهم فاجتمع له منهم ٤ آلاف فألبسهم أنواع الدباج والمناطق المذهبة ، ويميزهم في الرى عن سائر جنوده وكان قد اصطنع قوماً من حوف مصر فسامهم

المغاربية واستكثر من الفراغنة والأشروسية المسعودي ج ٣، ص ٤٦٥.

(٤) التفاصيل في: يعقوبي، ج ٢، ص ٤٧٤؛ المسعودي، ج ٣، ص ٤٧٠؛ ابن الأثير، ج ٦، ص ٤٧٨.

عنه الماء فمات بها^(١)، وكانت أنباء انتصارات المعتصم على ثيوفيل بيزنطة قد حركت مشاعر المسلمين فتصدى شعراؤهم بالمديح للمعتصم، من ذلك قول أبي تمام:

السيف أصدق أنباءً من الكتب * في حده الحد بين الجد واللعب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفاً معسولة الحلب

وفى أيام المعتصم خرج المازيار بن قارن صاحب جبال طبرستان (وكان على ما يظهر من الخرمية) على المعتصم فى سنة ٢٢٤هـ / ٨٣٨م ، ويرجع سبب ثورته إلى أنه أراد انتزاع الأرض من كبار الملاك العرب وتوزيعها على الفلاحين، فأغرى الفلاحين بقتل أرباب الضياع^(٢)، فأمر المعتصم قائده عبدالله بن طاهر بمحاربه فسير إليه عبدالله بن طاهر من نيسابور عمه الحسن بن الحسين، الذى تمكن من أسره وحمله إلى سامراء سنة ٢٢٥هـ / ٨٣٩م ، وهناك أقر بأن الأفشين هو الذى حرضه على العصيان لاتفاقهما فى المجوسية فأمر المعتصم بجلده حتى الموت ثم صلب إلى جانب بابك أما الأفشين فقد مات فى الحبس، ثم أخرج من سجنه ميتاً فُصلب بباب العامة بسامراء^(٣).

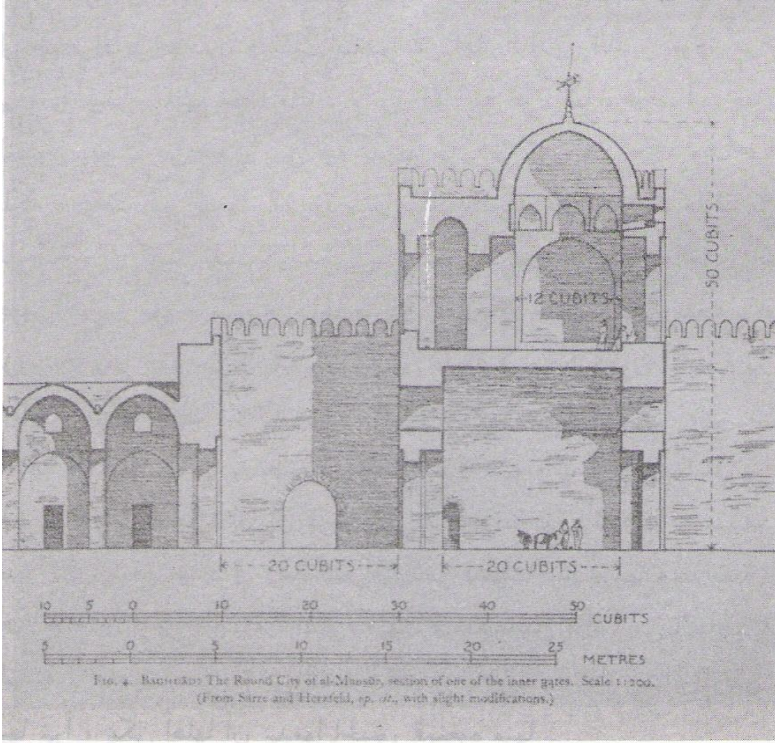
وفى أيام المعتصم أيضاً خرج أبو حرب المبرقع اليماني بفلسطين سنة ٢٢٦هـ / ٨٤٠م ، ويرجع السبب فى ثورته إلى أن بعض الجند اعتدوا على إحدى نساته بالسوط فأصابها إصابة دامية فغضب وقتل الجندي ثم هرب، وألبس وجهه برقعاً ودعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورغم أنه أموى فسمى بالسفياى فلما كثر أتباعه وانضم إليه جمع من رؤساء اليمانية خاف المعتصم أن يستفحل أمره فسير إليه رجاء بن أيوب الحضارى فى نحو ١٠٠ ألف مقاتل

(١) اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٤٧٦ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ، ص ٤٩١-٤٩٢ .

(٢) الدورى: العصر العباسى الأول ، ص ٢٤٢ .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ، ص ٤٧٤ . ابن الأثير: الكامل، ج ٥ ، ص ٥١٠-٥١٨ .

فراه رجاء فى حشود هائلة فكره مواقعه وعسكر تجاهه وكان الوقت أوان الزراعة فانصرف من كان مع المبرقع إلى عملهم وبقي فى نحو ألف أو ألفين. وتوفى المعتصم فى هذه الأثناء وولى الواثق واتفق أن ثار القيسية بدمشق أيضاً فأمر الواثق القائد رجاء بالشروع فى إخماد فتنة دمشق والعودة بعد ذلك إلى المبرقع ولكن المبرقع وقع أسيراً فى يد رجاء فأرسل إلى سامراء^(١).



مقطع القبة فى أحد مداخل مدينة السلام

يوسف العش : تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص ٢٠

^(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٦، ص ٥٢٢-٥٢٣.

٩- هارون الواثق بالله

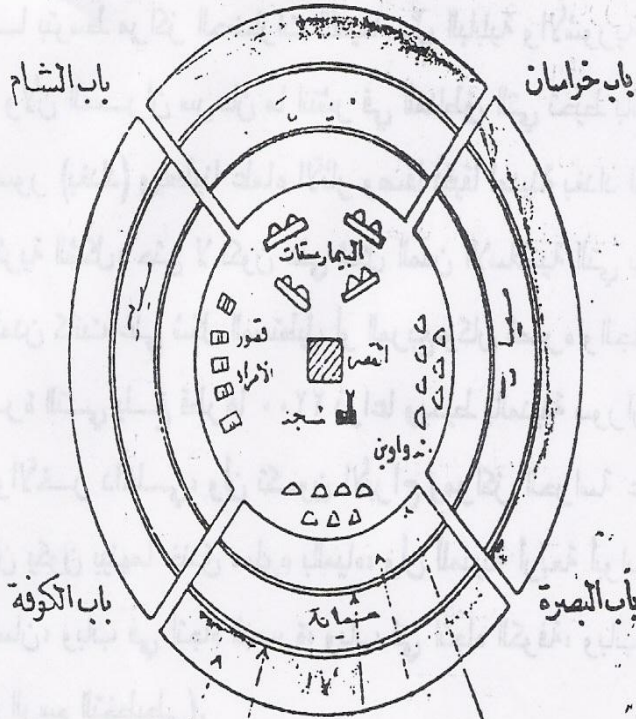
(٢٢٧-٢٣٢ هـ / ٨٤٢-٨٤٧ م)

هو أبو جعفر الواثق بالله هارون بن المعتصم وأمه أم ولد رومية اسمها قراطيس وكان الواثق يشارك أباه المعتصم في ميوله وآرائه الفلسفية فتشدد مع الفقهاء، وألزمهم باعتراف آرائه، وانتصر للمعتزلة وقد أثار بهذه السياسة مشاعر أهل بغداد فسخطوا عليه وأنكروا القول بخلق القرآن وتزعم هذه الحركة أحمد بن نصر الخزاعي في سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م ، ولكن الواثق وصل إلى القبض على زعماء الحركة أحمد بن نصر الخزاعي في سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م ، ولكن الواثق توصل إلى القبض على زعماء الحركة وجلس لهم فجلس عاما فيه، وجلس لهم مجلسا عاما فيه أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة وناظر أحمد بن نصر في مشكلة خلق القرآن فأنكر عليه ابن نصر ذلك فقام إلى سيف يقال له الصمصامة وضربه على رقبتة ثم طعنه بطرف سيفه في بطنه، وأمر بصلب رأسه عند باب الخرمي ببغداد^(١).

وبوفاة الواثق في سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م ينتهي خلفاء العصر العباسي

الأول.

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص ٢٢ ، السيوطي ، ص ٣١٥ .



نظر من خارج

سور المدينة سور الابواب سور الخارجي

فراغ داخلي عرضه ٢٧٠ متر مملوء بالمياه فراغ خارجي

تخطيط مدينة بغداد

الفصل الثالث

العصر العباسي الثاني

عصر الدويلات المستقلة

العصر العباسي الثاني
عصرالدويلات المستقلة

* الخلافة العباسية في مرحلة التدهور (٢٣٢-٦٥٦هـ / ٨٤٧-١٢٥٨م)

* الدول المستقلة في بلاد المغرب:

- دولة الأدارسة (١٧٢-٣٧٥هـ / ٧٨٨-٩٨٥م):

- دولة الأغلبية: (١٨٤-٢٩٦هـ / ٨٠٠-٩٠٩م):

* الدول المستقلة في مصر والشام

- الدولة الطولونية: (٢٥٤-٢٩٢هـ / ٨٦٨-٩٠٥م):

- الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ / ٩٣٥-٩٦٩م)

* الدول المستقلة في المشرق الإسلامي :

- الدولة الطاهرية: (٢٠٥-٢٥٩هـ / ٨٢٠-٨٧٢م)

- الدولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٠هـ / ٨٦٧-٩٠٣م)

- الدولة السامانية (٢٦١-٢٨٩هـ / ٨٧٤-٩٩٩م)

- الدولة الغزنوية (٣٥١-٥٨٢هـ / ٩٦٣-١١٣٦م)

* العلاقة بين الخلفاء العباسيين وسلطين السلاجقة

- عصر نفوذ الأتراك ٢٣٢-٣٣٤هـ / ٨٤٧-٩٤٥م:

* صحوة الخلافة العباسية (٢٥٦-٢٨٩هـ / ٩٦٦-٩٩٨م)

- عصر نفوذ البويهيين ٣٣٤-٤٤٧هـ / ٩٤٥-١٠٥٥م:

- الإمبراطورية السلجوقية (٤٤٧-٥٩٠هـ / ١٠٥٥-١١٩٣م):

- السلطين السلاجقة العظام :

- طغرل بك (٤٣٢-٤٤٥هـ / ١٠٣٧-١٠٦٣م):

- ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ / ١٠٦٣-١٠٧٢م)

- ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ / ١٠٧٢-١٠٩٢م) :

- الصراع داخل البيت السلجوقي :

- الخلافة العباسية في عصرها الأخير (٥٩٠-٦٥٦هـ / ١١٩٣-١٢٥٨م):

* الخوارزميون والمغول

- سقوط بغداد وانهيار الخلافة العباسية

الخلافة العباسية في مرحلة التدهور

٢٣٢ - ٦٥٦ هـ / ٨٤٧ - ١٢٥٨ م

تسمى هذه المرحلة الطويلة عادة بـ"العصر العباسي الثاني"، ويقسمها كثير من الباحثين إلى عصور أربعة رئيسية هي عصر نفوذ الأتراك، وعصر البويهيين، وعصر السلاجقة، ثم أخيراً عصر ما بعد السلاجقة وهو العصر الذي انحصر فيه الخلفاء في بغداد وما حولها.

* الدول المستقلة في بلاد المغرب:

- دولة الأدارسة (١٧٢-٣٧٥ هـ/٧٨٨-٩٨٥ م):

سبق أن ذكرنا أنه في عام ١٦٨ هـ قام العلويون بثورة كبرى في المدينة ضد الدولة العباسية، وكان من بين الثائرين، إدريس بن عبدالله ابن الحسن بن الحسين بن علي، ولما تمكن العباسيون من اخماد هذه الثورة وقتل معظم القائمين بها، فر إدريس إلى مصر ثم انتقل منها إلى المغرب الأقصى حيث أسس دولة تحمل اسمه ولما كان العلويون يعتبرون العباسيين مغتصبين الخلافة، فقد تلقب الأدارسة بالخلفاء، ولم يحكم إدريس الأول مدة طويلة، إذ توفي في عام ١٧٧، وقيل أن هارون الرشيد بعث برجل يدعى سليمان الشماخ- تمكن من دس السم له وخلفه في الحكم ولده إدريس الثاني، وأهم ما قام به من أعمال: إنشاء عاصمة جديدة لدولته هي مدينة فاس، وفي عهده قام النزاع بين دولة الأدارسة ودولة الأغالبة التي قامت في إفريقية. (١)

وقد أخذت دولة الأدارسة في الاضمحلال بعد وفاة إدريس الثاني عام ٢١٣ هـ/٨٢٨ م فقد ترك أحد عشر ولداً، خلفه على العرش أكبرهم محمد، ثم قام محمد هذا بتقسيم المملكة إلى ولايات أقام على حكمها ثمانية من أخوته، ولم يلبث أن قام النزاع والصراع بين هؤلاء الأخوة وما أدى إلى إضعاف الدولة، كذلك قام موسى بن أبي العافية زعيم قبيلة مكتاسة البربرية بثورة في داخل الدولة ونجح في الاستقلال ببعض أجزائه، كما أخذ الأمويون في الأندلس يوجهون

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص ٦٨ - ٦٩.

أطماعهم نحو دولة الأدارسة وقد تمكنوا فى عام ٣١٩هـ من إنزال ضربة قاضية للادارسة باستيلائهم على سبتة وأخذوا فى مطاردة الأدارسة فى كل مكان وهكذا انتهت دولتهم بعد أن ظلت تحكم المغرب الأقصى قرابة قرنين من الزمان. (١)

- دولة الأغالبة: (١٨٤-٢٩٦هـ / ٨٠٠-٩٠٩م):

قامت هذه الدولة فى إقليم إفريقية (تونس) على يد إبراهيم ابن الأغب واتخذت من القيروان عاصمة لها. وكانت هذه الدولة الأغلبية لتكون دولة حاجزة، لحماية أطراف الدولة من الجانب الغربى من أخطار الخوارج والأدارسة فى المغرب الأقصى، والأمويين فى الأندلس والبيزنطيين وقد أسس إبراهيم بن الأغب مدينة جديدة على بعد ثلاثة أميال جنوبى القيروان اسمها العباسية لتكون عاصمة لدولته وكان الحكم وراثيا فى هذه الأسرة طول مدة حكمها حتى تمكن الفاطميون من القضاء عليها. (٢)

* الدول المستقلة فى مصر والشام

- الدولة الطولونية: (٢٥٤-٢٩٢هـ / ٨٦٨-٩٠٥م):

رأينا كيف تغلغل نفوذ الأتراك وازداد فى الدولة العباسية بخاصة منذ بداية عهد المعتصم، وكيف امتد ذلك النفوذ من العاصمة إلى الولايات المختلفة فى الدولة.

كانت مصر بصفقتها ولاية عباسية تمنح إقطاعاً لهؤلاء الأتراك، وقد جرت العادة على أن يبقى الوالى التركى الذى يمنح حكم مصر إلى جانب الخليفة فى بغداد أو سامراء بعد ذلك، ويبعثون بمن ينوب عنهم لحكم مصر.

ومن أشهر هؤلاء النواب الذين حضروا إلى مصر لحكمها، أحمد ابن طولون الذى كان والده طولون ضمن بعض المماليك الأتراك الذين أرسلهم حاكم

(١) عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: دراسات فى تاريخ الدولة العباسية، دار الفكر العربى، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص

١٩٧-١٩٦.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج٣، ص ٣١-٣٢.

بخارى هدية للخليفة المأمون العباسي، الذي أعجب به وبقوته وشجاعته، وكانت هذه مميزات أهلته ليعين قائد للحرس، وفي عام ٢٢٠هـ رزق بابنه أحمد في عهد المعتصم.

وقد نشأ أحمد بن طولون نشأة عسكرية في سامرا، كما تلقى العلوم الدينية في بغداد وطرسوس.

وفي عام ٢٥٤هـ/٨٦٩م عين باكباك التركي واليا على مصر في عهد الخليفة المتوكل، وكان باكباك هذا قد تزوج من والدة أحمد ابن طولون بعد وفاة زوجها، فأرسل أحمد إلى مصر ليحكمها نيابة عنه ثم حدث أن قتل باكباك 'فقام الخليفة بتعيين أمير تركي آخر واليا على مصر وهو باركوخ فقام أحمد بن طولون بالترؤج من ابنته. ونتيجة لذلك أبقى أحمد بن طولون في موضعه في مصر وكتب إليه أن "تسلم من نفسك إلى نفسك".

واستقل أحمد بن طولون بحكم مصر، ولم يكن يربطه بالخلافة العباسية سوى بعض المظاهر الشكلية مثل إرسال الأموال المطلوبة من مصر كل عام ونقش اسم الخليفة على السكة والدعاء له على منابر المساجد وقد تمكن أحمد بن طولون من التوسع حتى أصبحت دولته تمتد من سوريا شمالا حتى آسيا غربا - وشجعه على ذلك انشغال الدولة العباسية بالقضاء على بعض الفتن الدولية، ثم أنه أعد جيشا قويا ضخما ليعينه على تنفيذ خطته التوسعية، كذاك فقد حرص بن طولون إرسال الأموال والهدايا إلى كبار رجال الحكومة العباسية في بغداد فوقفوا إلى جانبه. (١)

وقد قام أحمد بن طولون بتأسيس مدينة القطائع في مكان القلعة الحاليه، وبنى فيها قصرا ضخما وجعل أمامه مكانا رحبا لاستعراض الجيش، وأقام حول القصر مساكن للجند والحاشية وخصص لكل عنصر من الجنود قطعة من المدينة، فجعل للسودان قطعة وللروم قطعة ولهذا عرفت بالقطائع وأقام جوار

(١) إبراهيم على الدين القلا: تاريخ مصر الإسلامية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٧م، صفحات متفرقة .

القصر مسجده المعروف باسمه وقد تم العمل فيه عام ٢٦٥هـ - ٨٧٩م) كما أنشأ أحمد بن طولون بيمارستانا (مستشفى) لعلاج المرضى بالمجان وصرف الأدوية لهم، وكان يطوف على المرضى ويتفقد المستشفى ويشرف على الأطباء والأدوية بنفسه وكذلك قام أحمد بن طولون بتحسين مملكته وثغورها مثل الإسكندرية ودمياط وعكا ويافا، كما أنشأ حصنا ودار صناعة فى جزيرة الروضة. وفى عهد أحمد بن طولون حدث نزاع بينه وبين الأمير العباسى الموفق، مما دفع ابن طولون إلى القيام ببعض الأعمال ضد العباسيين من ذلك ما يروى أن طولون أقام ضريحا لمعاوية بن أبي سفيان فى دمشق كما عمل على تقوية علاقته بالأمويين فى الأندلس، وأخذ يرحب بمن كان يفتد إلى مصر من علماء الأندلس ويعينهم فى بعض الوظائف الهامة . أما من كان يحضر منهم بغرض تلقى العلم فقد كان يرحب بهم ويسكنهم فى مسجده ويجرى عليهم الأرزاق والجرایات. (١)

وفى عام ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م توفى أحمد بن طولون، وهو فى السن الخمسين من عمره فخلفه ولده خمارويه.

- خمارويه:

هو أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون كان يميل إلى حياة الدعة والسلام ويميل إلى الترف والفن، وفى أوائل عهده، بعث الأمير الموفق العباسى بجيش إلى مصر بقصد استردادها بعد وفاة أحمد بن طولون، وقد حقق هذا الجيش فعلا بعض الانتصارات إلا أن خمارويه استطاع تحقيق النصر فى نهاية الأمر، ثم عقد صلح بينهما فى سنة ٢٧٢هـ على أن تترك الدولة العباسية مصر والشام لخمارويه وأولاده من بعده لمدة ثلاثين سنة.

وفى عهد الخليفة المعتضد بن الموفق توطدت العلاقات الطيبة بين مصر والدولة العباسية وتزوج الخليفة من أسماء ابنة خمارويه التى تعرف باسم قطر

(١) عصام الدين عبد الرؤوف: دراسات فى تاريخ الدولة العباسية، ص ١٩٤ .

الندى وقد احتفظت لنا كتب التاريخ بوصف لجهاز العروس وحفل الزواج يرقى إلى مرتبة الأساطير. (١)

وقد اهتم خمارويه بمدينة القطائع اهتماما كبيرا فقام بتحويل الميدان الذى أقامه والده أمام القصر لاستعراض الجند إلى بستان واسع أبدع فيه غاية الإبداع إذ قام بغرس الزهور والرياحين على شكل كتابات ونقوش وكسا جذوع النخل نحاسا مذهبا يتلألأ فى ضوء الشمس كما أقام عددا من العيون والنافورات وأقام حديقة للحيوان فى جزء من ألبستان ويحكى إنه كان لديه أحد ستأنس يسمى زريق لزرقة عينيه، وأنه كان يلزم خمارويه فيجلس عند قدميه عندما يأكل ويحرسه أثناء نومه وأنشأ خمارويه فى هذا ألبستان قصرا أسماه قصر الذهب نظرا لأنه طلى جدرانه بهذا المعدن النفيس. (٢)

ولما كان خمارويه يعانى من الأرق فقد نصحه الأطباء بإقامة فسقية فى هذا ألبستان ويملؤها بالزئبق ووضع فوقه حانية تدل عليها فتتحرك بتحريك الزئبق فتجلب له نوما هادئا.

وفى عام ٢٨٢هـ/٨٩٥م توفى خمارويه قتيلا بيد بعض جواسيسه وخلفه ابنه أبوالعساكر جيش وقد غضب عليه قادة الجيش لقتله بعض أعمامه فقاموا له قلعة وإقامة هارون أخاه الأصغر فى مكانه.

وفى هذا الأثناء ظهر على مسرح السياسة خطران يهددان الدولة الطولونية الأولى خطر الفاطميين فى الغرب والثانى خطر القرامطة الاسماعيلية فى الشرق وقد نجح هؤلاء القرامطة فى الاستيلاء على جنوب الشام ومنيت أمامهم الجيوش الطولونية بهزائم فادحة.

وفى عهد الخليفة العباسى المكتفى بالله، أرسل إلى مصر فى عام ٢٩٢هـ جيشا بقيادة محمد بن سليمان المعروف بالكاتب، يدعمه أسطول بحرى

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص٣٩٤-٣٩٥.

(٢) إبراهيم على الدين القلا: تاريخ مصر الإسلامية، صفحات متفرقة.

ونجحت جيوش الخلافة فى دخول القطائع وتدميرها ماعدا مسجد أحمد بن طولون، وبهذا عادت مصر مرة أخرى إلى حظيرة الدولة العباسية. (١)

- الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ / ٩٣٥-٩٦٩م)

تنسب هذه الدولة إلى محمد بن طغج بن جف الإخشيد، وهو من أصل فرغانى من بلاد ما وراء النهر، وتروى المصادر إن جده جف كان ضابطا فى سامرا فى عهد الخليفة العباسى المعتصم، أما والده طغج فكان فى بداية أمره ضابطا فى جيش أحمد بن طولون، ثم قام خمارويه ابن أحمد بن طولون بتعيينه واليا على دمشق.

أما محمد بن طغج فقد ساهم فى قتال الفاطميين عند محاولاتهم المتكررة لغزو مصر، وقد أعجب الخليفة العباسى الراضى بدوره هذا فوضعه على ولاية مصر سنة ٣٢٣هـ. ومنحه ولاية مصر لسنة ٣٢٣هـ... ومنحه لقب الإخشيد، وهو لقب ملوك فرغانة مثلما تقول كسرى الفرس ونجاشى الحبشة وقيصر الروم وفرعون مصر، ويروى أن محمد هذا كان من نسل الملوك الفرغانيين.

بعد أن أصبح محمد بن طغج واليا على مصر وجد أنه من الضرورى تأمين حدوده الشماليه وذلك بفتح الشام، وكان الشام يومئذ يتقاسم حكمه محمد بن رائق فى الجوانب، والحمدانيون أصحاب الموصل فى الشمال وعاصمتهم مدينة حلب.

دار القتال بين محمد بن طغج وابن رائق وتمكن الأخير من الاستيلاء على دمشق وحمص ثم اتجه جنوبا مهددا حدود مصر، غير أن الإخشيد أمام هذا الخطر خرج بنفسه للقاء عدوه والتقى الجيشان عند العريش وكان النصر حليف الإخشيد الذى أرسل أخاه الحسين بن طغج لمطاردة ابن رائق، ولكنه راح ضحية كمين دبر له عند بحيرة طبرية ويقال ان ابن رائق حزن لمقتل الحسين بن طغج فغسله وكفنه وأرسله إلى أخيه فى مصر وبعث مع الجثمان ولده مزاحم

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ١١، ص ١٣٧.

معزياً ومعتزراً عما حدث، ومقدماً إياه فدية للاخشيد، ونتيجة لذلك تم الصلح بين الجانبين وزوج الاخشيد ابنته فاطمة لمزاحم واتفق الطرفان سنة ٢٣٨هـ على أن تكون المناطق التي تقع إلى الشمال من مدينة الرملة - لابن رائق على أن ابن رائق قتل بعد ذلك بايدي الحمدانيين فانتهز محمد الإخشيد الفرصة وتقدم إلى الشام واستولى على ممتلكات ابن رائق، وبدأ الصدام بذلك بينه وبين الدولة الحمدانية فقام سيف الدولة الحمداني بالهجوم على الجيش الاخشيدى بالقرب من أراضى الحمدانيين وأوقع به الهزيمة واستولى نتيجة لذلك على دمشق، فقرر الإخشيدى الخروج بنفسه حيث تمكن من إنزال الهزيمة بسيف الدولة عند قسرين واسترد دمشق كما دخل حلب عاصمة الحمدانيين، ولكننا نجده رغم انتصاره يترك حلب وشمال الشام لسيف الدولة الحمداني.

ويبدو أن ذلك كان نتيجة لأن الاخشيد أدرك أن من يتولى حكم شمال الشام كان عليه أن يقوم بالجهاد ضد الدولة البيزنطية فلذلك آثر أن يترك تلك المنطقة للحمدانيين ويتفرغ هو للخطر الذي كان يهدد مصر من الناحية الغربية وهو خطر الفاطميين كذلك فقد كان الاخشيد قد تقدم في السن في ذلك الوقت ٦٦ سنة وأراد أن يترك لابنائه من بعده دولة تحيا في سلام مع جيرانها، وقد توثقت نتيجة لذلك روابط الصداقة بين الدولتين وخاصة بعد زواج سيف الدولة من ابنة أخى الاخشيدى.

وتوفى محمد الأخشيدى في مشق عام ٣٣٤هـ ودفن ببيت المقدس وكان قد أوصى بالحكم من بعده لابنه أبى القاسم أو توجور، ولما كان هذا الابن طفلاً صغيراً فقد تم وضع كافور وصياً عليه. (١)

– كافور الاخشيدى:

كان كافور عبداً حبشياً أسود اللون، ضخم الجثة، غليظ الشفة مثقوب الشفة السفلى، أفتس الأنف، اشتراه الأخشيد وجعله ضمن خدمه (وكان كافور

(١) عصام الدين عبد الرؤوف: دراسات في تاريخ الدولة العباسية، ص ١٩٥ .

هذا نكيا) طموحا فعكف على العلم وسار فيه وشطا كبيرا حتى أن الاخشيد عينه معلما لولديه، ولذلك أطلق عليه لقب استاذ، كما أسند إليه الاخشيد قيادة بعض جيوشه أثناء الحرب.

وقد اتبع كافور سياسة تهدف إلى تأمين حدود بلاده فحارب الحمدانيين واتفق معهم على أن يكون شمال الشام لهم وجنوبه لمصر كما حارب أهل النوبة بعد أن تكررت غزواتهم على حدود مصر الجنوبية وأجبرهم على دفع الجزية والرقيق، كذلك حارب القرامطة الذين أغاروا على جنوب الشام وهددوا قوافل الحج والتجارة كما تمكن من صد هجمات الفاطميين على حدود مصر الغربية .

وتصف المصادر كافور بأنه كان رجلاً كريماً سخياً معطاءً يحب الموسيقى ويطلب لسماعها مثله في ذلك مثل بقية الزنوج، يحب العلم والعلماء ويمنحهم العطايا والصلوات، ويرحب بمن يقد إلى مملكته منهم ومن الشعراء الذين زاروا مصر في عهده نذكر ابا العيب المتنبى الذى قصده - تاركا بلاط سيف الدولة الحمدانى فى حلب- وأخذ فى مدحه طمعا فى أن يمنحه كافور حكم إحدى الولايات.

غير أن المتنبى لم يتمكن من الوصول إلى مأربه فانقلب على كافور وأخذ ينظم القصائد فى هجائه ومن ذلك تلك التى يقول فى مطلعها:

عبيد بأية حال عدت يا حيد * فيما مضى أم لا موقيث تجديد
إلى أن يقول:

لا تشتري العبد إلا والعصا معه * ان العبيد لا نجاس مناكيد
وقصيدة أخرى فى هجاء كافور جاء فيها:

ومثلك يوتى من بلاد بعيدة * ليضحك ثكلى البيوت البواكيا
ومنها:

وعجبنى رجلاك فى النعل أننى * أراك انعل أن كنت حافيا
ثم هرب المتنبى من مصر خوفا من انتقام كافور.

وفى عام ٣٥٧هـ توفى كافور الاخشيدى فاجتمع كبار رجال الدولة

واختاروا صبيا من أسرة الاخشيد لم يكن عمره يتجاوز الحادية عشرة هو أبو الفوارس أحمد حفيد الاخشيد.

ولما كان هذا الحاكم صغيرا فى السن فقد اضطربت الأحوال فى البلاد وكثر الشعب فى الجند، ولم يفض النيل مما أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية. ولم تكن الخلافة العباسية فى حالة تسمح لها بإرسال الجيوش لاسترجاع مصر إلى حظيرتها. فقد أدى وجود الحمدانيين فى شمال الشام والقرامطة فى جنوبه يحول دون وصول القوات العباسية إلى مصر، كما أن الخلافة فى بغداد كانت فى حالة من الغضب لا تسمح لها بإرسال القوات لذلك.

وهكذا أصبحت الأحوال فى مصر مهياة للغزو الفاطمى فكلف المعز لدين الله الفاطمى قائده جوهر الصقلى بالخروج لفتح مصر وخرج جوهر الصقلى فى ربيع الأول عام ٣٥٨ هـ ٨٦٩ م على رأس جيش فاطمى من القيروان متجها إلى الشرق حتى وصل إلى مصر وتمكن من دخول الفسطاط واسقاط الدولة الإخشيدية، وبذلك أصبحت مصر جزء من الدولة الفاطمية الشيعية، وسرعان ما انتقل الفاطميين إليها واتخذوا من القاهرة عاصمة لدولتهم الجديدة. (١)

* الدول المستقلة فى المشرق الإسلامى :

- الدولة الطاهرية: (٢٠٥-٢٥٩ هـ / ٨٢٠-٨٧٢ م)

تنسب هذه الدولة إلى طاهر بن الحسين، والطاهريين ينتمون إلى أصل فارسى، وكانت لهم مكانه ونفوذ وقوى على خراسان قبل عصر المأمون.

وقد كان طاهر وأحد من كبار قواد المأمون، لعب هو وابنه عبدالله دورا خطيرا فى النزاع الذى دب بين الأمين والمأمون فعأونا المأمون معأونه صادقة حتى تم له الانتصار على أخيه، واعترف المأمون لهما بهذا الجميل فقام بتعيين طاهر واليا على الجزيرة ورئيسا لشرطة بغداد، ولم يرضى طاهر بهذا التعيين، فقد كان يطمع فى توليه ولاية خراسان، وقد تمكن فى النهاية من تحقيق مسعاه

(١) عصام الدين عبد الرؤوف: دراسات فى تاريخ الدولة العباسية، ص ١٩٥-١٩٦ .

بمساعدة الوزير أحمد بن أبي خالد حيث اتخذ من نيسابور عاصمة لدولته، ولكنه قام بعد توليه بقطع الخطبة للخليفة العباس، معلنا استقلاله عن سلطانه في بغداد، غير أنه مات فجأة في نفس العام (٢٠٧هـ) وقيل أن المأمون كان وراء هذا الموت المفاجيء ولكننا نجد أن المأمون يقوم بتعيين طلحة بن طاهر في مكان أبيه، وتذكر المصادر أنه أقدم على ذلك مدفوعا بعاملين أولهما أنه ربما أراد أن يقضى على الشكوك التي حامت حول دوره في موت طاهر المفاجيء، وثانيهما أنه ربما اضطر إلى ذلك لأن بنى طاهر كانوا يتمتعون بنفوذ قوى في خراسان، فلم يتمكن المأمون من وضع وال آخر من غير الأسرة الطاهرية.

وقد أصبح الحكم وراثيا في تلك الدولة إذ بعد وفاة طلحة خلفه أخوه عبدالله بموافقة المأمون كذلك، وقد وصلت الأسرة في عهد عبدالله هذا إلى أوج قوتها ونفوذها. حتى أن الخليفة المعتصم لم يكن راضيا على عبدالله ولكنه لم يجرؤ على عزله، وإنما لجأ إلى المؤامرات السرية للقضاء عليه وقد كشف عبدالله سر هذه المؤامرات فلم يعلن العصيان ولم يقم بالانفصال التام عن الدولة العباسية، وذلك لأنه شعر أنه ما دام مقيما في وطنه بين أهله وذويه فهو في مأمن من مؤامرات العباسيين. (١)

وقد حاول الخليفة العباسي الواصل أن يعين واليا على خراسان بعد وفاة عبدالله من غير الأسرة الطاهرة، ولكنه لم يتمكن من ذلك واضطر إلى الموافقة على تولية طاهر بن عبدالله ثم محمد بن طاهر، الذي كان آخر من تولى الحكم من هذا البيت، إذ خلفه على حكم خراسان يعقوب ابن الليث الصفار (في سنة ٢٥٩هـ) مؤسس الدولة الصفارية. وقد كان الطاهريون حكاما مصلحين اهتموا بأحوال الشعب في خراسان وعملوا على إصلاح الزراعة ونشر التعليم، ورفع الظلم عن كاهل الطبقات الدنيا، حتى أنه يؤثر عن عبدالله بن طاهر أنه أوصى عماله

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص ٧٧-٧٩.

بمراعاة الفلاحين ومصالحهم وقال لهم أن الله يطعمنا بأيديهم ويرحمنا بدعائهم ويمنع الاساءة إليهم .

ولم يكن استقلال الدولة الطاهرية عن بغداد استقلالا تاما، ولكنه كان استقلالا ذاتيا، فظلوا يدينون بالولاء للخليفة العباسي ويخطبون باسمه ويرسلون إليه الأموال السنوية وقدموا للعباسيين مساعدات عظيمة لإخماد بعض القوات، فعلى سبيل المثال نجد أنه في عهد الخليفة المعتصم ثار في خراسان محمد بن القاسم العلوي، فقام عبدالله بن طاهر بقتاله وأسره وبعث به إلى المعتصم كذلك فقد ثار في عهد المعتصم أيضا المازيار بن قارن في طبرستان، فقام عبدالله بن طاهر كذلك بتقديم المعونة لجند الخليفة لإخماد ثورتهم، وقد قدر العباسيون للطاهريين ذلك، فعاونوهم في نزاعهم ضد الصفاريين كما أبقوا شرطة بغداد في أيديهم إلى سنة ٣٠١هـ.

- الدولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٠هـ/٨٦٧-٦٠٣م)

انتشر مذهب الخوارج في ولاية سجستان وكانت تحت حكم الدولة الطاهرية، واشتد بأسهم إلى الدرجة التي عجز معها الطاهريون عن اخضاعهم، فكونت فرق من المتطوعة على رأسهم صالح بن أنضر الكنانى السجستاني لقتال هؤلاء الخوارج، وكان من بين قادته يعقوب ابن الليث الصفار الذى قام بتأسيس الأسرة الصفارية، وقد عرف يعقوب باسم الصفار لأنه بدأ حياته صانعا للصفير أى النحاس بأجر متواضع قدره ١٥ درهما في الشهر.

ولما توفى صالح بن النضر تولى قيادة المتطوعة درهم بن الحسين وظل يعقوب إلى جانبه يعاونه في حروبه ضد الخوارج، وقد ازداد نفوذ هؤلاء المتطوعة في سجستان حتى اضطروا إليها أن يتخلى عن منصبه فتولاهم درهم بن الحسين، ولما كانت شخصية يعقوب أقوى من درهم فقد أعجب به الجند واختاره زعيما لهم، ولم يبد درهم أى معارضة بل انسحب تاركا الأمر ليعقوب الذى أصبح زعيما للجند وواليا لسجستان، وقد تمكن من إخضاع الخوارج ونشر السلام والأمن في ربوع البلاد، كما نجح في أن يمد نفوذه إلى ما يجاوره من الأقاليم، ثم

بعث إلى الخليفة العباس بهدية وعمل على تحسين علاقته بالدولة العباسية حتى يتمكن من توطيد أركان دولته.

ثم ازدادت مطامع يعقوب فبدأ يفكر في ضم فارس إليه، فبعث إلى الخليفة العباسي يطلب منه أن يعهد بولايتها إليه، وفي تلك الفترة طلب علي بن الحسين أحد عمال بني طاهر من الخليفة أن يوليه علي كرمان، وفكر الخليفة أن يضرب الرجلان كل منهما الآخر فأصدر أمره بتولي كل منهما علي كرمان، وتمكن يعقوب بن الليث من الحاق الهزيمة بعدوه وأسره ودخل شيراز وصلّى بها الجمعة ودعى للخليفة العباسي المعترف في عام ٢٥٦هـ.

وواصل يعقوب العمل على توسيع رقعة ملكه، ثم شجعه ضعف حكام خراسان من الطاهريين على التفكير في التقدم لفتحها مدعياً أن محمد ابن طاهر قد أوى أحد أتباعه الهاربين وتمكن يعقوب بالفعل من دخول نيسابور عاصمة الدولة الطاهرية، عام ٢٥٩هـ في عهد الخليفة العباسي المعتمد، وقام بأسر محمد بن طاهر وبهذا سقطت الدولة الطاهرية وأصبح يعقوب يحكم خراسان وسجستان وكرمان وفارس. (١)

وبعث يعقوب إلى الخليفة العباسي يطلب منه اصدار تقليد بالولاء لحكم هذه المناطق ولم يوافق الخليفة على هذا الطلب، بل أمره بالانصراف عن خراسان والعودة إلى ولايته ولكن يعقوب تحدى أوامر الخليفة ولم يذعن لأوامره بل وتقدم بجيوشه إلى طبرستان بغية توسيع ممتلكاته، واشتبك واليها الحسن بن يزيد في عدد من المواقع وانتصر عليه وإن كان لم يتمكن من اتمام فتح هذا الإقليم بسبب الظروف الجوية ووعرة الطريق هناك.

وفي سنة ٢٦٠هـ أعلن الخليفة العباسي المعتمد أن يعقوب معتصب وخارج عن طاعة الخلافة فأعلن يعقوب الثورة وتحدى الخليفة وتقدم بجيوشه نحو الأهواز وأدت تلك الأحداث إلى اضطراب الخليفة فأعلن موافقته على تولية

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج٣، ص ٢١٠-٢١١.

يعقوب على خراسان وطبرستان وكرمان والرى وفاس وشرطة بغداد، ولم يقطع يعقوب بهذا بل استمر في ثورته على الخليفة وأعلن أنه سيستمر في تقدمه نحو العراق.

إزاء هذا لم يجد الخليفة بدا من الخروج بنفسه للقتال وصحب معه أخاه محمد الموفق كقائد للجيش. وعندما التقى الطرفان ورأى جنود يعقوب المعتمد، تركوا صاحبهم وانضموا إليه فدارت الهزيمة على يعقوب في سنة ٢٦٢هـ وارتد إلى نيسابور وتوفى يعقوب بعد ٢٦٢هـ/٨٧٨م تاركا الأمر لأخيه عمر بن الليث. من هذا نرى أن يعقوب كان يحرص على أن تكون علاقته بالخلافة العباسية علاقة طيبة، ثم ساءت تلك العلاقة في أواخر عهده إلى حد بعيد وتذكر المصادر أن الخليفة العباسي بعث إلى يعقوب بعد أن ألحق به الهزيمة برسول يسترضيه ويقلده حكم فارس وأعمالها فلما أبلغه رسالة الخليفة، أمر يعقوب بإحضار سيف ورغيف ويصل، ثم أمر باستدعاء الرسول، فلما حضر جلس له وقال: قل للخليفة أني عليل فإن مت فقد استرحت منك واسترحت مني، وإن عوفيت فليس بيني وبينك إلا هذا السيف حتى أخذ بثأري أو تكسر بي فتفقرني، فأعود إلى هذا الخبز وألبصل، وعاد الرسول وأبلغ هذا القول إلى المعتمد، ولكن القدر لم يمهل يعقوب إذ توفى بعد ذلك بقليل وخلفه كما ذكرنا أخاه عمرو بن الليث. (١)

عمل عمرو بن الليث على تحسين علاقاته بالخليفة قاصد الأخير تقليدا بتوليته على خراسان وفارس وسجستان وكرمان والسند وتعيينه حاكما عسكريا لبغداد وسامراء.

ثم ساءت العلاقات بينه وبين الخليفة، فقد أيدى الموفق ولي العهد رغبته في استرداد فارس ورفض هذا الطلب، فجمع الخليفة المعتمد في سنة ٢٧١هـ / ٨٨٥م حجاج خراسان. وقرأ عليهم كتابا يعزل عمرو من ولايته كما

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٣، ص ٢١٠-٢١١.

أصدر أوامره بلعنه على المنابر، وتقدم الموفق بعد ذلك بسنتين بجيوشه لقتال عمرو وتمكن من هزيمته وفتح فارس وإن كان قد عاد ووافق على توليته على كل ولاياته فى سنة ٢٧٥هـ/٨٨٩م، ولما ولى المعتضد الخلافة سنة ٢٧٩هـ اعترف بولاية عمرو وبعث إليه بتقليد يفيد هذا .

اتجه نظر عمرو بعد ذلك إلى فتح إقليم ما وراء النهر وكان يحكم هذا الإقليم فى ذلك الوقت السامانيون، وكانوا على درجة كبيرة من القوة وأرسل عمر إلى الخليفة يطلب منه أن يساعده على تملك هذا الإقليم وهنا حانت الفرصة التى كانت الخلافة فى انتظارها كى تضرب الصفاريين بالسامانيين فأسرع الخليفة بالموافقة وأصدر كتابا بعزل إسماعيل بن أحمد السمانى عن بلاد ما وراء النهر وتولية عمرو بن الليث مكانه، ثم بعث إلى عمرو فى نيسابور برسول يحمل إليه الهدايا ومعها التقليد بتوليته فلما وضع التقليد فى يد عمرو سأل: ما هذا ؟ فقال الرسول: هذا ما سألته. فقال عمرو : وماذا أصنع به؟ فإن إسماعيل بن أحمد لا يسلم إلى ذلك إلا مائة ألف سيف فقال الرسول : أنت سألته، فسر الآن لتتولى العمل فى ناحيته. (١)

وخرج عمرو بجيشه فى سنة ٢٨٧هـ ليحقق هدفه فى الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر ولكنه هزم هزيمة شنعاء ووقع أسيراً فى يد أعدائه الذين أرسلوه إلى بغداد حيث قتل هناك.

من هذا نرى أن الصفاريين كانوا يتأرجحون فى علاقتهم بالخلافة بين الثورة والولاء وإن كانوا فى الحقيقة يمثلون النزعة الفارسية الاستقلالية فيعقوب بن الليث كان أول وال ذكر اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة.

وكان أول وال نقش أسسه على السكة كذلك لم تواظب الدولة الصفارية على دفع الأموال السنوية للخلافة، وبهذه المظاهر الثلاث كانوا أول من عمل على الحد من سلطان الخلافة فى بلاد فارس.

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص٢٨٨، ٢٩٠-٢٩٢، ٣٢٥-٣٢٦.

- الدولة السامانية (٢٦١-٢٨٩هـ / ٨٧٤-٩٩٩م)

السامانيون أسرة فارسية نبيلة من مدينة بلخ، كانوا يدينون أصلاً بالزرادشتية ثم أسلم جدهم سلمان على يد الوالى الأموى أسد بن عبدالله القسرى، وسمى ابنه أسداً تيمناً باسم الوالى.

وكان لأسد أربعة أبناء عينهم والى خراسان تلبية لرغبة الخليفة المأمون على بعض الولايات، وبذلك بدأ سلطانهم فى بلاد ما وراء النهر، ولما اضطرت الأمور فى مدينة بخارى استنجد أهلها بالأمير نصرالسمانى فأجاب دعوتهم، وأرسل إليهم أخاه إسماعيل وعينه واليا عليها، ثم أصدر الخليفة المعتمد تقليده بتولية نصر بن أحمد السامانى على جميع بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١هـ / ٨٧٤م، فكان هذا بداية الدولة السامانية التى اتخذت من مدينة بخارى عاصمة لها. (١)

وقد أوصى الأمير نصر قبل وفاته أن يخلفه إسماعيل على هذه الولاية ووافق الخليفة على ذلك وقد اتسع ملك السامانيين فى عهد إسماعيل فضم إليه إقليم أشروسنة، وبعد انتصاره على عمرو بن الليث ضم إليه خراسان، ثم استولى بعد ذلك على طبرستان وعلى الرغم أنه لم يصل بعد نصر وإسماعيل شخصية قوية فقد ظلت الولاية وراثية فى البيت السامانى نحو مائة سنة أخرى ثم بدأ الضعف يهاجم تلك الأسرة لعدة أسباب منها شغف أمراء الأسرة أنفسهم واستبداد القواد والجنود الأتراك وكثرة ثورات أنفسهم كما بدأت تظهر قوى جديدة على حدود الولاية وأخذت تهاجمها وتستولى على أملاكها.

وقد عاشت الدولة السامانية ما يقرب من مائة وسبعين عاماً ثم قضى عليها على يد الغزنويين من جهة خراسان والترك القرخانية من جهة ما وراء النهر وذلك فى سنة ٣٨٩هـ / ٩٩٩م.

(١) المسعودى: مروج الذهب، ج٤، ص١٦٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص٤٧٧.

أما عن علاقة السامانيين بالخلافة العباسية فلن تكن ولاء تاما ولذلك نجد أنهم لم يواظبوا على دفع الجزية للخلافة وخاصة بعد انتصارهم على عمرو بن الليث الصفارى، كذلك فقد سمح لهم الخليفة يذكر أسمائهم فى الخطبة بعد اسمه وضرب هذا الاسم إلى جانب اسم الخليفة على السكة ولما كان السامانيون يدينون بالذهب السنى فقد حرصوا دائما على استصدار العهود الخلافية بتوليتهم، كما دأبوا على مطاردة أتباع المذاهب غير المستقيمة.

ويمثل حكم السامانيون بدء النهضة الفارسية الفعلية فقد كانت اللغة الفارسية هى اللغة الرسمية فعهد معظم أمرائهم كما عملوا على ترجمة أمهات الكتب العربية إلى الفارسية، بل لقد أفتى بعض العلماء فى عهدهم بجواز الصلاة باللغة الفارسية.

وقد قام السامانيون بتشجيع العلم والأدب حتى أمتاز عصرهم بنهضة علمية وأدبية رائعة وغدت بخارى عاصمتهم مركزاً من أهم المراكز العلمية الإسلامية بل أنها أخذت تنافس بغداد عاصمة الخلافة العباسية نفسها ولنا الأمثلة على تقدم الحكومة العباسية فى عهدهم تقدماً كبيراً فابن النديم يذكر فى كتابه "الفهرست" أن الطبيب الشهير أبابكر محمد بن زكريا كان صديقا للأمير منصور بن إسماعيل السامانى، وأنه ألف كتابه، المنصورى فى الطب" كذلك يذكر ابن خلكان أن الأمير نوح بن نصر السامانى دعا الطبيب الفيلسوف ابن سينا لعلاج، وأن ابن سينا أقام مدة فى بخارى وكان يتردد على دار الكتب بها.

كما أنه قد بدأت النهضة الحديثة للغة الفارسية وآدابها فى عهد السامانيين ففى بلاطهم ظهر الشاعر الفارسى الكبير "الرودكى أول شاعر فارسى عظيم بعد الإسلام، والشاعر "الدقيقى" الذى نظم لنوح بن نصر السامانى منظومة كبيرة من تاريخ الفرس فى عهودهم الأولى، ولم يدم منها إلا ألف بيت ثم أتى بعده "الفردوسى" فأكمل ما بدأه الدقيقى ووضع ملحمة الشعرية الشهيرة "الشاه نامه" التى يعتبرها الإيرانيون اليوم من مفاخرهم الأدبية، وهى تروى لنا أخبار ملوك الفرس القدماء وفى عهد المنصور ترجم وزيره محمد بن عبدالله ألبلعمي

تاريخ الطبرى إلى اللغة الفارسية سنة ٣٥٢هـ بعد أن قام بحذف الكثير من التفاصيل المملة من الكتاب.

كذلك امتاز العصر السامانى بنهضة فنية رائعة فى العمارة وفى الفنون الأخرى المختلفة ويعتبر مشهد إسماعيل الذى بناه إسماعيل الثانى بن أحمد ثانى أمرائهم فى مدينة بخارى من أجمل المصائر الإسلامية من الناحية الفنية . إلى جانب ذلك تقدمت صناعة الخزف فى بلاد ما وراء النهر على أيام السامانيين وكانت مدينة طشقند تنتج أنواعا أخرى من الخزف الذى يمتاز بالبساطة وجمال الألوان وزخرفة الفنية. (١)

واشتهرت مدينة بخارى بإنتاج المنسوجات الحريرية الجميلة المتقنة ذات الرسوم الحيوانية الجميلة كما عرفت سمرقند بصناعة الورق الذى عرفه المسلمون عن الصين ومن سمرقند انتشرت الصناعة إلى بقية أنحاء العالم الإسلامى. (٢)

- الدولة الغزنوية (٣٥١-٥٨٢هـ/٩٦٣-١١٣٦م)

يرجع تأسيس هذه الدولة على أحد ممالك السامانيين الذين تمكنوا من الوصول إلى مرتبة الأمراء، وهو الأمير ألبتكين وقد ولاه السامانيون على خراسان ثم على ولاية غزنة وقد استطاع ألبتكين أن يقيم بمساعدة مإليكه من الأتراك دولة مستقلة من السامانيين هى الدولة الغزنوية وبعد وفاته سنة ٩٧٧/٣٦٧م خلفه مملوكه ناصر الدين سبكتكين الذى أظهر الولاه للسامانيين مما جعلهم يستعينون به على إخماد بعض الثورات. (٣)

وعندما آل الأمر إلى محمود بن سبكتكين قام بإلقاء اسم الأمير السامانى من الخطبة وخطب للخليفة العباسى القادر بالله (٣٨١-٤٢٢هـ/ ٩٩١-١٠٣٠م) فأنعم عليه بلقب يمين الدولة وأمين الملة وقد استطاع هذا السلطان

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج ٣، ص ٨٥.

(٢) العتبي: تاريخ البمينى، ج ١، ص ١٨١.

(٣) جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٩.

أن يقوم بغزو الهند اثنتى عشرة مرة وأن يبسط نفوذه إلى ما وراء كشمير والمنجاب التى جعل منها ولاية إسلامية عاصمتها لاهور.

وعلى الرغم من أن الغزنويين كانوا من الأتراك إلا أن الثقافة الفارسية قد انتشرت فى عهدهم وتقدمت العلوم والفنون والآداب فى هذا العصر وظهر عددا من الأدباء والشعراء والكتاب فى الدولة الغزنوية نذكر منهم العالم المؤرخ أبا الريحان البيرونى والخوارزمى الذى ألفَ العديد من الكتب مثل كتاب (الآثار الباقية من القرون الخالية) وهو كتاب فى التاريخ تحدث فيه عن الطوائف والجماعات والشعوب القديمة وكذلك المؤرخ أبوالفضل محمد بن حسين ألبيهقى الذى كتب كتاب (تاريخ ألبيهقى) وهو تاريخ السلطان محمود الغزنوى وولده السلطان مسعود. (١)

وكذلك المؤرخ أبونصر العتبى الذى وضع كتاب (تاريخ اليمنى) عن حياة محمود الغزنوى وجهاده (اليمنى نسبة إلى لقبه يمنى الدولة).
وقد سقطت الدولة الغزنوية على يد الأتراك السلاجقة والغوريين (نسبة إلى جبال الغوريين بين غزنة وهرارة). (٢)

(١) أحمد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية، ج ٨، ص ٨٦.

(٢) نظام الملك: سياسة ناماه، ص ١٢٥.

العلاقة بين الخلفاء العباسيين وسلطين السلاجقة

- عصر نفوذ الأتراك ٢٣٢-٣٣٤هـ / ٨٤٧-٩٤٥م:

رغم أن نفوذ الأتراك ظهر- كما رأينا- منذ عصر المعتصم فإن استبدالهم بالأمر لم يظهر إلا بعد وفاة الواثق. وقد تمت بيعة جعفر المتوكل بن المعتصم بأرادة أحد زعمائهم البارزين وهو "وصيف" بعد أن كادت البيعة تتم لمحمد بن الواثق وكان غلاما.

يقول أحد الشعراء:

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا

يقول ماقلأ له كما تقول البيغا

ولم يكن المتوكل بالخليفة المستضعف فحاول غير مرة أن يضع حد لطغيان الأتراك؛ فقد دبر مقتل إيتاخ بعد أن وصل نفوذه مدى لا يمكن قبوله. والملاحظ أن إيتاخ كان أثيرا لدى المعتصم والواثق. يقول الطبرى (ج٩ ص١٦٦): "كان لإيتاخ رُجْلَةٌ وبأسٌ فرفعه المعتصم ومن بعده الواثق حتى ضم إليه من أعمال السلطنة أمالا كثيرة.. وكان من أراد المعتصم والواثق قتله فعند إيتاخ يقتل وييده يحبس".^(١)

وقد استفحل نفوذ إيتاخ فى خلافة المتوكل حتى إنه هم يوما بقتل الخليفة حين تبسط الأخير معه فى المزاح. وحين أدرك المتوكل خطورة إيتاخ دبر خطة ناجحة للتخلص منه فى سنة ٢٣٥هـ / ٨٤٩م ولكن القضاء على إيتاخ لم يضع نهاية لتسلط غيره من الأتراك؛ ومن هنا أراد المتوكل فى أواخر خلافته أن يوجه إليهم ضربة قاصمة، فعزم على قتل "وصيف بُغَا" وغيرهما من قادة الأتراك ووجوههم، ولكن الأتراك كانوا أسرع منه فاستغلوا جفوة كانت بينه وبين ابنه وولى عهده محمد المنتصر، فأشركوا المنتصر معهم فى مؤامرة انتهت بقتل

(١) المسعودى: مروج الذهب، ج٤، ص٦٠.

المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان فى شوال سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م، ثم نصبوا المنتصر خليفة.

وهكذا نجح الأتراك فى الإطاحة بخليفة وتتويج خليفة. وكان هذا حادثا له ما بعده؛ فقد أصبح مثل هذا التصرف أمرا مألوفا منهم إبان فترة سطوتهم. ولم تطل خلافة المنتصر؛ فقد توفى فى ربيع الأول سنة ٢٤٨هـ / ٨٦٢م عن خمسة وعشرين عاما تقريبا. وكان من الطبيعى أن يجتمع الأتراك ليختاروا من يشاءون للخلافة فاجتمعوا بزعامة بعا الصغير وبعا الكبير واختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم الملقب بالمستعين، وكان فى الثامنة والعشرين من عمره. ولكن بعد مضى وقت غير طويل غضب بعض قادة الأتراك على المستعين فبايعوا المعتز محمد بن المتوكل بالخلافة، واشتعلت بين أنصار المستعين وأنصار المعتز حرب انتهت بسجن المستعين ثم بقتله فى سجنه. وقد كانت بيعة المعتز وخلع المستعين فى المحرم سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٧م يقول ابن الطقطقى عند تناوله لسيرة المعتز: "لم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس، إلا أن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء؛ فكان الخليفة فى يدهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه وإن شاءوا قتلوه"^(١) وقد حدث أن طلب الأتراك من المعتز مالا فاعتذر لهم بفرغ بيت المال فثاروا به وضربوه ومزقوا ملابسه وأقاموه فى الشمس، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى من شدة الحر، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده ثم سجنوه فى سرداب حتى مات، وكان ذلك فى شعبان سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م.

وقد كان أهم تطور حدث فى نهاية خلافة المعتز هو بداية قيام الدولة الصفارية فى فارس بزعامة يعقوب بن الليث الصفار، قد كانت هذه الدولة تدين اسميا للخلافة وإن كانت مستقلة من الناحية العملية: وقد امتد سلطانها إلى خراسان فى بعض مراحلها (فى أيام المعتمد) ونجحت فى عزل الطاهرين عنها.

(١) الفخرى، ص ٢٢٠.

ورغم ضعف هذه الدولة بعد وفاة مؤسسها يعقوب في سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م فإنها استمرت بعده حتى سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م^(١).

وفي عهد المعتز أيضا (في سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م) ذهب أحمد بن طولون إلى مصر نائباً عن واليها، ولكنه استطاع في فترة لأحقّة أن يستقل بها عن العباسيين وأن يضم الشام إلى سلطانه. وبذلك قامت الأسرة الطولونية واستمرت حتى ٢٩٢هـ/٩٠٤م حيث سقطت في خلافة المكتفي العباسي.

وبعد خلع المعتز بايع الأتراك المهتدي بالله محمد بن الواثق خليفة للمسلمين. وقد كان المهتدي تقيا شجاعا حليماً، وكان يتخذ من عمر بن عبد العزيز مثله الأعلى ويقول: "إنى أستحيى أن يكون في بنى أمية مثله ولا يكون مثله في بنى العباس" ولهذا نبذ الملاحى وحرّم الغناء والخمر وحارب الظلم، وفوق ذلك فقد أراد أن يوقف طغيان الأتراك واستبدادهم فقتل بعضهم ولكنهم ثاروا عليه وأسروه وعذبوه ليخلع نفسه فأبى، فخلعوه هم وسجنوه ومات في سجنه من التعذيب، وكان ذلك في رجب سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩م.^(٢)

وقد كان أهم ما شهده عصر المهتدي من أحداث هو بداية ثورة الزنج التي اندلعت في البصرة ونواحيها سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م. وقد سميت هذه الثورة بثورة الزنج لأن عددا كبيرا من المشتركين فيها كانوا من العبيد السود، رغم أنها ضمت عناصر أخرى. وقد تزعم هذه الثورة رجل يقال له على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين على بن أبطالب، رغم ما يحيط بصحة هذا النسب من شكوك. وقد انتشر الزنج في العراق والبحرين وهجروا وعاثوا فساد في تلك المناطق وروعوا الآمنين، واستمرت ثورتهم خمسة عشر عاما حتى استطاع القائد العباسي "الموفق طلحة بن المتوكل أن يبدد جموعهم ويخمد ثورتهم سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م في خلافة المعتمد.

^(١) حول هذه الدولة انظر: الخلافة والدولة في العصر العباسي للدكتور محمد حلمي أحمد، ص ١٣١-١٤٦.

^(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، ج ١٢، صفحات متفرقة ؛ ابن الأثير: الكامل ، ج ٧، ص ٤٧.

وقد بويع المعتمد على الله أحمد بن المتوكل بالخلافة فى سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م بعد خلع المهتدى، وبيعة المعتمد بدأ صحوة مؤقتة فى تاريخ الخلافة فى ذلك العصر .

* صحوة الخلافة العباسية (٢٥٦ - ٢٨٩هـ / ٩٦٦ - ٩٩٨م)

أدى تصاعد النزاع الداخلى بين قادة الأتراك ثم سوء معاملتهم لجنودهم وازدياد شكوى الجمهور من مضايقاتهم - أدى كل ذلك إلى خلق اتجاه قوى داخل الجيش يدور حول جعل القيادة العسكرية العليا فى يد أحد أمراء البيت العباسى ممن يختارهم الخليفة ويدي له الجميع بالطاعة. وقد أمكن تنفيذ هذا المطلب فى بداية عهد المعتمد سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م فكان هذا سببا بارزا من أسباب صحوة الخلافة. على أن هناك سببا آخر يتمثل فى شخصية القائد الذى اختاره المعتمد لتولى هذه المهمة، أى قيادة الجيش، وذلك القائد هو الموفق أو أحمد طلحة أخو الخليفة المعتمد؛ فقد كان الموفق شخصية تتمتع بالحزم والقوة وصلابة الإرادة. وهكذا وجد المنصب الخطير شخصية جديرة بأن تملأه، فاستردت الخلافة قوتها وهيبتها، واستطاع الموفق أن يكبح جماح الأتراك وأن يعيد تنظيم الجيش وأن يقرأ الأمن والنظام. ورغم أن المعتمد كان الخليفة الرسمى فقد كان الموفق صاحب السلطة الفعلية وهو الذى بيده العقد والحل. يقول ابن الطقطقى: "وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع. كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة : للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بإمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقيادة العسكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء"^(١) وقد كان أخطر وأهم انجاز للموفق هو قضاؤه على ثورة الزنج فى سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٣م كما سبق أن ذكرنا.

وتوفى الموفق فى صفر سنة ٢٧٨هـ / ٨٩١م وفى العام التالى (رجب ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) توفى الخليفة المعتمد، وبويع بعده بالخلافة أبو العباس المعتضد

(١) الفخرى، ص ٢٢٦.

بالله بن الموفق. وقد ورث المعتضد من أبيه الموفق قوة الشخصية، فاستمرت الخلافة في عهده موفورة الهيبة مسموعة الكلمة كما كانت في عهد أبيه وعمه المعتمد، ولقب بالسفاح الثاني، وفي ذلك يقول ابن الورمي:

هنيئاً بنى العباس إن أمامكم
 إمام الهدى والباس والجود أحمد
 كما بأبي العباس أنشئ ملككم
 كذا بأبي العباس أيضاً يجدد
 إمام بظل الأمس يمل نحوه
 بلهف ملهوف ويشاقه الغد

وبوفاة المعتضد في ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م انتهت الفترة التي اصطلح على تسميتها باسم "صحوه الخلافة" حيث تولى بعده ابنه المكتفى ولم تكن له شخصية والده أو جده فكانت خلافته تمهيد لعودة الأمور إلى ما كانت عليه.

وقد كان من أخطر الأحداث التي شهدتها فترة صحوه الخلافة ظهور القرامطة. وقد بدا ظهور هذه الجماعة بسواد الكوفة في سنة ٢٧٨هـ/٨٩١م بزعامه رجل اسمه حمدان ويلقب بـ قرمط" ثم اشتدت شوكة القرامطة بظهور رجل آخر منه يعرف بأبي سعيد الجنابي بالبحرين في سنة ٢٨٦هـ/٨٦٩م. وقد تظاهر قادة القرامطة بالزهد والتقشف وبال دعوة إلى إمام من آل البيت، ولذا انضم إليهم الكثيرون من سواد الكوفة والبحرين نظرا لتشجيع تلك المناطق. ولكن رغم أن حركة القرامطة كانت تظهر مبادئ براقة لاجتذاب الأنصار فقد كانت حركة تهدف إلى هدم كيان المجتمع الإسلامي. وهي تمت ببعض الوشائج إلى حركات كحركة الخرمية أو الزنج، رغم أن حركة القرامطة كانت أكثر تعقيدا وخطرا وامتدادا في اعماق التاريخ. وهي تختلط أحيانا بالحركة الاسماعيلية، ويطلق عليها أحيانا حركة الحشاشيين. وقد أعيت العباسيين، وحقق الفاطميون ضدها انتصارات

هامية. والحديث التفصيلي عن هذه الحركة الأخيرة في التاريخ الإسلامي يخرج بنا عما نحن بصدده.

قلنا إن خلافة المكتفى سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م أنهت الصحوة المؤقتة للخلافة، ورغم أن المكتفى لم يقل ولم يخلع بل توفى وفاة طبيعية في ذى القعدة سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م ورغم أنه كان يتحلى بكثير من الصفات الإيجابية فإن سيطرته على مقاليد الأمور كانت أقل من سيطرة سلفية العظميين. وقد ازدادت الأمور تدهورا بعد وفاته؛ فقد تولى جعفر بن المعتضد الخلافة وهو صبي في الثالثة عشرة من عمره ولقب بالمقتدر بالله وكان طبيعيا أن تصبح الخلافة نهبا للطامعين والخليفة لم يبلغ الخُلم.. يقول ابن الطقطقي: "واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخطيط كثير لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه؛ فكانت دولته تدور أموره على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذته فخريت الدنيا في أيامه وختلت بيوت الأموال واختلفت الكلمة فخلع ثم أعيد ثم قُتل^(١) وقد كان من أهم الأحداث التي شهدتها عصر المقتدر ظهور الفاطميين في المغرب في أواخر القرن الثالث الهجري حيث قضوا على دولة الأغالبة في تونس واستولوا على مدينتهم القيروان في ٢٩٦هـ/٩٠٨م وسوف تتسع الدولة الفاطمية فيما بعد وتستولى على مصر سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م وقد استطاع الحمدانيون أيضا أن يستقلوا بالموصل في عهد المقتدر (سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م)، ثم استولوا بعد عهده (في سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م) على حلب تحت زعامة سيف الدولة الحمداني.

يتضح من هذه الإشارات الخاطفة مدى تقلص نفوذ الخلافة في عهد المقتدر؛ ذلك أن الخليفة فقد سيطرته حتى على أجزاء هامة من العراق كالموصل حيث الحمدانيون، والكوفة حيث القرامطة، هذا فضلا عن انعدام سيطرته تماما على أجزاء عريضة في الشرق والغرب وقد قتل المقتدر في شوال سنة ٣٢٠هـ في معركة بينه وبين قائده مؤنس الخادم.

(١) الفخرى: ص ٢٣٦.

وفى الفترة التي تلي مقتل المقتدر حتى بداية ظهور البويهيين فى العراق
 اعتلى العرش أربعة خلفاء هم القاهر (٣٢٠-٣٢٢هـ / ٩٣٢-٩٣٣م)، والراضى
 (٣٢٢-٣٢٩هـ / ٩٣٣-٩٤٠م) والمتقى (٣٢٩-٣٣٣هـ / ٩٤٠-٩٤٤م)
 والمستكفى (٣٣٣-٣٣٤هـ / ٩٤٤-٩٤٥م) ولم يكن لهؤلاء الخلفاء حول ولا
 قوة؛ فانتشرت فى أيامهم الفوضى والاضطرابات والدسائس، واشتد الصراع على
 كرسى الوزارة، وبرز فى هذه الحلبة رجال من أمثال ابن الفرات وابن مقلّة وعلى
 بن عيسى وغيرهم، وكثرت المصادرات فانعدم الإحساس بالطمأنينة والأمن،
 واستغل بعض الولاة هذه الظروف فرفضوا إرسال الأموال إلى العاصمة، ومن
 هؤلاء محمد بن رائق والى البصرة، والبريدى والى الأهواز، وأسس الإخشيدون
 دولة بمصر سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٥م، كما استولى البويهيون على فارس. وفى ظل
 هذه الظروف المضطربة نشأ منصب:

أمير الأمراء: وترجع نشأة هذا المنصب إلى عهد الراضى؛ فقد عهد هذا الخليفة
 إلى ابن رائق برئاسة الجيش والإشراف على شئون الخراج وفى نفس الوقت خلع
 عليه لقب "أمير الأمراء" أى أنه فوض إليه تدبير المملكة. وهكذا أصبح الخليفة
 بدون سلطان حقيقى حيث تولى المسئولية عنه أمير الأمراء الذى تركزت فى يده
 السلطة وآل إليه الأمر والنهى. فليس من المستغرب إذن أن تشرئب إلى هذا
 المنصب الخطير أعناق كبار رجال الدولة وقادتها وأن يتقاتلوا من أجله، فازدادت
 الأحوال بذلك اضطراباً وتدهوراً واستمرت على ذا النحو فى عهد المتقى الذى
 خلف الراضى، ثم فى عهد المستكفى، وكان هذا الوضع وراء ظهور النفوذ
 البويهى فى بغداد سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م.

- عصر نفوذ البويهيين ٣٣٤-٤٤٧هـ / ٩٤٥-١٠٥٥م:

ينسب بنو بويه أو البويهيون إلى رأس الأسرة أبى شجاع بويه الذى نشأ
 فى بلاد الديلم. وتقع تلك البلاد فى الجنوب الغربى لبحر قزوين أو بحر الخزر
 بين منطقة طبرستان والجبال. وقد نشأ بويه هذا فقيراً وكان له ثلاثة أولاد هم

أحمد وعلى والحسن الذين لقبوا فيما بعد بمعز الدولة وعماد الدولة وركن الدولة على الترتيب.

والتحق هؤلاء الإخوة الثلاثة بجيش "ما كان بن كالى" أحد قادة العلويين ببلاد الديلم؛ فقد كانت الجندية فى ذلك الوقت موردا للرزق ولم يلبث هؤلاء الإخوة أن أظهروا فى خدمتهم فى جيش "ما كان" مهارة عسكرية عالية فارتفع شأنهم. ولكن "ما كان" دخل بعد ذلك فى صراع مع منافس فرسى آخر فى تلك المناطق اسمه "مرداويج بن زيار" وأحس البويهيون الثلاثة أن انضمامهم لجيش مرداويج سيكون أكثر تأمينا لمستقبلهم لأن مرداويج كان قد قوى أمره فى حين ضعف أمر "ما كان" وهكذا انضموا لمرداويج الذى رحب به بل إنه ولى أحدهم وهو على بن بويه إقليم "الكرج" فكان ذلك نقطة انطلاق للبويهيين نحو المجد؛ فقد نجح "على" بعد ذلك فى السيطرة على معظم بلاد فارس واستطاع أخوه أحمد بن بويه -بتشجيع منه- أن يتقدم صوب العراق وأن يستولى على الأهواز وواسط. وكانت الخلافة فى تلك الفترة -كما ذكرنا- تعانى من الفوضى الضاربة والنزاع حول منصب أمير الأمراء، فأغرت انتصارات أحمد بن بويه عددا من قواد بغداد أن يكاتبوه ويلبوا منه القدوم إلى عاصمة الخلافة ليضع حد للفوضى بها. ووجدت تلك المبادرة ترحيبا كاملا من الخليفة المستكفى الذى أحسن استقبال أحمد بن بويه وعينه أميرا للأمراء وخلع عليه لقب "معز الدولة" كما لقب أخاه عليا "عماد الدولة" وأخاه الحسن "ركن الدولة" وكان "على" حاكما لإقليم فارس وكان الحسن حاكما لإقليم الرى والجبل عند دخول أحمد بن بويه بغداد فى ربيع الثانى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م.

وهكذا بدأ عصر جديد متميز الملامح فى تاريخ الخلافة وهو الذى يعرف باسم عصر نفوذ البويهيين. وقد تولى منصب الخلافة فى ذلك العهد أربعة خلفاء هم المطيع (٣٣٤-٣٦٣هـ/٩٤٥-٩٧٣م) والطائع (٣٦٣-٣٨١هـ/٩٧٣-٩٧٣م) والقادر (٣٨١-٤٢٩هـ/٩٩١-١٠٣٧م) والقائم الذى تولى الخلافة فى سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م وعاصر بداية نفوذ السلاجقة فى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م.

وتجدر الإشارة إلى أن الخليفة المستكفي الذي كان آخر خلفاء عصر نفوذ الأتراك استمر في منصب الخلافة مدة تقل عن شهرين بعد ظهور النفوذ البويهى؛ فقد خلعه معز الدولة في أول جمادى الآخر سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م ثم أمر به فسلمت عيناه^(١)، وبايع بعده بالخلافة أبا القاسم الفضل بن المقتدر ولقبه بالمطيع لله.

لنا أن نستنتج من هذه البداية القاسية لعصر البويهيين أن الخلفاء فى تلك الفترة لم ينعموا بوضع أفضل مما نعموا به فى ظل نفوذ الأتراك. ولا بد أن نلاحظ هنا أن البويهيين كانوا شيعة فلم يكن الخلفاء يتمتعون لديهم بأى اعتبار دينى فضلا عن الاعتبار السياسى الذى فقده هؤلاء منذ قرن تقريبا. فلم يكن تاريخ الخلافة فى العصر البويهى إلا تاريخا للبويهيين الذين أصبح لهم حق تعيين الوزراء والقواد وغيرهم من كبار رجال الدولة، وتحول الخليفة بذلك إلى مجرد "موظف" فى مملكة البويهيين يحدد له هؤلاء دوره وراتبه بالصورة التى يريدون. وقد كان سهلا على البويهيين الشيعة أن يسقطوا الخلافة السنية فى بغداد ويقيموا خلافة شيعية، خصوصا إذا عرفنا أن الدولة الفاطمية كانت قد وطدت إقدامها فى الشمال الإفريقى حينذاك. ولكن البويهيين أصغوا لنصيحة من حذرهم من خطورة وجود خليفة شيعى يعتقد أصحابهم بصحة إمامته؛ ذلك أن البويهيين سيصبحون مثلولى الأرادة مع الخليفة الشيعى. وليس الأمر كذلك مع الخليفة السنى الذى لا يؤمنون هم ولا أصحابهم بصحة خلافته.

ومهما يكن فإن نفوذ البويهيين بالعراق بدأ يتعرض لامتحانات قاسية بعد وفاة أحمد بن بويه معز الدولة فى ربيع الآخر سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م؛ ذلك أن عز الدولة بختيار بن معز الدولة الذى خلف والده على شئون العراق كان ضعيف التدبير مكبا على اللهو فتدهورت الأمور فى عهده وانتشرت الدسائس مما شجع ابن عمه عضد الدولة بن ركن الدولة أن يتقدم بجيوشه صوب بغداد وأن يخلع

(١) مات المستكفي سنة ٣٣٨ عن ست وأربعين سنة فى سجنه بدار معز الدولة. انظر النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٩٩.

بختيار ويسجنه، ولكن ركن الدولة لم يرض من ابنه عضد الدولة ذلك التصرف؛ فأعيد بختيار على أن يحكم العراق باسم ركن الدولة. وعندما توفي ركن الدولة وجد ابنه عضد الدولة أن الفرصة مواتية لتوجيه ضربة قاصمة لبختيار فهاجمه في بغداد وقتله في شوال سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م وهكذا آل حكم أرض العراق نهائياً لعضد الدولة وأسرته وقد بلغ نفوذ بني بويه واتساع سلطانهم إلى ذروته في عهد عضد الدولة الذي كان أول من خوطب بالملك شاهنشاه في الإسلام^(١).

وبعد وفاة عضد الدولة في سنة ٣٧٢هـ/٩٨٢م تجدد الصراع على السلطة في بغداد، وكان أطراف الصراع الأساسيون هم أولاد عضد الدولة الثلاثة: شرف الدولة وضمصام الدولة وبهاء الدولة. ودخل هذا الصراع في مراحل طويلة مات خلالها شرف الدولة في سنة ٣٧٩هـ/٩٨٩م، وقُتل ضمصام الدولة في سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م فاستقر الأمر لبهاء الدولة بدون منازع.

ولا شك أن هذا الصراع الداخلي قد ترك آثاره السلبية على نفوذ البويهيين في العراق. وقد تجدد هذا الصراع بعد وفاة بهاء الدولة في سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م؛ فقد عهد بهاء الدولة بالملك من بعده لابنه أبي شجاع سلطان الدولة الذي اضطر لخوض عدة حروب ضد أخيه ومنافسه مشرف الدولة. وبعد سنوات من النزاع والفتن توصل الأخوان إلى عقد صلح بينهما اعترف فيه مشرف الدولة بسلطة أخيه في العراق، ثم مات سلطان الدولة في سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م، وفي العام التالي (٤١٦هـ/١٠٢٥م) مات أخوه شرف الدولة، فتولى الأمر بعده في العراق أبو طاهر جلال الدولة بن بهاء الدولة الذي استمر في سلطنته حتى وفاته في شعبان سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٢م ولم يدم ملك البويهيين طويلاً بعد وفاة جلال الدولة؛ فقد خلفه ابنه الملقب بالبويهيين طويلاً استطاع أبو كاليبجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة أن يستولى على السلطة ببغداد سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م وبعد وفاته في سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م خلفه ابنه أبونصر الملقب بالملك

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٤٢.

الرحيم، وكان ذلك آخر سلاطين البويهيين فى العراق، فقد أسقطه السلاجقة سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م.

لعله يتضح من هذا العرض السريع مدى اضطراب أحوال البويهيين بعد وفاة عضد الدولة. ويمكننا القول أن دولة البويهيين اكتسبت نفوذها الحقيقى فى العراق على يد مؤسسها هناك معز الدولة، ثم على يد عضد الدولة. وقد سبق أن ذكرنا أن هذه الدولة لم تكن تنظر إلى الخليفة العباسى نظرة التقدير ففقدت الخلافة هيبتها ومكانتها تحت نفوذ البويهيين، كما أن تعصب هؤلاء للمذهب الشيعى أوغر صدور أهل السنة فى العراق فتعددت الأصطدامات بين السنة والشيعية وكثرت الاضطرابات.

وإبان فترة التدهور التى مرت بها دولة البويهيين كانت هناك بذور دولة فتية تتخلق فى خراسان وما وراء النهر هى دولة الأتراك السلاجقة الذين برزوا على مسرح الأحداث فى حوالى سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م، واستطاعوا أن يقضوا على نفوذ الدولتين الغزنوية والبويهية^(١)، وقد كان صعود نجمهم بالإضافة إلى اعتناقهم المذهب السنى سببا فى أن يرحب بهم الخليفة العباسى القائم بالله عندما تطلعوا إلى التقدم نحو العراق لتخليص الخلافة من قبضة البويهيين الشيعية وانحرافهم.

^(١) أسس الغزنويون دولتهم فى أفغانستان والبنجاب فى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى، ثم استولت دولتهم على أجزاء كبيرة من الهند وخراسان وفارس. وأشهر سلاطينهم محمود بن سبكتكين وكانت عاصمتهم "غزنة" فى شمال الهند وإليها ينتسبون.

- الإمبراطورية السلجوقية (٤٤٧-٥٥٩هـ/١٠٥٥م-١١٩٣م):

السلجقة أسرة تركية كبيرة من تلك الأسر التي استوطنت بلاد تركستان إلى الشرق من البلاد الإسلامية وهي تنتسب إلى زعيمه سلجوق. وقد هاجرت هذه الأسرة بقيادة سلجوق إلى بلاد خراسان في أوائل القرن الخامس الهجري. وكان النفوذ السائد في تلك البلاد في ذلك الوقت هو نفوذ الغزنويين. وبعد سلسلة من الصراع على النفوذ بين الغزنويين والسلجقة استطاع السلجقة أن ينزلوا هزيمة ساحقة بجيوش السلطان مسعود الغزنوي عند "مرو" سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م فاضطر الغزنويون إلى التقهقر داخل حدود الهند. (١)

- السلاطين السلجقة العظام :

- طغرل بك (٤٣٢-٤٤٥هـ / ١٠٣٧-١٠٦٣م):

وقد وجد السلجقة في المراحل الأولى لظهور قوتهم زعيما فذا استطاع المضى بانتصاراتهم قدما وتأسيس دولتهم وذلك هو طغرل بك (محمد بن ميكائيل) فبعد هزيمة الغزنويين في سنة ٤٣٣/١٠٤١م ، تمكن طغرل بك من إعلان قيام دولة السلجقة في خراسان وبلاد ما وراء النهر. ولا شك أن اعتناق هؤلاء الأتراك المسلمين للذهب السني كان عنصرا هاما من عناصر توطيد سلطانهم الرسمي بعد وقت غير طويل فقد اتصل طغرل بك بالخليفة العباسي "القائم" يعلن له الولاء والتبعية، فما كان من الخليفة إلا أن أرسل إليه يعينه نائبا عنه في خراسان وبلاد ما وراء النهر وفي كل ما يفتتحه بعد ذلك من البلاد. وهكذا أضفى السلجقة على وجودهم مظهرا شرعيا ساعدهم على إرساء دعائم دولتهم عسكريا وسياسيا وعلى كسب مزيد من الأنصار. (٢)

ثم جاءت الخطوة التالية التي كان لها آثارا بعيدة المدى على مسرح التاريخ الإسلامي؛ فقد كان البويهيون في العراق يزدادون ضعفا وانقسامًا، وكانت

(١) عبد المنعم حسانين: سلجقة إيران والعراق، ص ٢١.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٧٦-١٧٩.

الفتن بين السنة والشيعة يضطرم لهيها وتزداد حدة بتعصب البويهيين للشيعة. وقد استغل هذه الظروف المضطربة أحد القادة الأتراك التابعين للسلطان البويهى "الملك الرحيم فأعلن تحديه للخليفة وللسلطان البويهى معا، وحاول أن يجعل بغداد تابعة للخليفة الفاطمي المستنصر فى مصر، واسم هذا القائد التركى أبو الحارث أرسلان وهو المعروف بالبساسيرى. وقد استفحل أمر البساسيرى فى بغداد ووقف الخليفة العباسى القائم عاجزا أمام مشكلته، فاستنجد بطغرل بك الذى خَفَّ لنجدته مسرورا بذأ التشريف من الخليفة السنى، وتقدم طغرل بك بجيوشه صوب بغداد فدخله فى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، فاستقبله الخليفة القائم بحفاوة بالغة ولقبه بـ "ملك الشرق والغرب" وهرب البساسيرى من بغداد بوصول طغرل بك إليها، كما أن آخر سلاطين البويهيين "الملك الرحيم" حُمِلَ أسيرا إلى الرى حيث سُجِنَ هناك. ويعد أن أطمأن طغرل بك إلى استتباب الأمر فى بغداد رجع إلى مقر مملكته بخراسان. (١)

ولكن البساسيرى لم يستسلم بسهولة؛ فقد كاتب "المستنصر صاحب مصر ومشت الرسل بينهما" واتصل بغيره من أعداء الخليفة، بل أنه أغرى "إبراهيم يئال" - وهو أخو طغرل بك لأمه- أن ينشق على أخيه فاستطاع البساسيرى بذلك أن يضمن انشغال طغرل بك عنه بفتنه أخيه، ثم إن العون الذى تلقاه هذا الثائر من المستنصر الفاطمى مكنه من أن يدعم مركزه وأن يمعن فى عصيانه يقول بعض المؤرخين: "إن الذى وصل إلى البساسيرى من المستنصر من المال خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك، وخمسمائة قرش وعشرة آلاف قوس، ومن السيوف ألوف، ومن الرماح والنشاب شئ كثير" (٢).

وقد استطاع البساسيرى بعد أن قوى نفوذه أن يدخل بغداد بجيوشه فى الثامن من ذى القعدة سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م وأن يقيم الخطبة بعاصمة الخلافة العباسية للمستنصر الفاطمى وذلك يوم الجمعة ١٣ من ذى القعدة من نفس

(١) الرواندى: راحة الصدور، ص ١٨٥.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١١-١٢.

العام. وقد قبض البساسيري على وزير الخليفة القائم وهو رئيس الرؤساء أبو القاسم بن السلمة وقتله بعد أن أذاقه صنوف العذاب، ثم جمع القضاة وأشرف بغداد وأخذ عليهم البيعة للخليفة الفاطمي. أما الخليفة القائم فقد استجار بأحد الأمراء الذين تحالفوا مع البساسيري، واسمه قريش بن بدران أمير بني عقيل فأجاره، وبهذا نجا الخليفة من القتل.

وفى تلك الأثناء تمكن طغرل بك من هزيمة أخيه "إبراهيم بنّال" وقتله فاستطاع أن يوجه جهوده نحو البساسيري وأن يلبي بذلك نداء الخليفة القائم الذي ذهبت حاشيته إلى طغرل بك تستغيث به بعد أن سقطت بغداد في يد هذا الثائر. ولم تصمد جيوش البساسيري طويلاً أمام زحف طغرل بك فقد تعرضت لهزيمة ساحقة توجت بالقبض على البساسيري وقتله شر قتلة في أواخر سنة ٤٥١هـ/١٠٥٦م، فانتهت بذلك هذه الفتنة الهوجاء وعاد الخليفة العباسي القائم إلى بغداد في ظل الحماية السلجوقية. ومنذ ذلك التاريخ بدأ النفوذ العملي الحقيقي للسلجوقية في مقر الخلافة. ^(١)

لقد كان خضوع الخلافة لنفوذ الأراك السلجوقية بداية لمرحلة متميزة في تاريخها؛ فالسلجوقية - كما قلنا - كانوا من أنصار المذهب السني على عكس أسلافهم البويهيين الذي كانوا يختلفون عن أسلافهم الأتراك السنيين الذين استكثر منهم المعتصم ثم تحولوا بعد ذلك إلى كأبوس يجثم على صدر الخلافة؛ ذلك أن السلجوقية كانوا يرون في الخلافة السنية رمزا دينيا يعبر عن الوحدة الإسلامية الصحيحة وينظرون إلى الخليفة على أنه تجسيد حي لذلك الرمز، ولهذا أحاطوه بهالة من التقدير والإكبار. وهكذا نعمت الخلافة العباسية بشيئين لم تنعم بهما مجتمعين في ظل نفوذ الأتراك البويهيين: أولهما هو سيادة المذهب السني في أرض الخلافة؛ وثانيهما هو إحاطة الخلافة بما هي أهل له من صيانة وإجلال.

^(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٢٨ فما بعد.

وعن ذلك فلا بد أن نشير إلى أن سلطة الخليفة في العهد السلجوقي كانت روحية أكثر منها سياسية؛ فقد أدار السلاجقة دفة السياسة الداخلية والخارجية للدولة وقنع الخلفاء بصفة عامة بممارسة الأدوار التي كانت ترسم لهم في الوقت الذي نعموا فيه بزوال شبح الخلع والسمل والقتل الذي سلبهم الأمن والطمأنينة فيما مضى.

- ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥ هـ / ١٠٦٣-١٠٧٢ م)

لما ولي ألب أرسلان السلطنة، ودخل الري مع وزيره نظام الملك، واستقبله الكندري - وزير طغرل - أحسن استقبال، وقدم له الهدايا، وهناه بالسلطنة، ولكن نظام الملك خشي أن تظل الوزارة من نصيب الكندري - وكان يتطلع إليها - وساءه أيضاً التفاف الجند والناس حول الكندري - لذا دبر مؤامرة للتخلص منه حتى يتول إليه نفوذه وسلطانه، فحرض ألب أرسلان علي غريمة - الكندري - وحذره منه، فأوجس ألب أرسلان خيفة من الكندري، بل أمر بالقبض عليه، وقتل قتلة شنيعة وقبل أن يقتل الكندري أرسلت رسالتين الأولى إلي ألب أرسلان والثانية إلي نظام الملك جاء في الأولى للسلطان: لقد خدمتني خدمة جليلة، فقد أعطاني عمك ملك العالم الدنيوي لأتصرف فيه، فلما أمرت بقتلي أعطيتني ملك العالم الآخر جزاءً لاستشهادي، وبذلك تم لي علي يديكما امتلاك الدارين الفانية والباقية، وفي الرسالة التي بعثها إلي نظام الملك حذره من العواقب الوخيمة التي ستعود علي الدولة من جزاء قتل الوزراء، وأول من سيشرّب من نفس الكأس - بعد الكندري - نظام الملك - قال الكندري لنظام الملك بنسما عودت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان، ومن حفر لأخيه حفرة وقع فيها ولقد تجاوز هذا الوزير السيئ الطالع الأربعين من عمره حين مقتله، وكان عالماً بالدين، نظم قصائد شعرية رائعة، ومن المتعصبين للمذهب الشافعي

وناصب العداء للرافضة والأشاعرة، وأمر بلعنهم في المساجد، وتحقق لنظام الملك ما كان يسعى إليه، فولاه السلطان ألب أرسلان وزارة الدولة السلجوقية. (١)

حرص السلطان ألب أرسلان علي المحافظة علي ممتلكات الدولة السلجوقية؛ وتوسيع رقعة أراضيها، فلما ولي السلطنة شق أمير ختلان عصا الطاعة، ومنع ما كان يؤديه من مال إلي الحكومة السلجوقية، فعمل ألب أرسلان علي سحق تمرده، فسار إليه علي رأس حملة حربية، ولما بلغ ختلان، تحصن أميرها في القلعة، وهاجم السلطان السلجوقي القلعة، وشدد عليها الحصار حتي استسلم أمير ختلان، وعادت هذه الولاية إلي الولاء والطاعة للسلطان السلجوقي. ولم تنته متاعب ألب أرسلان عند هذا الحد، بل سار إلي صغانيان التي حذت حذو ختلان في التمرد والعصيان، وحاول أميرها الاستقلال عن الحكم السلجوقي. واستطاع ألب أرسلان إعادة صغانيان إلي الولاء والطاعة، وقد توطد نفوذ ألب أرسلان في دولته بعد أن دحض كل هذه المحاولات الانفصالية، ولم يلبث أن ازداد نفوذه بعد أن اعترف الخليفة العباسي به سلطانا، وأرسل إليه التقليد والخلع بمشهد من الناس، وبذلك اكتسب حكمة الصفة الشرعية. (٢)

ولم يواجه ألب أرسلان حركات العصيان من ولاته فقط، بل واجه مصاعب من أفراد أسرته. ومن ذلك أن شهاب الدولة قتلتمش تطلع إلي الوصول إلي عرش السلطنة، فأعد العدة لقهر هذه الحركة، وسار لملاقاة غريمه، ولما اقترب منه أرسل إليه ينكر عليه فعله وينهاه عن العصيان، ويدعوه إلي الطاعة، وأبدي أستعداده للعمو عنه لأنه يراعي له القرابة والرحم، لكن قتلتمش لم يستجب لنداء السلطان، فقد أغتر بكثرة جمعة، وأطلق لجنده العنان، فنهبوا قري الري (٣)، ولذلك لم يعد هناك بد من الحرب والقتال ومهما يكن من امر فقد ألتقي الجمعان في معركة دارت في الدائرة علي قتلتمش وجنده، بل قتل في المعركة وبذلك عادة

(١) الراوندي: راحة الصدور، ص ١٨٥-١٨٦.

(٢) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص ١٤.

(٣) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ٢١٩.

إلى الدولة السلجوقية وحدتها، وقوي مركز سلطانها، كذلك أحبب السلطان ألب أرسلان محاولة عمه بيغو للاستقلال بإقليم هراة سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥ م، وظهر هذه البلاد من الثوار، وأعاد الأمن والنظام في جميع أنحاء خراسان وبلاد ما وراء النهر.

اتخذ ألب أرسلان بعد أن استتب له الأمر في دولته سياسة تنطوي علي توسيع رقعة أراضيها، وذلك ببسط النفوذ السلجوقي علي بلدان الدولة الفاطمية في مصر والشام، والسيطرة علي البلاد المسيحية المجاورة، ونشر الإسلام في غير بلاد الإسلام.

بدأ ألب أرسلان يقترب من النزاع من الإقليم المسيحية المجاورة لدولته، واتجه صوب الغرب بفتح بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المجاورة لها من بلاد الروم، وكان أهل هذه البلاد يكثرون من الأغاثة علي إقليم أدريجان حتي أصبحوا مصدراً قلقاً لسكانه، الأمر الذي شجع السلطان السلجوقي علي سرعة العمل علي كبح جماح هؤلاء القوم، والسيطرة علي بلادهم المجاورة للدولة البيزنطية.

بدأ ألب أرسلان حركته الحربية، يستولي علي الجزء الأكبر من البلاد الواقعة بين بحيرة وان وأرمينية، كما سيطر علي جورجيا وبلاد الأرمن، وقد أزعج ذلك أمبرطور الروم رومانوس ديوجينيس، وأدرك ان التوسع السلجوقي لا يقف عند حد بل يشكل خطراً علي دولته، فاعتزم تحويل أنظار السلاجقة عن بلاده، فسار إلي بلاد الشام في عسكر كثيف، وأغار علي مدينة منبج ونهبها وقتل أهلها، وهزم صاحبها محمود بن صالح ابن مرادس ومن معهم من جموع العرب، وعاد إلي القسطنطينية. (١)

ولما رأى صالح فرادس - أمير حلب - قوة الدولة السلجوقية، عمل علي الدخول في طاعة السلطان السلجوقي، فجمع اهل حلب وقال: " هذه دولة جديدة،

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٤، ص ٢٥٨-٢٥٩.

ومملكة شديدة، وهم يستحلون دماءكم لأجل مذاهبكم، والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتي وقت لا ينفعنا فيه قوة ولا بذل، فأستجاب الحاضرون لدعوته، وأقيمت الخطبة في حلب للخليفة العباسي القائم بأمر الله، والسلطان السلجوقي وسار ألب أرسلان إلي حلب، وأدخلها في حوزته. وبذلك آلت إلي الخلافة العباسية بعد أن كانت تابعة للدولة الفاطمية.

رأى رومانوس الرابع - إمبراطور الدولة البيزنطية - أن الدولة السلجوقية تهدد أمن بلاده، فعمل علي إضعافها. وأوقف خطتها التوسيعية علي حساب أراضيها، فغادر رومانوس القسطنطينية علي رأس جيش يتكون من مائتي ألف مقاتل من الروم والفرنجة والروس والكرج والصرب والقوقاز وغيرهم من شعوب دولته، فجمعوا في تجمل كثير وزي عظيم وسار إمبراطور الروم علي رأس جيشه إلي ملازكرد - من أعمال خلاط - ولما علم ألب أرسلان بذلك أعد جيشاً قوياً، وسار مسرعاً للقاء العدو، وقال وهو يجد في السير: "إنني أقاتل محتسباً صابراً، فإن سلمت فنعمة من الله تعالي، وإن كانت الشهادة فإن ابني ملكشاه ولي عهدي، وواصل المسير بجيشه حتي اقترب من الجيش البيزنطي، ولما لاحظ السلطان ألب أرسلان أن قوة الروم تفوق قوته واستعداده، دعا الإمبراطور إلي عقد هدنة حتي يستطيع إعادة تنظيم قواته وتقويتها، لكن الإمبراطور رفض الهدنة، وقال: لا هدنة إلا في الري، لذلك رأى السلطان السلجوقي أن الحرب أمر لا مفر منه، وأثار حماس جنده، ووقعت الواقعة بين الفريقين في ١٠٧١هـ/ ١٠٧١م، وكانت معركة حامية الوطيس، انتهت بانتصار المسلمين علي أعدائهم ومزقوهم المسلمين شر ممزق فقتلوا فيهم كيف شاءوا حتي امتلأت أرض المعركة بجثث قتلي الروم، ووقع الإمبراطور البيزنطي أسيراً في أيدي السلاجقة^(١)، وسيق إلي معسكر السلطان السلجوقي ألب أرسلان. فقال له السلطان: ما عزمت أن تفعل بي أن أسرتني؟ فقال: أفعل القبيح. فقال له

(١) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ١٦٦.

السلطان: فما تظن أنني أفعل بك. قال: إما ان تقتلني، وإما أن تشهري في بلاد الإسلام، والأخري بعيدة وهي العفو وقبول الأموال، واصطناعي نائباً عنك. قال السلطان السلجوقي: ما عزمت علي غير هذا. أطلق السلطان ألب أرسلان سراح الإمبراطور البيزنطي بعد أن تعهد بدفع دية كبيرة قدرها ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وأن يرسل إليه عسكر الروم في أي وقت يطلبه، وأن يطلق كل أسير مسلم في أرض الروم. وعقدت معاهدة مدتها خمسون عاماً بين الفريقين، وأفرج عن رومانوس، وعاد إلي بلاده مذموماً مدحوراً.

وكان لموقعه ملازكرد أهمية كبيرة في التاريخ الإسلامي بصفة خاصة، وتاريخ العالم بصفة عامة، فقد نجم عن هذه الواقعة تأسيس دولة سلجوقية في أرض الروم في آسيا الصغرى وقد أدى ضياع هذه البلاد من الدولة البيزنطية إلي ضعفها وتدهورها حتي سقطت في النهاية علي أيدي السلطان العثماني محمد الفاتح.

كما كان لهذه الواقعة آثار حضارية بالغة الأهمية، ذلك أن الثقافة المسيحية غلبت علي سكان آسيا الصغرى، وامتدت منها إلي حدود أذربيجان، فلما انسحب الروم من هذه البلاد، ودخلت في حوزة السلاجقة، حلت الثقافة الإسلامية محل الثقافة المسيحية فيها، وانتشر الإسلام في هذه البلاد، وانتشرت اللغتان العربية والفارسية فيها، لأن العربية لغة القرآن، والفارسية لغة الفاتحين، وقد مهد انتشارها لظهور اللغة التركية الحديثة بعد ذلك.

وضعت الدولة البيزنطية علي إثر هذه الموقعة، ولم يعد لها دور في حماية المسيحية من ضغط الإسلام، وفي حراسة الباب الشرقي لأوروبا من غزو الآسيويين، وبذلك لم يعد الغرب الأوربي يعتمد علي البيزنطيين في هذا الدور، إنما كان عليه أن يعتمد علي قوته وحدها. وعلي ذلك مهدت موقعة ملازكرد للحملة الصليبية المعروفة بالأولي بعد أن أصبحت المسيحية في خطر بسبب إزدياد السلاجقة وضعف الدولة البيزنطية.

ومهما يكن من أمر فقد أعاد السلطان ألب أرسلان غريمه وأسيره الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع إلي بلاده، بل خلع عليه خلعة جليلة، وخصص له سرداقاً كبيراً وأعطاه قدراً كبيراً من المال لينفق منه في سفره، ثم أفرج عن عدد من ضباطه ليقوموا بخدمته، وأمر عدداً من رجاله بصحبته حتي يصل إلي دياره سالماً، ولم تكد تصل أخبار هذه الهزيمة إلي القسطنطينية حتي أزال رعاياه اسمه من سجلات الملك، وقالوا: إنه سقط من عداد الملوك، وغضب عليه المسيح، وأعلن ميخائيل السابع إمبراطوراً، وألقي القبض علي رومانوس الرابع وسلمت عيناه.

علي أن السلطان ألب أرسلان لم يستغل هذا النصر العظيم في محاولة الاستيلاء علي بقية آسيا الصغري التي أصبحت ممهدة له بعد ملازكرد، وإنما اكتفي بإدخال أرمينية وأنطاكية والرها في حوزته، واتجه إلي الأطراف الشرقية من دولته لإخضاع بلاد ما وراء النهر، وهاجم ألب أرسلان أحدي القلاع الثائرة، وأخذ ثورتها، وقبض جنده علي قائدها يوسف الخوارزمي، وقد اعترم السلطان السلجوقي قتله بنفسه؛ لأنه أظهر عنادا وإصرارا علي التمرد وتسبب في قتل الكثير من جنده، ورماه السلطان بسهم فأخطأه، ولم يكن يخطئ سهمه، وأخرج يوسف سهماً أخفاه في ملابسه لقي السلطان بسببه مصرعه.

وبذلك انتهى حكم السلطان ألب أرسلان الذي استمر تسع سنين وستة أشهر، وقد حكم مملكة تمتد من نهر جيحون حتي نهر دجلة. ويعد عصره من أهم عصور السلاطين السلاجقة استتب فيه الأمن وحسنت إدارة الدولة، واتسعت رقعتها، وقهر أعداؤها حتي أنها كانت مهابة مرهوبة الجانب. ويذكر ابن الأثير أن ألب أرسلان كان يكثر من الصدقات علي المحتاجين من رعيته، وقد قنع من الأهالي بالضريبة الشرعية تؤخذ منهم كل سنة دفعتين، وقد اهتم بدراسة أخبار الملوك الماضين وسياساتهم عبرة وعظه له.

— ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ / ١٠٧٢-١٠٩٢م) :

واجه ملكشاه صعابا كثيرة في بداية حكمه بسبب انتفاض بعض الولايات ومحاولة الانفصال عن الدولة السلجوقية، لكن ملكشاه أحبط كل المحاولات الانفصالية، ولم يكد ملكشاه ينتهي من دحض هذه الثورات، حتى واجه حركة أخرى قام بها عمه قاروت بك مطالبا بالسلطنة، وكان بكرمان وقت وفاة أخيه ألب أرسلان، وسار طالبا الري حاضرة السلطنة السلجوقية - فعمل ملكشاه علي دحض هذه الحركة الخطيرة، فأصطحب وزيره نظام الملك، وتوجها إلي همذان للقاء قاروت بك، وقمع حركة تمرده، وكان الجند يميلون إلي قاروت بك، ودرات معركة رهيبه بين الفريقين، انضم فيها شرف الدولة مسلم بن قريش، وبهاء الدولة منصور بن دبيس بن مزيد ومن معهما من العرب والأكراد إلي السلطان السلجوقي، وانتهت المعركة بهزيمة قاروت بك، وصفت السلطنة لملكشاه، ولم يعد ينازعه فيها منازع، ودانت له الولايات السلجوقية بالولاء والطاعة. أما قاروت بك فقد سيق أسيرا إلي السلطان ملكشاه، فأمر بقتله تخلصا من شره وعقابا له علي موقفه العدائي نحوه، وأقر كرمان بيد أولاده، ومنح العرب والأكراد - الذين اشتركوا معه في المعركة - الإقطاعات الكثيرة.

غير أن الدولة السلجوقية تعرضت لأحداث شغب من الجند، إذ انطلقوا في البلاد يعثون فيها نهبا وفسادا، ويخربون ويدمرون، ففوض السلطان ملكشاه وزيره نظام الملك إليك، فأنت الوالد. وزاد في إقطاعه، وخلع عليه، ولقبه عدة ألقاب من بينها لقب أتابك أي الأمير الوالد. وكان ملكشاه جديراً بهذه الثقة، فأعاد إلي البلاد الأمن والطمأنينة. (١)

كانت بلاد ما وراء النهر كثيرة الفلاقل والاضطرابات في عهد السلطان ألب أرسلان، فلما شق خاقان ألتكين - صاحب سمرقند - عصا الطاعة، وأغار علي ترمذ، وضمها إلي حوزته، منتهزا فرصة الاضطرابات التي أعقبت ذلك، وأنشغال السلطان الجديد ملكشاه في القضاء علي الصعاب التي واجهته، ولما

(١) مصطفى جواد: العصر العباسي، ص ٧٠.

استوثق الأمر للسلطان الجديد. سار إلي ترمذ وحاصرها وشدد عليها الحصار. ولما رأى جند ترمذ أن لا طاقة لهم بجند السلاجقة طلبوا من السلطان العفو والصفح. فأمنهم وعفا عنهم. واستعادها ملكشاه ثم صار إلي سمرقند، فأسقط في يد صاحبها، فغادرها وأرسل يطلب من السلطان الصلح، وتضرع في ذلك إلي نظام الملك، وأجيب إلي طلبه، وعقد ملكشاه معه صلحا، بل أقره علي سمرقند.

واصل ملكشاه سياسة أبيه ألب أرسلان في العمل علي توسيع رقعة الدولة السلجوقية بحيث تسيطر علي العالم الإسلامي كله بما في ذلك الدولة الفاطمية المتداعية. فأرسل جيشا إلي بلاد الشام سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م واستولي علي أكثرها، ثم أرسل جيشاً إلي مصر، وأوغل في الأراضي المصرية، لكن الفاطميين بذلوا قصارى جهدهم في درء الخطر السلجوقي عن مصر وفعلا هزم السلاجقة وطردوا من البلاد المصرية، لذلك توقف السلاجقة بعد ذلك عن فكرة غزو مصر. (١)

تطلع ملكشاه إلي تأكيد سيطرته علي بلاد الشام، فأقطعها لأخيه تاج الدولة تتش في سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م وما يفتحها في تلك النواحي، فقصد تتش حلب وحاصرها، ولحق بأهلها مجاعة شديدة بسبب الحصار، علي أن تتش اضطر إلي رفع الحصار بعد أن تعرضت القوات السلجوقية في دمشق لهجمات القوات الفاطمية، وسار تتش إلي دمشق لنجدته، واستطاع مطاردة الجند الفاطمي، واستعاد السيطرة السلجوقية عليها. لما رحل تاج الدولة تتش عن حلب، وخشي أهلها أن يعود إلي مهاجمتهم، استنجدوا بشرف الدولة مسلم العقيلي - صاحب الموصل - ليسلموها إليه، ودخل الأمير العقيلي حلب سنة ٤٧٣ هـ، وأخضع المعارضين لحكمه، وأرسل إلي السلطان السلجوقي يطلب إقراره علي حلب، فوافق علي طلبه، وأقطعها له. وبذلك أنضمت معظم سورية إلي الدولة السلجوقية واتخذ تتش دمشق مقرا لدولة سلاجقة الشام.

(١) ابن الطقطقي: الفخرى في الآداب السلطانية، ص ٢٦٠ ، ٣٢٢.

حرص السلطان ملكشاه علي توطيد نفوذ السلاجقة في آسيا الصغرى، وهو بذلك يواصل سياسة أبيه التي تدعو إلي مواجهة الدولة البيزنطية، وانتزاع أراضيها جهادا في سبيل الله، ففي سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م أسند إلي سليمان بن قتلمش بن إسرائيل حكم هذه البلاد، ويعتبر قتلمش المؤسس الحقيقي لدولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى التي ظلت تحكم هذه البلاد حتي سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م.

لم يكتف قتلمش بحكم بلاد آسيا الصغرى بل سعي إلي توسيع رقعة ولايته واتجه إلي أنطاكية- وكانت بيد الروم- وساعده علي ذلك استياء أهلها من الحكم البيزنطي، وأرسلوا قتلمش سرا، وطلبوا منه التوجه إلي بلدهم وامتلاكها، فأبحر علي رأس حملة كبيرة إلي أنطاكية، وأوغل جنده في جبال وعرة ومضايق غلقه حتي وصل إليها، وهاجم أنطاكية، وشدد هجماته عليها حتي فتحها، وغنم مغانم كثيرة، واستولي علي البلدة، وأحسن إلي الرعية وعدل فيهم، وأعاد تعمير أنطاكية. وافتتح السلاجقة لأنطاكية، أطلت دولتهم علي البحر المتوسط.

علي أن اتساع رقعة الولاية السلجوقية في آسيا الصغرى ومجاورتها لولاية الشام السلجوقية، أدي إلي ظهور نزاع مرير بين حكام هاتين الولايتين، ذلك أن قتلمش لم يكتف بحكم أنطاكية، بل تطلع إلي السيطرة علي حلب، هاجمها ودرات حرب بينه وبين أميرها شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي، انتهت بمقتل الأمير العربي، وسيطرة قتلمش علي حلب أدي إلي وقوع صدام بينه وبين تتش- الذي كانت حلب تابعة لولايته- ورأى ضرورة استعادتها، واشتبك الأميران في معركة انتهت بهزيمة قتلمش ومقتله، وحاصر تتش حلب، وأحبط مقاومة جند سلاجقة الروم، واسترد حلب. (١)

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٠٥-٤٠٦.

رأى ملكشاه أن يقصد سورية لإعادة الهدوء والطمأنينة إلى حلب، وأخضع في طريقة القلاع الخارجة علي سلطان الدولة، ومن بينها الرها، فحاصرها واستعادها من الروم، ثم استرد جعبر، وكان أصحابها يقطعون الطريق، ثم عبر بالقوات إلى مدينة حلب، وأقطعها لقسيم الدولة آقسنقر، فعمرها وأحسن السيرة في أهلها، ورأى بقية حكام المدن الشامية أن أمن بلادهم لا يتحقق ولا ينجو من الخطر إلا إذا انضموا إلى الدولة السلجوقية القوية، فأرسل أصحاب شيزر واللاذقية وكفر طاب وقامية وغريهم إلى وملكشاه يقدمون له فروض الولاء والطاعة، فأقرهم علي ما بأيديهم من البلاد كما أقر حكم تتش في بلاد الشام، وعاد السلطان السلجوقي إلى بغداد بعد أن اخضع لسلطانه بلاد الشام والجزيرة، وخلع عليه الخليفة العباسي الخلع السلطانية، وفوض إليه أمر البلاد والعباد، وأمره بالعدل فيهم، وأقام السلطان السلجوقي بعض الوقت في بغداد، وتزوج تركان خاتون ابنة الخليفة العباسي سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م.

عادت بلاد ما وراء النهر من جديد إلى إثارة المتاعب في وجه السلطان ملكشاه، ذلك أن أحمد خان بن خضر - صاحب سمرقند - استبد بالأهلين، فكتبوا إلى السلطان سرا يستغيثون به، ويسألونه القدوم عليهم لينقذهم من الظلم والجور، ويستعيد نفوذه في هذه البلاد، فغادر ملكشاه أصفهان إلى خراسان، ومنها إلى بلاد ما وراء النهر، وقصد بخاري وامتلكها، كما امتلك ماجأورها من البلاد، ثم قصد سمرقند وحاصرها وشدد عليها الحصار حتي فتحها وعفا عن صاحبها، وعهد إلى أحد قواده بحكم سمرقند، ثم قصد كاشغر، وأرسل إلى ملكها يطلب منه الدخول في طاعته، فوافق الملك وحضر بين يديه معلنا ولاءه له، فأكرمه وأقره علي كاشغر، وبذلك امتد نفوذ السلاجقة شرقا وغربا، وشمل المناطق الواقعة بين كاشغر في الشرق وأنطاكية في الغرب، أي امتد من حدود الهند شرقا إلى البحر المتوسط غربا، وأنضوت تحت لواء السلاجقة إقليم ما وراء النهر وإيران وأسيا الصغرى والعراق والشام.

بلغت الدولة أوج اتساعها وعظمتها في عهد السلطان ملكشاه، ومما لا شك فيه أن الفضل الكبير في ذلك يرجع إلي وزيره نظام الملك الذي عرف عنه الحكمة والرشاد، وقد بلغ نظام الملك من علو الهمة، وبعد الصيت ما بلغه البرامكة، وحلت به نكبة أشبه بنكبتهم، نظام الملك من أبناء الدهاقين بطوس، زال ما كان لأبيه من مال وملك، وتعلم العربية، علوم الدين، ثم تدرج في سلك الوظائف. وظهرت كفاءته وأمانته، حتى اتخذه ألب أرسلان وزيرا له، ثم فوضه ملكشاه أمر دولته كلها، وطوال تلك الفترة كان الحقيقي لسياسة الدولة، وضبط الأمور في هذه الدولة المترامية الأطراف وأسفرت جهوده إلي جعل الدولة السلجوقية أكبر قوة في الشرق، ترهبها الأمم المجاورة، وتخشي بأسها.

لم تستمر العلاقات الودية بين ملكشاه ووزيره نظام الملك. فدوام الحال من المحال، إذ ساءت هذه العلاقات لعدة عوامل منها ما يتعلق بولاية العهد، فقد رأى نظام الملك أن بركياروق - الابن الأكبر للسلطان ملكشاه - أحق بولاية العهد من أخيه محمود، ورفضت تركان خاتون - زوج السلطان والدة محمود - ذلك، ورشحت ابنها محمودا لولاية العهد، وكان في الرابعة من عمره، وأدى ذلك إلي خلافات شديدة بين نظام الملك وتركان خاتون، ولما كانت قوية التأثير علي زوجها ملكشاه فقد أفلحت في إثارة الخلافات بين الرجلين. ^(١)

وكان نظام الملك يعهد بحكم ولايات الدولة السلجوقية إلي ابنائه وأحفاده وأقاربه، ويسند إليهم المناصب الرئيسية، وكان بعضهم غاشما سيئ السيرة، ظالما في الناس، فنال ذلك من سمعة الوزير السلجوقي، وكان أحد أحفاده يلي مرو فأساء إدراتها، واستبد بأهلها، فرجع الناس شكاياتهم إلي السلطان، فأرسل إلي نظام الملك يئونه، ويقبح تصرفه في تعيين هذا الشاب الطائش أو أقاربه عموما ممن تنقصهم الخبرة، وتعوزهم التجربة، وأستاء الوزير - الذي تجاوز الثمانين عاما من رسالة السلطان السلجوقي الذي هو مدين له بما بلغته الدولة

^(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ٤٤٠؛ ابن الساعي: مختصر أخبار الخلفاء، ص ١٠٩.

في عهده من قوة وإزدهار، وعبر عن غضبه برسالة بعث بها إلي السلطان جاء فيها: إن الذي وضع التاج علي رأسك قد وضع القلنسوة علي رأسي. ونتيجة لهذه الخلافات الشديدة أمر السلطان بعزل وزيره.

علي أن نظام الملك لم يلبث أن قتل بعد عزله في رمضان سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م بالقرب من نهاوند، فقد اغتاله شاب ديلمي، وهو داخل إلي مخيمة من طائفة الاسماعيلية حين أرخي الليل سدوله ذلك أن نظام الملك كان شديد العداء والتنكيل بهذه الطائفة، ولم يلبث ملكشاه أن توفي بعد مقتل وزيره بشهر وأحد. (١)

- الصراع داخل البيت السلجوقي :

أخذت الدولة السلجوقية في الضعف والانحيار بعد وفاة السلطان ملكشاه، ومن أهم أسباب هذا الضعف تنافس الأمراء السلاجقة حول الوصول إلي عرش السلطنة، الأمر الذي أحدث انقساماً شديداً بين أبناء البيت السلجوقي، وبدأت هذه الخلافات بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ، بين بركياروق الابن الأكبر لملكشاه- وأخيه محمود، وأيد بركياروق نظام الملك ومن بعده أتباعه وأفراد أسرته وأساتذة وطلاب المدرسة النظامية، علي حين وقف إلي جانب محمود، أمه ترکان خاتون، والوزير تاج الملك الشيرازي- الذي خلف نظام الملك- وقد استطاعت ترکان خاتون أن تحصل من الخليفة العباسي المقتدي بالله علي تقليد له بالسلطة منتهزة فرصة وجودها في بغداد أثناء موت ملكشاه، وأودع أنصارها، بركياروق في سجن أصفهان، غير أن أتباع المدرسة النظامية أخرجوه من السجن، ونادوا به سلطاناً وقتلوا الوزير تاج الملك الشيرازي لاتهامه بتدبير اغتيال نظام الملك، وأسندوا الوزارة إلي عز الملك الحسين بن نظام الملك.

(١) فاروق عمر: الخلافة العباسية في العصور المتأخرة، ص ٨٥ ، ٩٢١ .

علي أن الأمور لم تستتب لبركياروق، فقد طالب عمه تتش - صاحب الشام - بالعرش، واستولي علي بلاد الجزيرة، وسار إلي أذربيجان، علي أن بركياروق أوقع به الهزيمة، واعترف الخليفة العباسي به سلطاناً. لم يستسلم تتش للهزيمة، بل أعاد محاربة ابن أخيه، وأعد العدة لذلك، لكنه لم يستطع التصدي لبركياروق الذي قوي بأسه، وعظم شأنه بعد وفاة أخيه محمود، وانتصر علي تتش بالقرب من الري سنة ٤٨٨هـ، ١٠٩٥م. وبذلك قضى بركياروق علي كل المحاولات التي استهدفت انتزاع السلطنة منه، ودانت له الدولة بالطاعة والولاء.

عاد الانقسام إلي البيت السلجوقي، بعد أن ثار محمد - أخو السلطان - عليه، وكان واليا علي أران وكنجه، وقصد همدان، علي أن بركياروق لم يستطع التصدي له وإحباط تمرده بسبب ثورة الجند عليه، فقوي شأن محمد - وأعلن نفسه في همدان سلطاناً، ولم يلبث أن أعترف به الخليفة العباسي لما شعر بقوة بأسه ورجحان كفته، وبذلك أصبح في الدولة السلجوقية سلطانان.

استمر النزاع بين الإخوة بروكياروق ومحمد وسنجر، وتكررت الحروب بينهم، وكان الخليفة العباسي يقف من هذه الحروب موقف المتفرج، ينتظر نتيجة المعركة، ويقوم الخطبة لمن غلب، ودخل بغداد ظافراً منتصراً أزداد ضعف الدولة السلجوقية بسبب هذا الانقسام الشديد بين أمراء البيت الحاكم، وفي سنة ٤٩٧هـ سنة ١١٠٣م اتفق بركياروق ومحمد وسنجر علي تقسيم المملكة بينهم، وتوفي بركياروق سنة ٤٩٨هـ، بعد أن ترك الدولة السلجوقية وقد مزقتها الانقسامات وسيطر كل أمير علي ما تحت يده من البلاد. (١)

ولم يستطع السلطان محمد - الذي انفرد بالسلطنة بعد وفاة أخيه - أن يعيد إلي الدولة وحدتها في وقت اشتد فيه خطر الاسماعيلية، وبدأت الحروب الصليبية. بوفاته سنة ٥١١هـ / ١١٧م اشتد النزاع وعاد من جديد حول العرش،

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٢٩ فما بعد، ص ٢٣٣.

ذلك أن محمود -الذي خلف أباه- لم يعترف به عمه سنجر -صاحب خراسان وما وراء النهر- بل أعلن نفسه سلطاناً، وبذلك أصبح للدولة -كما كان الحال من قبل - سلطانان.

علي أن أمر سنجر لم يستقر في بلاد ما وراء النهر وخراسان، ذلك أن الخوارزميين أقاموا ملكهم علي حساب دولته، واشتبكوا مع سنجر في عدة حروب، أنهكت قوّة، ومن ناحية أخرى تكرر النزاع بين الأمراء السلاجقة، وتطلع كل منهم إلي الوصول إلي السلطنة، الأمر الذي أدى إلي وقوع اشتباكات بينهم. وهكذا أصبحت الدولة السلجوقية منذ أواخر القرن الخامس الهجري مسرحاً للحروب الداخلية في الوقت الذي أحرق بها الأعداء من كل جانب. ^(١)

ازداد نفوذ الخوارزميين في الشرق الإسلامي في عهد السلطان تتش، وقربه الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وعهد إليه بتخليصة من كأبوس السلاجقة الذي قاسي منه العباسيون سنين عدداً، وقد لقيت هذه الدعوة استجابة من السلطان الخوارزمي، إذ تهيأت له الفرصة لمد نفوذه غرباً، وتقوية صلته بدولة الخلافة والسيطرة عليها بدلاً من السلاجقة. وبذلك يكتسب الخوارزميون مركزاً سياسياً مرموقاً في عالم الإسلام. ومهما يكن من أمر فقد سار تتش إلي الري سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م، واشتبك مع طغرل -آخر السلاطين السلاجقة، وانتصر عليه، وخر السلطان السلجوقي سريعاً، في ميدان القتال؛ وأرسل تتش رأسه إلي بغداد، وسيطر الخوارزميون علي أملاك السلاجقة في الشرق. وبذلك زالت الدولة السلجوقية.

^(١) الفاروق عمر: الحركة الشعبية، بغداد، ١٩٨٦م، ص ١٣٤.

- الخلافة العباسية في عصرها الأخير

(٥٩٠-٦٥٦هـ / ١١٩٣-١٢٥٨م):

رغم أن الخليفة في ذلك العهد الأخير تمتع بالسيادة والاستقلال على أرضه المحدودة فإن الخلافة كانت تلفظ آخر أنفاسها؛ فقد انحصرت سلطة خليفة المسلمين في بغداد وما حولها، وهكذا أصبح الخليفة في ذلك العهد أقل نفوذاً بكثير من حاكم إحدى الولايات حين كانت الدولة الإسلامية متماسكة الأطراف. (١) ولهذا فنحن نطلق على خلفاء هذا العهد لقب "خلفاء" تجوزاً، وقد مات الخليفة الناصر سنة ٦٢٢هـ فجاء بعده الظاهر (٦٢٢-٦٢٣هـ / ١٢٢٥-١٢٢٦م) ثم المستنصر (٦٢٣-٦٤٠هـ / ١٢٢٦-١٢٤٢م) ثم المستعصم (٦٤٠-٦٥٦هـ / ١٢٤٢-١٢٥٨م) وهو آخر الخلفاء العباسيين. وقد كان من بين هؤلاء من تمتع بصفات إيجابية كانت ترشحه لأن يكون من بين الخلفاء العظام لو وجد في عهد يتيح له استثمارها. ومن هؤلاء الخليفة الناصر الذي يصفه ابن الطقطقي بأنه كان "بصيراً بالأمور مجرباً سائساً مهيباً مقداماً عارفاً شجاعاً متأيداً حاد الخاطر والنادرة متوقفاً الذكاء والفتنة" (٢).

وقد كان المستنصر أيضاً يتحلى بالكثير من الصفات الشخصية الممتازة، ولكن هؤلاء الخلفاء جاءوا إلى الخلافة وقد أصابها الهرم والتآكل فوقفوا أمام أمراضها عاجزين؛ أما خلفاء العصر الأول فقد أتوا الخلافة في شببتها فمضت بهم حيث شاءوا هم لها.

فالذي لا شك فيه أن الخلافة كانت تموت ببطء منذ أواخر العصر الأول، وقد رأينا ماذا فعلت بها فتنة الأمين والمأمون، ثم رأينا ماذا جلب الخليفة المعتصم على خلفائه من محن حين اعتمد على العنصر التركي وتخلص من العنصر العربي والفرسي معاً. ورغم أن الخلافة أولت في عصر نفوذ الأتراك أن

(١) الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٢٤٢.

(٢) الفخرى، ص ٤٨٧.

تؤكد سيادتها ونجحت في ذلك إلى حد ما في عهدى المعتمد والمعتضد فإن ذلك كان صحوة الموت. وقد كان عصر البويهيين قمة المأساة في تاريخ الخلافة لما وصلت إليه خلاله من اضمحلال وانحطاط. صحيح أن الخلافة استردت بعض هيبتها واحترامها في عصر السلاجقة ولكن ذلك كان منحة من سلاطين السلاجقة لاحقاً أحرزه الخلفاء بجهدهم. وحين استقل الخلفاء بالسلطة في العصر الأخير لم يكن قد بقي في أيديهم شئ يمارسون سلطانهم فيه إلا بغداد وما يحيط بها، فإذا بنا نرى خليفة بلا خلافة.

وكان العالم الإسلامى قد وصل حينذاك إلى مرحلة من الضعف والانقسام والتفكك جعلت جموع المغول البربرية بقيادة هولاكو لا تجد عناء في اكتساحه وفي التقدم صوب بغداد لتقضى على كل ما تحمله الخلافة الإسلامية من معنى، واستسلمت بغداد لجيوش هولاكو في المحرم سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، و "بقي السيف يعمل فيها أربعة وثلاثين يوماً"^(١).

وأمر هولاكو بإعدام الخليفة المستعصم، "وجرى من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة فما الظن بتفاصيله:

وكان ما كان مما لست أذكره * فظن ظننا ولا تسأل عن الخبر^(٢)
يطلق على هذا العصر أيضاً العصر التركى وذلك لأن هذا العنصر قد تمكن من السيطرة على الجيش والإدارة وأصبح كما ذكرنا - خلفاء بنى العباس العوية في أيديهم.

وهذه العناصر التركية كان موطنها الأساسى بلاد ما وراء نهر جيحون أو ما يطلق عليه اسم إقليم تركستان، وكان هذا الإقليم قد تم فتحه في عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك على يد قتيبة بن مسلم، وبعد ذلك انتقلت إليه بعض القبائل العربية حيث استقرت هناك، وتزأوج العنصران التركى والعربى، وانتشر الدين الإسلامى في تلك المناطق انتشاراً واسعاً، كذلك نزحت أعداد كبيرة من

(١) أبو المحاسن: المجوم الزاهرة، ج ٧ ص ٥١.

(٢) ابن الطقطقى: الفخرى، ص ٣٠١.

الترك إلى الدولة الإسلامية غربا واستقروا في أقطارها المختلفة مثل مصر والشام والعراق .

ولما كان الترك عنصرا حربيا ممتازا، يمتازون بالقوة الجسمية والمهارة في القتال والفروسية، فقد سمح لهم العرب أول الأمر بالمشاركة في الدفاع عن بلادهم. وفي عهد الدولة العباسية اشترك هؤلاء الترك في جيش الدولة الأساسي فجلبت منهم أعدادا كبيرة لهذا الغرض.

وكان الخليفة المأمون هو أول أكثر من استخدم الترك في الجيش ولما اعتلى المعتصم عرش الخلافة جعلهم عصبته، بل وأسقط العرب من الديوان، وعنى بجنده من الترك وملابسهم وأسلحتهم عناية خاصة، وقد رأينا كيف أنه سمح لهم بدخول بغداد على ظهور الخيل وكيف سخط سكان العاصمة من ذلك وسرعان ما دب النزاع بين الفريقين فقرر المعتصم اتخاذ عاصمة جديدة هي مدينة سامرا لكي تكون مركز لقواته من الأتراك، وذلك سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥م، وإقامة دولة أموية جديدة هناك، هذه الدولة كانت مستقلة استقلالاً تاماً عن الخلافة العباسية في بغداد، غير أن عبدالرحمن لم يتخذ لقب خليفة وإنما اتخذ لقب أمير أو ابن الخائف فقد كان رأى الفقهاء في ذلك العنصر لا يسمح بتعدد الخلافات أو قيام خليفة جديد وهناك خليفة قائم أخذت له بيعة سابقة، كما كان الرأى أن الخليفة هو الذى كانت تقع في حوزته الأماكن المقدسة في مكة والمدينة وكانت في ذلك الوقت ضمن أراضي الدولة العباسية .^(١)

وظل الأمر كذلك حتى تولى الحكم فى الأندلس عبدالرحمن الناصر فاتخذ لقب خليفة، وفى ذلك يقول المؤرخ ابن أبى دينار فى كتابه المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ودانت لعبدالرحمن البلاد وبقي ملكا ثلاثا وثلاثين سنة، وتداولها بنوه من بعده ولم يخطب أحد منهم لبني العباس ولم يدخل تحت طاعتهم، إلى أيام عبدالرحمن الثالث الذى تلقب بالناصر لدين الله وتسمى بأمر المؤمنين .

(١) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

ونلاحظ أن الخلافة الأموية في الأندلس كانت تختلف عن الخلافة الفاطمية في المغرب والخلافة العباسية في بغداد. ففي الوقت الذي كان فيه خلفاء الدولة العباسية يحكمون بتفويض من الله كما يفهم من إحدى خطب الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور التي قال فيها.

"أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوقيعه وتأييده وحارسه على أمواله، أعمل فيه بمشيئته وأرادته، فسألوا الله أن يوفقني في الوقت الذي كان الخليفة الفاطمي فيه إماما معصوما من الخطأ يعرف أسرار الكون وخفائيه عن النبي μ عن طريق علي بن أبطالب بن عم الرسول μ وزوج ابنته فاطمة، وبهذا فإن الخليفة الفاطمي يستند على الحق الطبيعي الموروث". نجد أن الخلافة الأموية في الأندلس قامت على أساس ديمقراطي، فالخليفة إنسان وبشر يتعرض لما يتعرض له غيره من الناس، ومن حق الناس توجيه النقد إليه بل والمطالبة بعزله "وتمتلىء كتب التاريخ بما يؤيد هذا الرأي ومن ذلك تلك الرواية التي ذكرها المقرئ في كتابه "فتح الطيب من **فصن** أندلس الرطيب ويفهم منها أنه عندما قام الخليفة عبدالرحمن الناصر ببناء مدينة الزهراء وانفق عليها الكثير من الوقت والمال والجهد، عارضه الكثير وكان على رأس هؤلاء المعارضين المنذر بن سعيد البلوطي قاضي قرطبة الذي أخذ يعرض بالخليفة في مسجد الزهراء فلما كان موقف الناصر من هذه المعارضة، هنا تظهر الروح الديمقراطية التي كانت تميز الحكم الأموي في الأندلس إذ نجد أن هذه المعارضة تثير غضب الناصر على المنذر ويشكو ذلك لولده الحكم قائلاً: "والله لقد تعمدني المنذر بخطبته وما عنى بها غيري فأسرع في تقويمى وتفزيعى ولم يحسن السياسة في وعظي فزعزع قلبي كاد بعصاه بقرض ثم قرر ألا يصلى خلفه أبدا. وكان هذا هو العقاب الذي أنزله به دون أن يعزله أو ينزل به أي نوع من الإيذاء." (١)

* الخوارزميون والمغول

(١) النسوى: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ٣٨؛ حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٠٨.

- سقوط بغداد وانتهيار الخلافة العباسية

أسس الدولة الخوارزمية توشتكين - أحد الأتراك في بلاط ملكشاه - وكان يشغل وظيفة الساقى، ومازال يترقى في سلك الوظائف، وكان حسن الطريقة كامل الأوصاف، وقد أدب ابنه محمد وأحسن تأديبه، لذا وقع اختيار أحد قادة بركياروق عليه ليكون حاكماً علي إقليم خوارزم ولقبه خوارزم شاه سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م وكان حاكماً عادلاً، قصر أوقاته علي معدلة ينشرها، ومكرمة يفعلها، وقرب أهل العلم والدين، فأزداد ذكره حسناً ومحلّه علواً، ولما ملك السلطان سنجر السلجوقي خراسان، أقر محمد خوارزم شاه علي إقليم خوارزم وأعمالها، فظهرت شجاعته وكفايته، وعظم سنجر محلّه وقدره.

لما توفي محمد بن توشتكين ولي ابنه أئمز، فمد ظلال الأمن وأفاض العدل وقربه السلطان سنجر، وعظم ابنه واستصحبه معه في أسفاره وحروبه، فظهرت منه الكفاية والشهامة، فزاده تقدماً وعلواً عمل أئمز علي توسيع رقعة دولته علي حساب الدولة السلجوقية المتداعية، وانتهاز فرصة تهديد الخطر للسلاجقة، لكن سنجر أحبب محاولته، وهزمه، لكن أئمز استجمع قوته، وانتهاز فرصة سيطرة الخطر علي بلاد ما وراء النهر، واستولي علي خراسان، وجلس علي عرش سنجر، واستولي علي أمواله وجواهره سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م وقطع الخطبة للسلطان سنجر، لكن سنجر استطاع أن يسترد إقليم خراسان من أئمز سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م، وتعهد أئمز بالإعتراف بسيادة الدولة السلجوقية. (١)

علي أن الدولة الخوارزمية أخذت تزداد قوة، بينما أخذت الدولة السلجوقية في الضعف والانحلال بعد وفاة سنجر، ومدت الدولة الخوارزمية نفوذها علي البلاد التابعة للسلاجقة، واستطاع السلطان الخوارزمي تتش أن يهزم ويقتل آخر السلاطين السلاجقة، ويستولي علي ملك السلاجقة في العراق، ويستولي علي أصفهان والري.

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٣٢٩ .

ولما توفي تتش سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩م خلفه ابنه علاء الدين محمد خوارزم شاه. فسار علي سياسة أبيه الرامية إلي توسيع حدود دولته، فاستولي علي معظم إقليم خراسان، واستطاع أن يهزم الخطا سنة ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م، ويبسط سيطرته علي بلاد ما وراء النهر، واستولي علي إقليم كرمان ومكران، والأقاليم الواقعة غرب نهر السند وعلي ممتلكات الغور في أفغانستان، وبذلك بلغت الدولة الخوارزمية أقصى اتساعها في عهد السلطان علاء الدين خوارزم شاه، إذ امتدت من حدود العراق العربي غربا إلي حدود الهند شرقا، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالا إلي الخليج الفارسي والمحيط الهندي جنوبا.

علي أن الدولة الخوارزمية قد جأورت دولة المغول - ولم يكن هناك بد من حدوث احتكاك بين الدولتين، وكان العالم الإسلامي في ذلك الوقت قد مزقته الانقسامات، ولم تعد فيه دولة قوية إلا الدولة الخوارزمية، وكان الخليفة العباسي الناصر يخشي بأس هذه الدولة، لأن خوارزم شاه كان يطمع في بغداد فسعي إلي تدبير المؤامرات والدسائس للنيل منه، بل تقاعس عن نصرته، ولكن لا يمكن قبول ما أشيع في ذلك العصر من أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله حرّض المغول علي غزو أعدائه الخوارزميين، وكان من الطبيعي أن تكثر الشائعات في هذه الأيام المضطربة، وكان السلطان جلال الدين منكبرتي يتهم الخليفة العباسي بأنه يحرض عليه المغول دون أن يمتلك دليل علي اتهامه. والخليفة العباسي يعلم يقينا أن غزو الدولة الخوارزمية يؤدي بالضرورة إلي تهديد الدولة العباسية المتداعية، ذلك أنها تقف سدا منيعاً يحول بين المغول وبين العراق. (١)

نشأ المغول في صحراء "جوبي" القاحلة، وهم شعب يشبه الترك في اللغة والمظهر العام، وعاش هؤلاء في بلادهم في شظف من العيش، يعملون بالصيد والرعي في حياة كلها ترحال وتجوال وكثر بينهم الشقاق وتكررت إغارتهم علي

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣٣٠ - ٣٣٦.

المناطق الخصبة المجاورة، لذا شيد الصينيون سور الصين العظيم درعا لشهرهم وحماية لبلادهم من شهرهم المستطير.

ظلت هذه القبائل في منازعاتها وتمزقها حتي ظهر منهم شاب في ريعان شبابه الغض هو تيموجين، واستطاع أن يوحد هذه القبائل تحت لوائه، وهذا الشاب نشأ يتيماً، وكان أبوه زعيماً لأحدي قبائل المغول، ولما توفي انفض أفراد القبيلة من حول تيموجين واستصغروا شأنه واستضعفوه، وعاش هذا الفتى مع أسرته عيشة بؤس وحرمان وشفاء، وكان عليه أن يتلمس سبل العيش، وقاسي الكثير من النكبات، وهذه المحن أصقلته وأخرجت منه رجلاً صلباً شجاعاً.

ولما بلغ تيموجين مبلغ الرجال، التف أفراد قبيلته حوله لما أظهره من قوة البأس ومضاء العزيمة، ولم يكتف بذلك بل ظل يناضل حتي تمكن من السيطرة علي المغول. وقضي علي كل الحركات التي تهدف إلي عرقلة جهده، ولم يأت عام ٦٠٢ هـ سنة ١٢٠٦ م حتي كان قد أخضع لسultanه كل بدو صحراء "جوبي"، واتخذ من حصن قراقورم مقراً له ووضع نظاماً للقبائل الخاضعة له يسمي الياسا وهو دستور اجتماعي وحربي صارم أساسه الطاعة العمياء للسلطان، وأخبر تيموجين الرؤساء بأن السماء أضفت عليه اسماً جديداً هو جنكيز أي إمبراطور البشر أو أعظم حكام الأرض.

تطلع جنكيزخان - بعد أن وحد القبائل المغولية تحت سيطرته- إلي توسيع رقعة دولته، وكان المجال الحيوي له بلاد الصين التي تقع جنوب مملكته - حيث الخصب والرخاء والأزدهار- فشن عدة حملات علي إمبراطورية "كين" واستولي علي مسطحات شاسعة من بلاد الصين، وسيطر علي بكين سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م.

أصبحت إمبراطورية المغول القوية تجأور الدولة الخوارزمية العظيمة، دولة الإسلام القوية البأس، ولم يكن هناك بد من حدوث احتكاك بين الدولتين العظيمتين، ولا بد أن تنقض أحدهما علي الأخرى، ووجد السبب لاشتعال الحرب، فقد وفد جماعة من التجار من رعايا جنكيزخان إلي أترار في الدولة الخوارزمية،

فارتاب فيهم ينال خان حاكم أترار - وأرسل إلي السلطان محمد خوارزم شاه يخبره، فأمره بالقبض عليهم وإعدامهم علي اعتبار أنهم جواسيس بعث بهم جنكيزخان، وظاهر أمرهم التجارة، وهؤلاء التجار كان مركزهم التأكد من المعلومة خُجندة^(١) وتسير منها قوافلهم إلي منغوليا تحمل إلي خان المغول الهدايا من نسيج الكتاب والديباج، وكان يشجعهم علي ممارسة نشاطهم التجاري.

ساعات العلاقات بين الدولتين عقب قتل التجار، وشعر السلطان خوارزم شاه بمغبة قتل التجار، فأرسل إلي دولة المغول جواسيس لاستطلاع قوتهم، ومعرفة نواياهم، فعادوا إليه، وأخبروه بكثرة عددهم، وأنهم من أصبر خلق الله علي القتال لا يعرفون هزيمة، وأنهم يعملون ما يحتاجون إليه من سلاح أيديهم، وعلي الرغم من ذلك فقد تشدد علاءالدين محمد مع جنكيزخان، ولم يقبل شروطه في تجنب الحرب، فقد أرسل جنكيزخان إلي خوارزم شاه رسلاً يطلب منه تسليم حاكم أترار، وجاء في رسالة خاقان المغول: فإن كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان - حاكم أترار - كان من غير أمر صدر منك فسلم ينال خان إلي لأجازيه علي ما فعل حقنا للدماء، لكن السلطان الخوارزمي اعتقد أنه لو لاطف جنكيزخان في الجواب لم يزده ذلك إلا طعماً فيه، فتماسك وتجلد، بل أمر بقتل الرسل سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ويقول الجويني: "إن دمهم أهرق، ولكن كل قطرة منه قد كفر عنها بسيل جارف من الدماء، وإن رعوسهم قد سقطت، ولكن كل شعرة منها قد كلفت مئات الألوف من الناس حياتهم"، ويقول النسوي: "فيالها من قتلة هدرت دماء الإسلام، وأجرت بكل نقطة سيلاً من الدم الحرام، فاستوفي عن الغيظ فيضاً، وأحلي بكل شخص أرضاً".

(١) خُجندة: وهي بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ سيحون، بينها وبين سمرقند عشرة أيام مشرقاً. ياقوت الحموي:

ونستطيع أن نقول: إن الدولة الخوارزمية كانت ستعرض لغزو المغول سواء حدثت مذبحه أترار أو لم تحدث، ذلك أن دولة المغول قامت علي أساس التوسع والغزو وضم الأراضي إليها بالقوة، ونعرف من تاريخ المغول أنهم استمروا في ضم بلاد واحتلالهم في ثرواتها وخيراتها، ولكن مذبحه أترار كانت بمثابة الشرارة التي فجرت الموقف بين الدولتين وعجلت بغزو المغول للدولة الخوارزمية.

اتسمت غارات المغول علي الدولة الخوارزمية بالوحشية والهمجية، وتدمير المدن والقرى، وهذا يتضح من كتابات المعاصرين، ويقول ابن الأثير: "لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها..... وهؤلاء لم يبقوا علي أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة....." وكان مظهر المغول يدعو إلي الفزع والجزع، ويلقي الرعب في النفوس، كانوا قساة مع أعدائهم، لم يبقوا علي أحد من قاهريهم، وأشاعوا الخراب والدمار في كل بلد ملكوه، حتي تحولت المدن العامرة، والقرى والمزارع الخصبة إلي صحاري قاحلة، وكانوا يستذلون أسراهم، بحيث يجعلونهم في طليعة الجيوش التي يحاربون بها، وإذا بدأت المعركة يقذفون بهم في المقدمة، يتخذونهم دروعا لهم، وقد يقذفونهم في الفجوات التي يحدثونها في أسوار المدينة ليملأوا الخنادق بأجسامهم، وإذا سلم أحد منهم، يتخلصون منه بالقتل، حتي يفسحوا المجال للأسري الجدد علي كل حال اكتسح هذا الزلزال المدمر، وتلك القوي الجامحة العالم الإسلامي وأتوا علي الأخضر واليابس، وأهلكوا الحرث والنسل. (١)

أعد جنكيزخان جيوشه لمهاجمة الدولة الخوارزمية، وقسم جنده إلي أربعة جيوش، الأول بقيادة ابنه جغتاي وأوكتاي، ومهمته فتح مدينة أترار، والجيش الثاني أسند قيادته إلي ابنه جوجي، ووجهته البلاد الواقعة علي ساحل

(١) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، ج ١، ص ٢٧٥-٢٧٩.

نهر جيحون، والثالث مهمته فتح مدينتي بناكت^(١) وُجُنْدَة علي نهر سيحون. أما الجيش الرابع فيتكون من أغلب قوات المغول، ويقوده جنكيزخان ومعه ابنه تولوي، وجهته وسط إقليم ما وراء النهر.

سارع المغول إلي مدينة أترار، وشدودو هجارتهم عليها، وقد اعتصم ينال خان - حاكمها - بقلعتها، ودافع بكل بسالة بل أتعب المغول وأجهدهم شهرا كاملا بضرباتة القوية لهم، حتي فقد معظم رجاله، وفقدت المون والأقوات وشدد المغول حصارهم للقلعة، فألقي بنفسه إلي سقف أحد المنازل، وظل يقاتل المغول بكل ما أوتي من قوة حتي قبض عليه المغول، وسيق إلي جينكز خان - وكان أمام سمرقند - فأمر بسك الفضة وصبها في أذنيه وعينيه، فقتل تعذيبا، وبذلك انتقم جنكيزخان من قاتل التجار، وسقطت مدينة أترار - مفتاح بلاد ما وراء النهر سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م بعد أن قتل المغول سكانها ودمروها تدميراً سار الجيش الثاني بقيادة جوجي إلي مدينة جند - علي نهر سيحون - بعد أن استولي في طريقه علي المدن والحصون علي ساحل سيحون. ولما بلغ المغول جند، رأى قائدها ألا قبل له بالمغول، فغادر البلدة تاركاً أهلها يدافعون عن المدينة، وشدد المغول هجارتهم، ورفعوها بالمنجنقات حتي اقتحموها وبذلك سقطت جند في أيدي المغول.

اتجه الجيش الثالث إلي منطقة فرغانة والوادي الأعلى من نهر سيحون، وحاصر هذا الجيش بناكت، ولم يجد المغول مقاومة من سكان هذه المدينة فاستولوا عليها بسهولة ويسر، وعلي الرغم من إعطائهم الأمان لأهلها، إلا أنهم قتلوا منهم الكثيرين، ولم يبقوا إلا علي من التمسوا فيهم المقدرة علي خدمتهم. ثم سار المغول إلي وُجُنْدَة - وهي مدينة جميلة اشتهرت بحدائقها الغناء وانتعاش التجارة فيها، وشجاعة أهلها وقوة بأسهم - وقد قاوم حاكمها الشجاع

(١) بناكت: مدينة بما وراء النهر، وهي مدينة كبيرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ١، ج ٢، ص ٣٩١.

تيمور لنك المغول بكل بسالة، حتى ضعفت قوته، فأمتطي جواده إلي خوارزم حيث كان يربط السلطان خوارزم شاه، ودخلت حُجُنة في حوزة المغول.

سارت جيوش المغول بقيادة جنكيزخان إلي بخاري ودارت الحرب بين جند المغول والجند الخوارزمي ثلاثة أيام هزم فيها الخوارزميون، وفر الجند الخوارزمي فضعف أهلها ووهنت عزيمتهم، واعتصم بعضهم في القلعة، وشدد المغول هجماتهم عليها ثلاثة أيام، وقاتل من فيها حتى قتلوا جميعاً، وتسلم جنكيزخان القلعة، وأمر أعيان المدينة وتجارها بالاجتماع معه، وجردهم جميعاً من أموالهم، وطردهم من المدينة، وقتلوا كل من صادفوه في بخاري من أهلها بعد ذلك، ونهبوا البلدة، وكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من النساء والرجال والولدان وتفرقوا ومزقوا شر ممزق، وأحرقت المساجد والمدارس، وبعد أن استولي المغول علي بخاري، وساروا إلي سمرقند، وأمّامهم الأسري مشاة علي أقبح صورة، وكل من عجز عن المشي قتل، وحاصروا سمرقند، وبها الكثير من الجند الخوارزمي، وأعد أهل سمرقند العدة لمقاومة المغول، ودار قتال شديد بين الفريقين، هلك فيه أكثر من الجند الخوارزمي، الأمر الذي أضعف مقاومة أهل سمرقند، وطلبوا الأمان، وأجابهم المغول إلي طلبهم، وفتحوا أبواب البلدة، وطلبوا من أهل البلدة تسليم أسلحتهم وأمتعتهم ودوابهم، ففعلوا تجنباً للقتل، ولكن المغول كعادتهم وحبهم لسفك الدماء، أعملوا السيف في رقاب الأهلين، حتى أفنؤهم عن آخرهم، ودخلوا البلد، ونهبوا ما فيه، وأحرقوا الجامع، وبذلك دخلت سمرقند في حوزة المغول سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م. (١)

وبعد أن امتلك المغول بخاري وسمرقند، أعد جنكيزخان جيشاً يتألف من عشرين ألف مقاتل، وأمر بالتوجه إلي خوارزم شاه والبحث عنه أينما وجد" ولو تعلق بالسماء حتي تدركوه وتأخذوه، فسارت جيوش المغول تتعقب خوارزم شاه الذي أخذ يضرب في الأرض وينتقل من بلد إلي بلد، وجند المغول تطارده،

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٤٤٥-٤٤٦.

وانتهى به المطاف إلي الاستناد - وهي من أمنع النواحي في إقليم مازندران - وباغته المغول، فلجأ إلي أحدي جزر بحر قزوين، وقد انتابه اليأس من الحياة ومرض، وكان يقول: "ولم يبق لنا ملك ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر، فما الدنيا لساكنها بدار، ولا **ركونه** إليها سوي انخداع واغترار، وأقام بالجزيرة في عزلة تامة يعاني المرض وكان أهل مازندران يقدمون إليه كل ما يشتهي، وقبل وفاته سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م أوصي بالسلطة من بعده لابنه جلال الدين، وولي جلال الدين منكبرتي السلطة بعد أن سيطر المغول علي بلاد ما وراء النهر - أهم أجزاء دولته المتداعية وامتلكوا إقليم مازندران رغم حصانته ومناعته، ثم اتجهوا إلي الري، وفي الطريق التقوا بالملكة ترکان خاتون - والدة السلطان علاء الدين - وقد غادرت خوارزم علي أثر تهديد المغول، ولم تر فيها دار قرار واصطحبت ما أمكنها استصحابه من حرم السلطان وصغار أولاده ونفائس خزانته، وقبض المغول عليها، واستولوا علي ما معها من ثروات هائلة، وهكذا قضت هذه الملكة أيامها الأخيرة في أسر المغول، وجدير بالذكر أن ترکان خاتون كانت ذات مهابة ورأى، تنظر في المظالم وتحكم فيها بالعدل، وتتصف المظلوم، من الظالم، ولها إصلاحات كثيرة، وكان لها من كتاب الإنشاء سبعة من مشاهير الكتاب.

باغت المغول الري علي حين غفلة من أهلها وملكوها ونهبوها، واسترقوا نساءها، وقتلوا أطفالها، ثم غادروها في طلب خوارزم شاه، وعاثوا في البلاد التي مروا بها نهباً وفساداً، واقتربوا من همذان، فقدم أهلها للمغول الأموال والهدايا حتي يكفوا عن قتلهم وسيطر المغول علي هذه البلدة ، ثم زحفوا إلي قزوين، وامتلكوها عنوة وقهراً . وبذلك سيطر المغول علي بلاد العراق العجمي .

أثار المغول الرعب في بلدان الدولة الخوارزمية حتي أن اقتربهم من مدينة أو قرية، يثير الفرع في النفوس، فيهجرون بلدانهم أو يقدمون فروض الولاء والطاعة لأعدائهم. وبذلك استسلمت البلاد الإسلامية للمغول في سهولة ويسر إلا أن استسلام الأهليين لم ينجهم من بطش المغول وويلاتهم، وظل

المغول يواصلون تقدمهم حتى بلغوا تبريز - عاصمة أذربيجان - ويحكمها أوزبك بن أبلهوان وهو شيخ بلغ من العمر أرزلة، يقضي وقته في الشراب، ولا يكاد يفيق، ولما اقترب المغول من بلاده، أرسل إليهم المال والهدايا والثياب والدواب، وصالحهم ثم اتجهوا إلي ساحل البحر حيث المراعي الكثيرة اللازمة لدوابهم، وواصلوا سيرهم حتى بلغوا موقان، ودخلوا في معارك حامية مع أهالي بلاد الكرج وهزموهم، وامتلكوا مراغة سنة ٦١٧هـ وبذلك سيطروا علي أذربيجان وبلاد الكرج. (١)

شرع جنكيزخان بعد أن امتلك بلاد ما وراء النهر وبلاد العراق العجمي وأذربيجان إلي السيطرة علي خراسان وخوارزم حتي يتم له السيطرة الكاملة علي بلاد الدولة الخوارزمية قاطبة، فأعد جيشين، الأول عبر جيحون وقصد مدينة بلخ، وطلب أهلها الأمن فأمنهم المغول سنة ٦١٧هـ، ولم يتعرض المغول لهم بالقتل، والنهب وأدخلوا البلدة في حوزتهم، وواصلوا تقدمهم في بلاد خراسان، فسقطت في أيديهم، البلدة تلو الأخرى ثم حاصروا مرو، وشددوا عليها الحصار حتي استسلمت ثم مضوا في قتل أهلها، ونهبوا عليهم أرباب الحرف والصناعات من سكان مرو، ويقال إنهم أجهزوا علي أهل البلدة جميعهم حتي بلغ عدد القتلي سبعمائة قتيل، ثم ساروا إلي نيسابور، فامتلكوها بعد حصار دام خمسة أيام، وارتكبوا مع أهلها من الفظائع ما ارتكبه مع غيرهم، وأقاموا في البلدة خمسة عشر يوماً ينهاون ويدمرون، وواصلوا مسيرتهم حتي بلغوا طوس، وامتلكوها ثم ساروا إلي هراة، وبسطوا سيطرتهم عليها ومنها اتجهوا إلي غزنة، فالتقوا بالسلطان جلال الدين منكبرتي، ودارت معركة انتصر فيها خوارزم شاه علي أعدائه.

أما الجيش المغولي الذي اتجه إلي خوارزم فقد لقي مقاومة باسلة من أهلها، ودارت بين الفريقين معارك ضارية، وصمد أهل خوارزم للقتال الذي دام

(١) النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ٤٠-٤١؛ حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١١٠-١١١.

خمسة أشهر، وقتل من الفريقين خلق كثير، وبلغ الأمر بالمغول أن أرسلوا إلي جنكيزخان يطلبون منه النجدة وأمدهم بجيش كبير، وتمكنوا من الاستيلاء علي خوارزم بعد تعب وعناء؛ وبعد أن امتلك المغول خوارزم بعد هذا الجهد الشاق والتضحيات الكثيرة، قتلوا كل من فيه، ونهبوا كل ما فيه، ولم يكتفوا بذلك بل فتحوا ماء حيثحول علي خوارزم.

فغرقت البلد، وتهدمت الابنية، ولم يسلم من البلد أحد، " فمن اختفي من النار أغرقه الماء، ومن سلم من الماء قتله الهدم، فأصبح البلد خرابا يبابا، كأن لم يغن بالأمس".

ولي السلطان جلال الدين منكبرتي- كما رأينا- في وقت حرج، إذ استولي المغول علي معظم المملكة، ونهبت خزائنها، مزق جيشها، وكان جلال الدين شجاعا مقداما، اعتزم استرداد ملكه السليب، ورد الغزاه عن بلاده، واستطاع جمع شمل جنده المبعثرين في البلدان الخوارزمية، وأقام في غزنة بعد أن استردها من المغول، ونظم جيشا قوامه ستون ألف مقاتل، وقد أزعج ذلك جنكيزخان، ورأى التخلص من خصمه، فأرسل جيشاً إلي غزنة، وألتقي بالجيش الخوارزمي في معركة حامية الوطيس، أنزل الله فيها نصره علي المسلمين، وانهزم المغول شر هزيمة وقتل المسلمون منهم كثيرين وكان لهذا النصر أهمية كبيرة في البلاد الإسلامية التي مزقتها هزائم المغول المتكررة، وعاش أهلها في يأس وفتنوط وتمزق، فأرتفعت الروح المعنوية عند المسلمين وتيقظوا وثاروا علي المغول، وقتل أهل هراة وإليهم المغولي.

سار جلال الدين علي سياسته الرامية إلي طرد المغول من بلاده، وأرسل إلي جنكيزخان يتوعده ويهدده ويقول: " في أي موضع تريد يكون الحرب حتي نأتي إليه" فلم يتغاض جنكيزخان عن هذا التهديد، وشن الحرب من جديد علي جلال الدين الذي أصبح يشكل خطراً علي مملكته المترامية الأطراف، ولكن السلطان الخوارزمي انتصر مرة أخري علي جيش جنكيزخان ، وقتل الكثير من المغول، وغنم الخوارزميون ما معهم، واسترد المسلمون أسراهم من العدو، لكن

الخوارزميين انشغلوا بجمع الغنائم، وكانت تفوق كل وصف، وتنازع جند السلطان حول الغنائم نزاعاً أدى إلي انقسام خطير في الجيش عجز السلطان عن تداركه، وفارق فريق من الجيش الخوارزمي المعركة بقيادة بغراق إلي بلاد الهند، وحاول جلال الدين عبثاً أن يثني هذا الرجل عن عزمه، وأوضح له خطورة عمله هذا علي الإسلام والمسلمين، وألح عليه في ترك الخلاف والشقاق بل بقي بين يديه، لذلك ضعف أمر جلال الدين بمفارقة معظم جيشه له، ونهض عليه عدو الله بجيوشه ودارت المعركة بين الجمعيتين علي حافة نهر السند، وكادت أن تدور الدائرة علي المغول، لولا أن نصب جنكيزخان كميناً أدى إلي قتل كثير من الخوارزميين، وحلت الهزيمة بالمسلمين، وكان الرجل منهم يأتي النهر فيهوي بنفسه في تياره، وهو يعلم أنه لا بد غريق" وأن ليس له إلي الخلاص طريق" وأسر ولد جلال الدين، وكان غراً في الثامنة من عمره، وقتل بين يدي غريمة جنكيزخان ولما عاد جلال الدين إلي حافة السند سيراً ، رأي والدته وأم ولده وجماعة من حرمة يصحن بأعلي صوتهم بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر، فأمر بهن فغرقتن" وهذه من عجائب ألبلايا ونوادر المصائب".

وعبر جلال الدين نهر السند مع أربعة آلاف من رجاله متجهين إلي الهند "حفاة عراة كأنهم أهل النشور، حشروا فبعثوا من القبور" وقد أعادت الهزيمة التي لحقت بالخوارزميين إلي المغول هيبتهم، واستردوا قوتهم، وامتلكوا غزنة التي خلت من الجند، وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم وأسروا النساء، ودمروا البلدة تدميراً، حتي أصبحت غزنة خراباً دماراً .^(١)

اعتزم جلال الدين استرداد قوته في بلاد الهند، واستعان بسلطان دهلي لكن "التمس" توجس خيفة من جلال الدين، وقضي في الهند ثلاث سنوات واشتبك مع سلطان دهلي في عدة معارك، وخشي قباجة- حاكم السند- من إقامة الخوارزميين في ولايته، إنها قد تؤدي إلي تعقب المغول لهم، وما ينجم عن

(١) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ ، مجلد ٢، ج ١، ص ٢٦٨-٢٧١.

ذلك من خطر داهم علي بلاده، ولكن جلال الدين أوقع بهم الهزيمة، ولما علم جلال الدين أن المغول يعتزمون القدوم إلي الهند والنيل منه، سار إلي دهلي، وأرسل إلي سلطانها - ألتمش بأن يعطي جنده حق الإقامة في دهلي، لكن السلطان المملوكي اعتذر عليه بحجة أن حرارة الجو في دهلي لا تناسب الخورزميين، ذلك أن سلطان دهلي خشي أن ينضم جنده الترك في دولته إلي سلطان الخوارزميين، جلال الدين منكبرتي، وأرسل إلي السلطان يقول: ولا يليق بمثلي أن يجرّد السيف في وجه مثلك ليس يخفي ما وراءك من عدو الدين، وأنت اليوم سلطان المسلمين وابن سلطانهم، ولست أستحل أن أكون عليك عوناً. وأن رأيت زوجتك بابنتي لتحتكم الفتنة.

وعلم السلطان جلال الدين أن التمش - سلطان دهلي - وسائر ملوك الهند ورجالاتها وأصحاب ولايتها قد تآمروا علي طرده من ديارهم. ولم يتغاض جلال الدين موقف سلطان دهلي العدائي منه، فاشتبك مع قواته بالقرب من دهلي، ثم انسحب إلي لاهور، وكثر جمع جلال الدين بما انضم إليه من الجند التابعين لأخيه غياث الدين - حاكم العراق - كذلك انضمت إليه قبائل الكهركية الهندية - وكانوا ناقلين علي قباجة، فكثر جمعه واشتد بأسه، وعظم أمره، وتمكن من انتزاع بعض البلدان من والي السند.

عادت أقاليم الدولة الخوارزمية إلي مواطنها الأصلية، فعبر جلال الدين نهر السند سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥م وقصد إيران، واشتبك مع المغول في عدة معارك.

عادت معظم بلدان الدولة الخوارزمية إلي حوزة السلطان جلال الدين منكبرتي "ولجأ إليه حكام المدن والبلاد الخوارزمية يعلنون ولاءهم وبهجتهم بالتخلص من حكم المغول وأبقي بعضهم علي ما بيده، وعزل بعضهم" وأفرجت أيام السلطان عن الناس الكرب، وأطفأت من نيران الفتنة ما التهب، وتفرق العمال والوزراء في الأطراف بتواقيع السلطان فضبطوها"

وبذلك استرد هذا السلطان الشجاع ملكه وسلطانه علي أقاليم خوارزم وغزنه وكرمان وفارس وخراسان ومازندران، علي أن بلاد ما وراء النهر بقيت في أيدي المغول.

خلف أجتاي جنكيزخان، وعول علي استرداد البلاد التي آلت إلي جلال الدين، وسير جيشاً كبيراً إلي الري فانتزعتها، واستولي علي همذان سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٣م وطارد المغول السلطان جلال الدين، وتعقبوه في موقان وتبريز وفي أذربيجان، واتجه إلي آمد فهزمت المغول هناك، وشردوا رجاله، وقتل المغول كل من تبعه في فراره، وظل السلطان ينتقل من بلد إلي بلد، والمغول تلاحقه أينما سار واتجه، حتي وصل إلي جبال كردستان، وقد شك فيه بعض الأكراد، وأخذوه وسلبوه وسائر من ظفروا به، فحين هموا بقتله قال لكبيرهم سرا: إني أنا السلطان فلا تستعجل في أمري ولك الخيار في إحضاري عند الملك المظفر شهاب الدين، فيغنيك، أو إيصالي إلي بعض بلادتي فتصير ملكاً، فرغب الرجل في إيصاله إلي بلاده، وتركه عند أمراته، ومضى بنفسه إلي الجبل لاحتضار خيله ولكن هاجم المنزل رجل من الأكراد، وقتله بعد أن تعرف عليه، ثاراً لمقتل أخ له علي يديه سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م.

وهكذا كان مصير هذا السلطان الشجاع، وبوفاته، زالت الدولة الخوارزمية. (١)

سقوط الخلافة العباسية

تتابعت انتصارات المغول وفتوحاتهم، واستولوا علي أذربيجان وبلاد آران وغالبية مدن جورجيا وأرمينية الكبرى، وزحفوا إلي شمال العراق، وهددوا أقاليمه الشماليه واشتبكوا عدة مرات مع جيوش الخلافة العباسية لاختبار قوتها أخذت الدولة العباسية في الضعف والتدهور في عهد المستعصم آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٤٠ - ٦٦٦هـ وكان رجالا لين الجانب ضعيف الوطأة لين العريكة قليل

(١) ابن القوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٦١.

الخبرة، وكانت الأخبار تصل الخليفة تباعا بزحف جيوش المغول ومع ذلك لم يتخذ الأهبة لمواجهةهم قبل أن يستفحل خطرهم ويستطير شرهم.

جاء المغول في عهد المستعصم إلي العراق عدة مرات حيث حدثت مناوشات بينهم وبين جيوش الخليفة لكنهم لم يوافقوا في الاستيلاء علي بغداد حتي سنة ٦٥٦هـ وعندما اعتزم هولاكو مهاجمة الاسماعيليه أرسل إلي الخليفة يطلب منه أن يمدّه بجيش ليعاونه في القضاء علي تلك الطائفة، فلما شأور الخليفة أتباعه حذروه أن يقدم علي هذا العمل وأدخلوا في روعه أن هولاكو يريد بهذه الوسيلة أن تخلو بغداد من الجيش حتي يتيسر له الاستيلاء عليها. (١)

ولما فرغ هولاكو من محاربة الاسماعيليه ودرهم قصد همذان في شهر رمضان سنة ٦٥٥هـ أرسل رسولا يحمل رسالة إلي الخليفة مصاغة في قالب من التهديد والوعيد لامتناعه عن إرسال المدد، ولم يكن هذا الاحتجاج في الواقع إلا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التي سبق أن منحت في بغداد للأمرء البويهيين علي لسان السلاجقة. يقول هولاكو في هذه الرسالة: لابد أنه قد وصل إلي شخصك علي لسان الخاص والعام ما حدث للعالم علي أيدي الجيوش المغولية منذ جنكيزخان، وعلمت أية مذلة لحقت بأمر الخورزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط في وجه أي طائفة من تلك الطوائف التي تولت السيادة وأعلم أنني إذا غضبت عليك فقدت الجيش إلي بغداد فسوف لا تنجو مني إلي السماء أو اختفيت في باطن الأرض فرفض الخليفة إنذار المغول وأرسل هولاكو يتوعده إن هو حاول غزو بلاده علي الرغم من أنه لا يملك القوة اللازمة لمواجهة هولاكو وكان المسلمون في حالة شديدة من الضعف و الانقسام، لذلك كان طبيعيا عدم جدوي تهديدات الخليفة، بل كان لها علي العكس أسوأ الأثر في نفس هولاكو فاعتزم قبل كل شئ فتح بغداد.

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣٨٣-٣٨٤؛ ابن الوردي: تاريخه، ج ٢، ص ٢٢٠-٢٢٥.

وصل رسل الخليفة إلي هولاءكو، فلما اطلع علي رسالة الخليفة وعلم بما لحق رسله من أذي العامة في بغداد غضب غضباً شديداً وأعاد رسل المستعصم وحملهم رسالة أخري تضمنها إنذاراً نهائياً له صيغ في بهجة شديدة عنيفة جاء فيها : لقد فتنك حب المال والعجب والغرور بالدولة الفانية بحيث لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين فإنني متوجه إلي بغداد بجيش كالنمل والجراد.^(١)

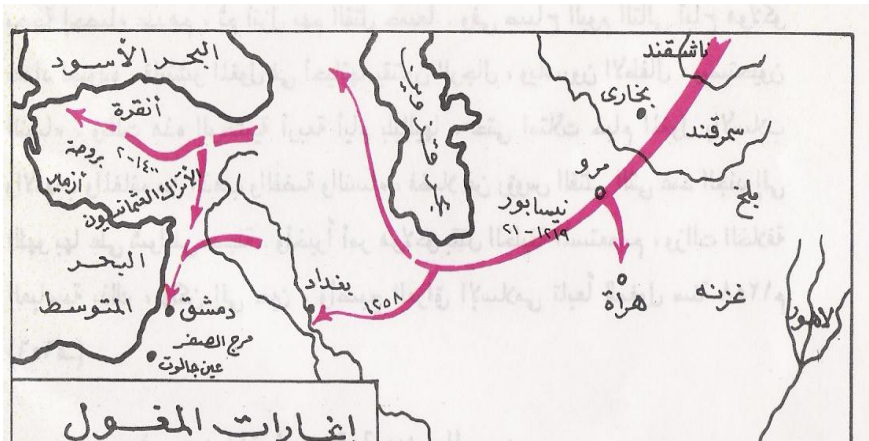
رأي وزير الخليفة مؤيد الدين العلقمي بذل الأموال والتحف والهدايا وإرسالها إلي هولاءكو مع تقديم الاعتذار له، وكان يري ذكر اسم هولاءكو في الخطبة ونقشه علي السكة حتي يبعد هولاءكو عن غزو بغداد، ولكن الخليفة رفض العمل بمشورة الوزير وأصر علي إعداد العدة للدفاع عن بغداد.

وقبل أن يقدم هولاءكو علي غزوة بغداد استشار المنجمين فيما يتعلق بأحكام النجوم وطالع السعد والنحس وقد أشار عليه فلكي مسلم يعطف علي الخليفة بعدم غزو بغداد فقال له: الحقيقة إن كل ملك تجاسر حتي هذه اللحظة علي قصد الخلافة والزحف إلي بغداد لم يبق له عرش ولا جاه وإذا أبي الملك أن يستمع لنصائحي وتمسك بمشروعه فسوف تحدث هذه الحملة خللاً في نظام الكون، فضلاً عن أنها ستكون وبالاً علي الخان نفسه إذ سيهلك ويهلك الزرع والحيوان ولن تطلع الشمس ولن ينزل المطر. لكن منجمين آخرين أكدوا لهولاءكو نجاح مشروعه، ومهما يكن من أمر فقد أمر هولاءكو بتحريك جيشه من أطراف بلاد الروم والاتجاه إلي بغداد فأقام هولاءكو معسكره خارج بغداد من الشرق ولم يستطع جيش الخليفة منع المغول من الإقامة في الجهة الشرقية، وفي أوائل سنة ٦٥٦هـ حاصر المغول بغداد وأحكموا حصارها وأطلقوا يد التخريب في المدينة وفتحوا أقساماً منها ولما رأي الخليفة حرج موافقه أراد أن يثني المغول عن عزمهم علي إتمام الفتح فأرسل إليهم الهدايا القيمة ولكن هولاءكو لم يستجب لمحاولة الخليفة.

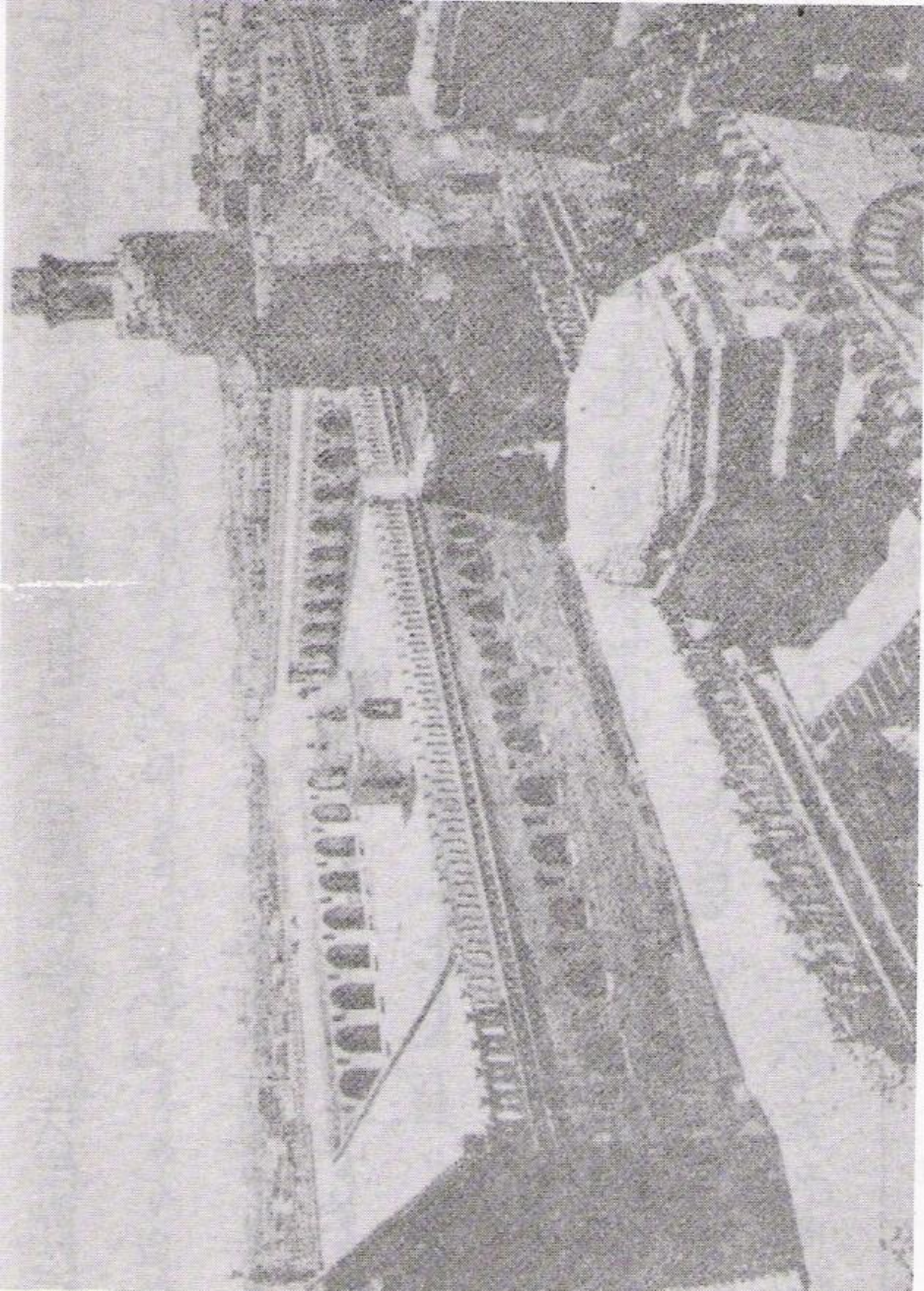
(١) عبد المنعم الصياد: المغول، ١١٢-١١٣، ١٢٨.

هزم هولاکو جيشاً أنفذه الخليفة لمحاربتة وأباده عن آخره عندئذ خرج الوزير ابن العقمي إلي هولاکو وتوثق منه لنفسه وعاد إلي المستعصم وأخبره أن هولاکو يبقيه في الخلافة، وحسن له الخروج إلي هولاکو فخرج من بغداد ومعه ابناؤه فلما وصلوا إلي هولاکو أحسن استقبالهم وطلب إلي الخليفة أن ينادي في الناس بإلقاء أسلحتهم والخروج من المدينة لإخضاعهم فلما ألقى الناس أسلحتهم وخرجوا قتلوا جميعاً. أما الخليفة وأولاده وكل ما يتعلق بهم فقد وضعهم هولاکو في معتقل. (١)

بعد ذلك أمر هولاکو بتردم الخنادق وهدم أسوار المدينة كما شيد جسراً علي نهر دجلة، ثم أعلن الهجوم العام علي المدينة في صفر من السنة نفسها ٦٥٦ هـ فدخلها المغول ودمروها وخرّبوا المساجد ودمروا القصور بعد أن سلبوا ما بها من تحف نادرة وأباحوا من القتل والنهب وسفك الدماء أربعين يوماً، واندلعت فيها ألسنة النيران في كل جانب من المدينة وأتت علي الأخضر واليابس ودمرت أكثر المدينة وجامع الخليفة، وعندما دخل هولاکو مدينة بغداد قصد قصر الخليفة واستولي علي ما فيه من نفائس وتحف نادرة، وأخيراً بعد أن سفك هولاکو من الدماء ما سفك وخرّب ما خرب أصدر أمر بالكف عن القتل، وأن ينصرف كل إلي عمله، ويقول المؤرخون أنه لما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقني والمقابر كأنهم موتي إذ ابتعثوا من قبورهم وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه فأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن مضي من الناس. (٢)

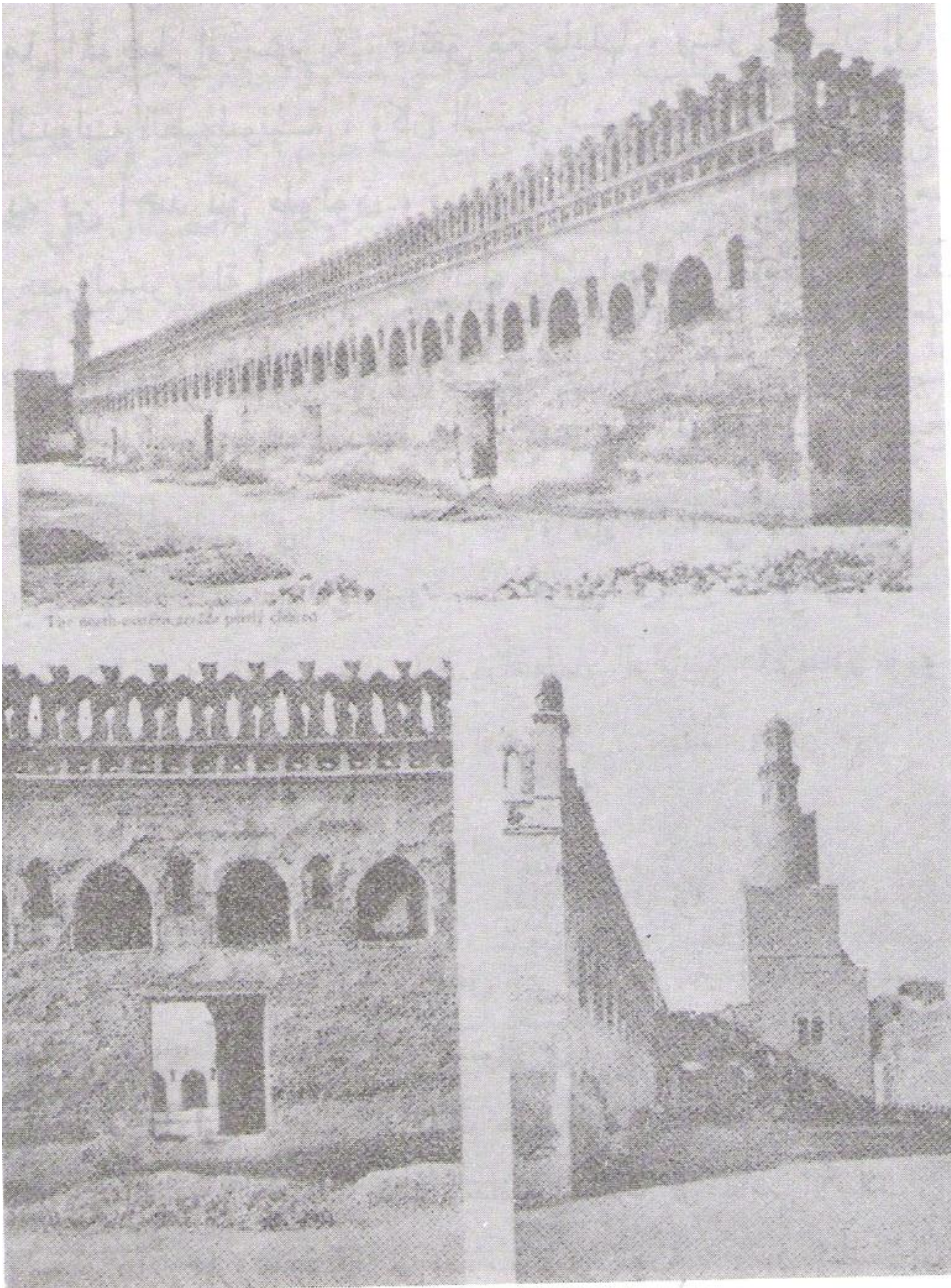


خريطة توضح إغارات المغول



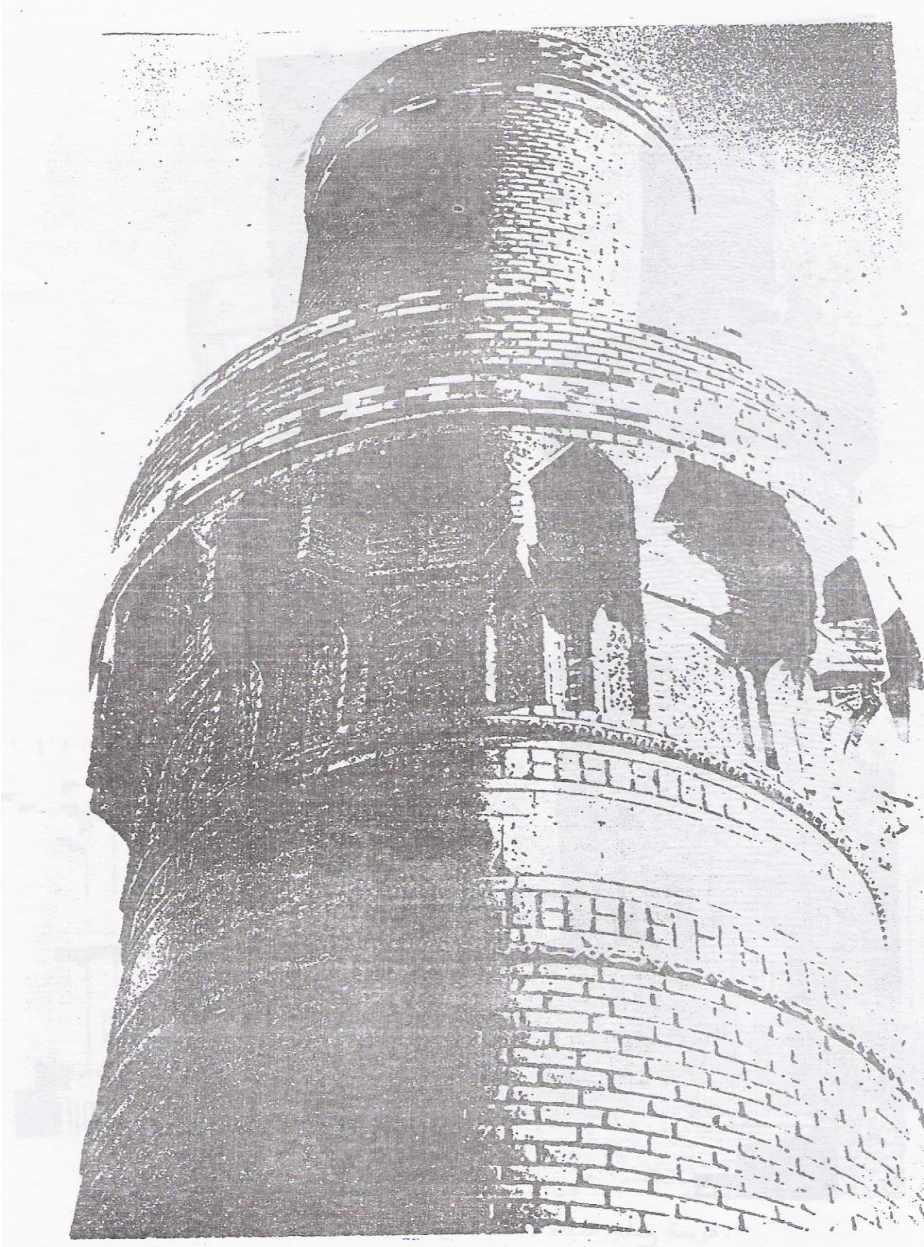
منظر لجامع ابن طولون فى القاهرة

يوسف العشى : تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص ١٤٦



لقطات من جوانب جامع ابن طولون

يوسف العش : تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص ١٤٨



مأذنة مسجد الجنائز

عبد الله كامل موسى: العباسيون وآثارهم المعمارية في العراق ومصر
وأفريقيا (لوحة رقم ٢)

الفصل الرابع نظم الحكم والإدارة في عصر الدولة العباسية

النظام الإداري:

الخلافة:

الوزارة :

- أنواع الوزارة في العصر العباسي :

* الدواوين :

- ديوان الرسائل .

- ديوان الخاتم .

- ديوان البريد .

- ديوان الزمام أو الأزمة .

* النظام القضائي:

- النظر في المظالم .

- المحتسب .

- الشرطة .

نظم الحكم والإدارة في الدولة العباسية :

النظام الإداري: الخلافة:

الإمام أو الخلافة رئاسة دينية وديونية نيابة عن النبي μ أو على حد قول المأوردي: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"^(١)، أو على حد قول ابن خلدون: حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الآخروية والديونية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا كلها ترجع ضد الشارع (أي المشرع) إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عند صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به^(٢)، والخليفة على هذا الأساس هو رئيس ديني وسياسي يجمع بين السلطتين الدينية باعتباره إماماً للمسلمين يؤمهم للصلاة، ويسهر على تطبيق العدالة، ويحیی الدين ويذب عنه، والديونية لأنه ينظر في مصالح المسلمين الدنيوية، والخلافة نظام مستحدث حتمته الظروف بعد وفاة النبي μ دون أن ينص على الخلافة عيناً لأحد من الناس، لا لأببكر ولا لعلي، كأنما أراد الرسول μ أن يترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من يصلح لها من بينهم جرياً على النظام القبلي الذي ألفه العرب، والإمامة لا تورث بإجماع الفقهاء، وإنما تتم بالاختيار.

ونظام الحكم الوراثي على هذا النحو غير معترف به في الإسلام^(٣)، ومع ذلك أقر الفقهاء أن جواز انعقاد الإمامة بولاية العهد ثابت بالإجماع أسوة بأببكر الذي عهد بها إلى عمر، فأثبت المسلمون إمامة عمر بعهد أببكر استناداً على أن الإمام هو ولي المسلمين والأمين عليهم، وأنه هو الذي ينظر في مصالح

(١) المأوردي: الأحكام السلطانية، مصر ١٢٩٨هـ، ص ٣.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، طبعة بيروت ١٩٦١م، ص ٣٢٨.

(٣) محمد ضياء الدين الرئيس: النظريات السياسية الإسلامية، القاهرة ١٩٥٢، ص ١٦٩.

الأمة لدينهم وديانهم، ويذكر ابن خلدون أنه يشترط في الخليفة خمسة شروط: العلم، العدل، الكفاية، سلامة الحواس والأعضاء، والنسب القرشي^(١).

وقد استمرت الخلافة قائمة على الشورى سارية في عصر الخلفاء الراشدين أي المردين من قبل النبي μ للسير على نهجه في الحكم، ثم تحول نظام الخلافة منذ قيام الدولة الأموية إلى ملك استبدادي وراثي، على غرار ما كان معروفاً عند الفرس والروم، وقد أطلق العرب على هذا النظام أسماء مختلفة، منها الفرعونية، بمعنى حكم الفرد المستبد، أو حكم الجور والطغيان، والكسروية والهرقلية، وكلاهما يحمل نفس المعنى، مع زيادة المظاهر الملوكية من الأبهة والترف، وإضافة نظام الوراثة^(٢).

فقد عدّل الأمويين في حكم الدولة من تطبيق نظام الخلافة الراشدة القائم على الشورى والمستند على الدين، إلى نظام الملك القائم على التوريث، والمستند على الدنيا، واستحالة الخلافة بذلك إلى نظام أقرب ما يكون إلى النظام الملكي، مع تمسك شكلي بفكرة البيعة التقليدية، والالتزام بمعاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق^(٣)، باستثناء الخلفاء المتأخرين من بني أمية، الذين سخرُوا طبيعة الملك لتحقيق أغراضهم الدنيوية، ومقاصدهم من ركوب الشهوات والملذات، ومنا استخفاف بحق الرئاسة^(٤).

ولم يتغير نظام الخلافة في العصر الأموي من حيث الشكل عنه في عصر الراشدين، من حيث ارتكازه على قاعدة دستورية ثابتة هي الإجماع، ثم ظهر التغيير في نظام الخلافة ومدلوله منذ قيام الدولة العباسية، وبالذات منذ خلافة أبي جعفر المنصور، الذي تصدى لمشاكل عديدة واجهته، وتغلب عليها جميعاً، ولذلك يعتبر المنصور صاحب الفضل في إرساء الأساس الحقيقي للنظام

(١) المأوردي، ص ٨

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ٣٤٢.

(٣) ضياء الدين الرئيس، ٩٤

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص ٣٦٧

العباسي، وحرص خلفائه من بعده على الدفاع عن هيبة الخلافة، وعلى تحقيق صورتها المركزية فيما يتعلق بالولايات التابعة لسلطانها، ففاضل المنصور وخلفائه من أجل تأكيد سلطان الخلافة وتحقيق المركزية، إلا أنه عندما فشل الخلفاء في تمكين سلطانهم في المغرب بسبب غلبة التيارات الإقليمية عمدوا إلى تطوير نظام المركزية، وذلك بتفويض قسم من السلطات إلى نائين عن الخليفة، في رق العالم الإسلامي وغربه، يستمدانها من الخليفة، والإقرار بالنزعات الإقليمية، ويتمثل ذلك في دولة الأغالبة في المغرب الأدنى، التي أقامها الرشيد لكي تحمل على عاتقها أعباء الخلافة في الغرب، والدولة الطاهرية لاتي أقامها المأمون في خراسان، وأسند رئاستها إلى قائده الفارسي طاهر بن الحسين.

وبمسايرة الخلافة العباسية للظروف الإقليمية ضمنت الإبقاء على نفوذها الروحي، ويسير التقسيم الذي أجراه المأوردي في نظام الإمارة على البلدان إلى إمارة استكفاء في حالة محافظة الخلفاء على المركزية^(١)، وإمارة الإستيلاء في حالة الإقرار بالإقليمية يعبر هذا التقسيم عن التطور الذي طرأ على نظام الخلافة من صورته المركزية إلى صورته الإقليمية.

كذلك استجابت الخلافة للظروف الجديدة في ناحية أخرى، وهي الجمع بين نظامي الخلافة والإمامة^(٢)، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى جنوح الخليفة إلى الاستبداد بالسلطة، وقد يكون ذلك ناتجاً عن احتفاظه بالسلطان الروحي المستند على نظرية عصمة الإمامة، على نحو ما فعله الشيعة الإمامية والاسماعيلية، أو على الأساس المستند الإجماع على عدم جواز تعدد الإمامة، مما يكفل نوعاً من السيطرة على أقاليم الدولة الإسلامية^(٣)، أو ناتجاً عن تأثره بنظرية الحق الملكي المقدس التي كان يقول بها الفرس، بمعنى أن الخليفة يجكم بتفويض من الله لا

(١) بان خلدون: نفس المصدر، ص ٤٢٢.

(٢) حرص الخلفاء في هذه المرحلة على تغيير الولاية وتبديلهم ضمناً لاستمرار تفوق السلطة المركزية، وتجنباً لقيام مراكز قوى في الدولة.

(٣) حسين محمود: العالم الإسلامي، ص ١٢٢.

من الشعب^(١)، من جهة، واستناداً إلى أن خلفاء بين العباس هم ورثة النبي ﷺ من جهة ثانية، وقد ترتب على ذلك أن خلفاء بني العباس سعوا إلى الاحتفاظ بالخلافة في دولة ثيوقراطية أساس السيادة فيها لزعماء الدين، إبرازاً للتطور الذي طرأ على السلطة الخلفية في العصر الأموي^(٢)، فكان الخليفة يرتدي بردة الرسول ﷺ عند توليته الخلافة أو في بعض الحفلات الدينية، لحكم كونه نائباً عن النبي ﷺ في حكم المسلمين، والتزم الخلفاء بلقب الإمام، وإن كان هذا اللقب فقد دلالاته الأولى من حيث إمامة المسلمين في الصلاة، وادعى الخلفاء أنهم يعملون على إحياء السنة وإعادة الحكم القائم على العدل والمساواة، فأحاطوا أنفسهم بالفقهاء وساشترؤهم في ماكل الدولة واتخذوا من الدين دعامة لتثبيت مركزهم السياسي.

وما دامت الخلافة العباسية أصبحت تستند على نظرية الحق الملكي المقدس، فهي تقر نظام الوراثة في البيت العباسي، وليس ضرورياً أن تكون وراثة مستقرة في الأبناء، وإنما كانت الخلافة ستند إلى أن أقدر على تحمل تبعاتها من أفراد البيت العباسي، ويتم ذلك عن طريق أهل الجِل والعقد، أو أهل الاختيار وعلى رأسهم الخليفة ومن يحيط به من الخاصة وكبار القادة والوزراء، وكان قرار تعيين ولي العهد قراراً ملزماً يعطي لصاحبه حقاً في عنق من بايعوه، ولقد سار العباسيون على سياسة تولية العهد لأكثر من واحد، ولم يتعظوا بما سببه ذلك من نكبات للدولة الأموية دفعتها إلى السقوط، ولهذا السبب اعتبر إبدال ولاة العهد بعد تعيينهم بآخرين نكثاً بالعهد، وكان من نتائجه نشر بذور العداء والحقد بين أفراد البيت العباسي، ونجمت عنه أزمات خطيرة ظهرت آثارها في فتنة الأمين والمأمون.

الوزارة :

(١) قود عَبَّرَ المنصور بقوله: "إنما أنا سلطان الله في أرضه".

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٢؛ العصر العباسي الأول، القاهرة ١٩٦٢، ص ٢٥٠.

استند العباسيون على الفرس فى تطوير نظمهم الإدارية كما استندوا عليهم فى تأسيس دولتهم إلى حد رسخت معه التقاليد الإدارية الفارسية القديمة فى صميم نظم الإدارة العباسية بحيث يمكننا أن نطلق على العصر العباسى الأول بحق العصر الفارسى الأول أو عصر إحياء التقاليد فى العصر العباسى فقد سبقته مرحلة تمهيدية منذ خلافة عمر بن الخطاب الذى اقتبس نظام الديوان من الإدارة الفارسية متبعاً فى ذلك مشورة القيصران^(١)، وتابع الأمويون سياسة الاقتباس من الإدارة الفارسية فأخذوا المهام الخلافية ويحجب الخليفة عن العامة ويغلق بابيه دونهم، كما اتخذوا الطراز الذى أصبح مظهراً من أبهة الملك وفخامة السلطان.

وبقيام الدولة العباسية ازداد النظام الفارسى الذى كان يعمل به زمن الساسانيين قوة، وسيطرت التقاليد الفارسية على أجهزة الدولة سيطرة شاملة وحلت جماعات من الموظفين الفرس محل الارستقراطية العربية التى كانت تحيط بالخليفة الأموى، واستحدث منصب الوزارة بنفس اختصاصاته المعروفة عند الفرس ولم تكن سلطات الوزير قد تحددت بعد فى بداية قيام الدولة بصورة واضحة (فى وزارة أبى سلمة الخلال) إلا أنها ستتدرج فى النمو وتتضح بمضى الوقت حتى تتخذ شكلها النهائى فى أواخر العصر العباسى الأول .

وليس من شأننا أن نتحدث عن لفظ الوزارة ومشتقاته اللغوية^(٢)، كما أنه ليس من شأننا أن نتبع تطور استعمال لفظ الوزارة عند العرب منذ العصر الجاهلى^(٣)، فهذا يخرج بنا عن موضوع الدراسة ولكن إذا كانت الوزارة

(١) الجهشيارى الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ١١ .

(٢) راجع فى ذلك دراسة مشتقت اللفظية فى اللغة العربية : المأوردى: الأحكام السلطانية ، ص ٢٠ ؛ ابن طباطبا، ص ١٣٦ ؛ ابن منظور: لسان العرب المجلد الخامس، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٨٢ ؛ الفيروز بادهى: القاموس المحيط، ج ١، القاهرة ١٣٤٤ هـ، ص ٣٦٣ ؛ الزبيدى: تاج العروس، ج ٣، القاهرة ١٣٠٦ ، ص ١١ ؛ أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ١٢٦ .

(٣) انظر فى ذلك المسعودى: التنبية والإشراف، ص ١٩٤ ؛ ابن قتيبة: الشعر والشعراء، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٢٥٢ ؛ عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٣١ .

كاختصاص ومهام ولقب قد استحدثت فى العصر العباسى فإنها عرفت
كاختصاص فقط دون اللقب فى العصر الأموى فكان عبد الحميد بن يحيى بن
سعيد كاتب مروان بن محمد يقوم فى الخلافة مقام الوزير^(١)، من حيث تقريب
الخليفة له واعتماده عليه فى المشورة والرأى.

ولم يكتف العباسيون باقتباس نظام الوزارة من نظم الإدارة الفارسية
القديمة بل عملوا على اختيار وزرائهم من الفرس وكان أبوسلمة الخلال أول من
وزر لبني العباس^(٢)، وسمى وزير آل محمد^(٣)، ويعلق ابن خلكان على استيزار
السفاح له بقوله: "إن أبا سلمة أول من وقع عليه اسم الوزير وشهر بالوزارة فى
دولة بنى العباس ولم يكن قبله من يعرف بهذا النعت لا فى دولة بنى أمية ولا
فى غيرها من الدول"^(٤).

وكان اختصاص الوزارة الأول لبني العباس كاختصاص الكتاب عند
الأمويين فكان الخلفاء العباسيون يحرصون دائما عند اختيارهم لوزرائهم أن
يكونوا ممن يجيد الكتابة^(٥)، ويعبر ابن طباطبا عن ذلك بقوله: "والوزارة لم تتمهد
قواعدها وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس فأما قبل فلم تكن مقننه للقواعد
ولا مقرره القوانين بل كان لكل وأحد من الملوك أتباع وحاشية فإذا حدث أمر
استشار بذوى الحجى والآراء الصائبة فكل منهم يجرى مجرى وزير فلما ملك بنو
العباس تقررر قوانين الوزارة وسمى الوزير وزيرا وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو
مشيراً^(٦)، ولما قتل أبوسلمة الخلال لم يتقلب أحد ممن استوزرهم السفاح بعده

(١) الإربلى: خلاصة الذهب المسبوك، ص ٥٨.

(٢) الإربلى، ص ٥٤.

(٣) الجهشيارى، ص ٥٦؛ ابن طباطبا، ص ١٣٨.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٤٤٦.

(٥) كان أبوسلمة فصيحا عالما بالأخبار والأشعار والسير والجدل التفسير، حاضر الحجة فلما بويح السفار استوزره
وفوض الأمور إليه وسلم إليه الدواوين ولقب بوزير آل محمد. ابن طباطبا، ص ١٣٨. وكان الربيع بن يونس وزير
المنصور فصيحا كافيا عاقلا فطنا خبيراً بالحساب والإعمال وكان أبو عبد الله يعقوب بن داود وزير المهدي كاتباً
لنصر بن سيار أمير خراسان. ابن طباطبا، ص ١٦٦.

(٦) ابن طباطبا، ص ١٣٦.

بلقب الوزارة تطيراً مما لحق به فخالد بن برمك على الرغم من مكانته السامية التي تبوأها كان يعمل عمل الوزارة ولم يتسم بالوزير^(١)، كذلك تلقب أبو أيوب المورياني الذي استوزره المنصور العباسي وأسند إليه عمل الدواوين بكتاب الخليفة^(٢)، وظلت الوزارة في خلافة المنصور اسماً على غير مسمى لاستبداده المطلق وتركيز السلطات في يده وفي ذلك يقول ابن طباطبا: "لم تكن الوزارة في أيامه طائفة لاستبداده واستغناؤه برأيه وكفائته مع أنه كان يشأور في الأمور دائماً وإنما كانت هيئته تصغر لها هيئة الوزراء، وكانوا لا يزالون على وجل منه وخوف فلا يظهر لهم أبهة ولا رونق"^(٣)، ولهذا السبب اتسمت الإدارة العباسية في العصر العباسي الأول بالمركزية المطلقة، فكان الخليفة مصدر السلطات، أما الوزير فكان مجرداً من كل سلطان ولم يعظم مركز الوزارة وتستقر قواعدها إلا منذ أيام المهدي وكان وزيره أبو عبيدالله معاوية بن يسار هو الذي رتب الديوان وقرر القواعد وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقا وعلماً وخبرة^(٤)، وليس أدل على ارتفاع مكانة الوزير في دولة بني العباس بعد المهدي^(٥)، من الإشارة إلى المكانة التي تبوأها البرامكة في خلافة الهادي والرشيد فقد قبضوا على أزمة الحكم وأصبحت شئون الدولة في أيديهم يتصرفون فيها كيفما شاءوا إلى أن نكبهم الرشيد في سنة ١٨٧ هـ ومن الأمثلة الدالة كذلك على سمو مكانة الوزير

(١) ابن طباطبا ، ص ١٣٩

(٢) ابن طباطبا ، ص ١٣٩

(٣) نفس المصدر ، ص ١٥٦

(٤) نفس المصدر ، ص ١٦٣

(٥) يقول ابن خلدون معبراً عن ضخامة سلطان الوزارة: "فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبة وارتفعت ، عظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة، وعت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل له النظر في ميزان الحساب ديوان المال لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه وأضيف إليه النظر في القلم والترسيل لصزن أسرار السلطان ... فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة حتى لقد دعى جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظلاه وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة.

استبداد الفضل بن سهل وأخوه الحسن بدولة المأمون والفضل بن الربيع بدولة الأمين.

- أنواع الوزارة فى العصر العباسى :

وكانت الوزارة فى العصر العباسى تنقسم إلى نوعين^(١):

١-وزارة تنفيذ: (وهى أيضا وزارة القلم وسلطتها محدودة) وهى التى تقتصر مهمة الوزير فيها على تنفيذ أوامر الخليفة وعدم التصرف فى شئون الدولة من تلقاء نفسه وإنما كان يعرض الأمور على الخليفة ويتلقى أوامره ضمنها وبذلك كانت مهمة الوزير أشبه ما تكون بمهمة الوسيط بين الخليفة والشعب.

٢-وزارة تفويض: (وتعرف أيضا بوزارة السيف): وهى أن يكمل الخليفة الوزارة إلى شخص يثق فيه ويفوض إليه النظر فى أمور الدولة والتصرف فى شئونها دون الرجوع إليه بحيث لا يبقى للخليفة بعد ذلك من السلطان إلا ولاية العهد، وحق عزل من يوليهم الوزير . ومن أشهر وزراء التفويض فى العصر العباسى الأول آل برمك وآل سهل والفضل بن الربيع الذى كان حاجبا للرشيد ثم استوزره بعد نكبة البرامكة. ومن دلائل ارتفاع منزلة الوزير إبان الفتنة بين الأمين والمأمون تلقب الفضل بن سهل وزير المأمون بذى الرئاستين لجمعه بين السيف والقلم وتلقبه بالوزير الأمير^(٢)، واستتيزار المأمون بعده للحسن بن سهل وزواجه من ابنته بوران وتلقيبه بلقب ذى الكفايتين^(٣)، ومن أشهر وزراء التنفيذ فى عهد المأمون والمعتصم: أحمد بن أبى خالد وأحمد بن يوسف، ومحمد بن عبدالمك الزيات.

(١) المأوردى الأحكام السلطانية ، ص١٨ .

(٢) ابن طباطبا ، ص٢٠٢ . ويقصد بالرئاستين : رئاسة الحزب ورئاسة التدبير (الجهشيارى، ص٢٥٠) وقد عقد له المأمون على سنن ذى شعبتين وأعطاه مع العقد علما قد كتب عليه لقبه وكان الفضل بن سهل أول وزير اجتمع له اللقب والتأثير.الجهشيارى ، نفس المصدر.

(٣) الصابى : رسوم دار الخلافة ، تحقيق ميخائيل عواد ، بغداد ١٩٦٤ ، ص١٣٠ .

وكان يشترط في الوزير لأهمية منصبه باعتباره وسيطا بين الخليفة والرعية - أن يكون في طبعه جانب يناسب طباع الملوك وجانب يناسب طباع العوام حتى يتمكن من معاملة كل الفريقين بما يعينه على الاحتفاظ عند كل منهما بالقبول والمحبة والرضا وأن يكون أمينا صادقا صفات أخرى لا غناء له عنها كالفضل والكرم ليصطنع الأنصار والرفق والأناة والتثبيت في الأمور، والحكم والوقار ونفاذ القول .

وفي ضوء هذه الشروط كان الوزراء يختارون بدقة فقد روى عن المأمون أنه قال " أنى التمسست لأمرى رجلا جامعا لخصال الخير ذا عفة فى خلانقه، واستقامة فى طرائقه، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب إن أوتمن على الأسرار قام بها وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها يسكته الحلم، وينطقه العلم، وتكفيه اللحظة وتغنيه اللحظة، له صولة الأمراء وأناة الحكماء، وتواضع العلماء وفهم الفقهاء إن أحسن إليه شكر وإن ابتلى بالإساءة صبر لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترق قلوب الرجال بخلاصة لسانه وحسن بيانه". ومع ذلك ففى كثير من الأحيان كانت تتدخل بعض العوامل فى اختيار الوزير فكان أحيانا يقلد الوزارة مكافأة له على جهد بذله أو عون قدمه لشخص الخليفة. على أنه لم يعد ضروريا أن يراعى فى اختياره لا الجمع بين الصفات السابقة ولا ما قدمه للدولة أو الخليفة من أفضال وذلك عندما أصيبت الخلافة العباسية بالانحلال والضعف وأصبح اختيار الوزراء يتم وفقا لأغراض أخرى من أبرزها الرشوة التى أصبحت الوسيلة العملية للترشيح لهذا المنصب الكبير .

وكان من مهام وزراء العصر العباسى الأول الإشراف على دواوين الدولة والشئون المالىة وشئون الترحيل والمكاتبات والشئون الحربية، ولهذا أصبح الوزير يجمع فى عمله بين السلطتين المدنية والحربية أو بمعنى آخر بين السيف والقلم . كذلك كان من مهامه النظر فى قضايا الناس ومطالبهم وتعيين الولاية.

ومن الملاحظ أن معظم من تولى الوزارة فى العصر العباسى الأول منذ قيام الدولة حتى خلافة الرشيد كانوا يتفقون فى أمرين : الأول أنهم من الفرس والثانى ميلهم للعلويين وسعيهم فى الخفاء على نقل الخلافة إليهم وكان ذلك من العوامل التى ساعدت الخلفاء إلى نكبتهم لهم والتنكيل بهم^(١).

وفى عصر المعتصم لم يعد للوزراء ما كان لهم من نفوذ وسلطان زمن المأمون بسبب اتساع نفوذ قواد الجيش الأتراك من جهة وسيطرة الخليفة على النواحي السياسية والإدارية من جهة ثانية. وهناك ظاهرتان واضحتان فى وزراء هذا العصر هما:

١- لم يكن من بين وزراء المعتصم والوائق على كثرتهم من كان أديبا حسن المعرفة بالعلم إلا محمد بن عبدالمك الزيات، فالفضل بن مروان أول وزراء المعتصم لم يكن من الكتاب وإنما كان عاميا لا علم لديه ولا معرفة، وكان سىء السيرة جاهلاً بالأمر وكذلك كان أحمد بن عمار بن شادى وزير المعتصم بعد الفضل - رغم ثرائه - جاهلاً بآداب الوزارة قليل الثقافة.

٢- كان معظم وزراء هذا العصر ضحايا مطامع الخلفاء فى أموالهم واستصفوا أملاكهم، كما حدث للوزير الفضل بن مروان فى عصر المعتصم وابن الزيات فى خلافة الواثق.

(٣) الحجابة :

فى عصر الدولة الأموية ظهرت وظيفة فى البلاط لها أهميتها بالنسبة للخليفة هى وظيفة الحاجب وكان من اختصاصاته حجب الخليفة عن الناس وتنظيم مثلهم أمام الخليفة وفقا لمراكزهم وأهمية أعمالهم، ويعتبر معاوية أول من أرخى الستور من الخلفاء فى الإسلام^(٢)، واتخذ الخلفاء الأمويون من بعده حجابا لهم تشبها بالملوك والأكاسرة وحرصا على أنفسهم من خطر الاغتيالات

^(١) إبراهيم سلمان : نظام الوزارة فى العصر العباسى الأول ، ص ٢٥ وما يليها.

^(٢) ابن خلدون المقدمة، ص ٤٣٢، كان الحجاب يمنعون الناس من الدخول على الخلفاء إلا بإذن خاص، ولم يتسنىوا على حد قول عبدالمك بن مروان إلا صاحب الطعام والأذان للصلاة والبريد.

السياسة فكان الحجاب يجلبون الخليفة عن العامة ويغلقون بابه دونهم^(١)، والحجابه مما اقتبسه العرب من الإدارة الفارسية عندما أخذوا بمظاهر الكسروية ومن أشهر حجاب الأمويين خالد بن عبد الملك وحاجباه^(٢)، وأبوعسكر مولى سليمان بن عبد الملك وحاجبه^(٣)، وحبيس ومزاحم مولى عمر بن عبد العزيز وحاجباه^(٤)، وسعيد مولى يزيد بن عبد الملك وحاجبه^(٥)، وغالب مولى هشام وحاجبه والأبرش الكلبي وحاجبه وكان هذا الحجاب يدخل عليه فيقول فلان بالباب وفلان فيقول : أئذن فلا يزال الناس يدخلون عليه حتى إذا انتصف النهار وضع الطعام ورفعت الستور^(٦)، ومن حجاب الأمويين أيضا قطرى مولى الوليد بن يزيد^(٧)، وقطر مولى يزيد بن الوليد بن عبد الملك وحاجبه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك^(٨)، وصقلاب مولى مروان بن محمد وحاجبه^(٩).

واتخذ الخلفاء العباسيون الحجاب أيضا وبالغوا في ذلك تشبها بالأكاسرة وحماية لأنفسهم من الساخطين عليهم، وزادوا في منع الناس عن ملاقاتهم إلا فيما عظم من الأمور، وازدادت أهمية هذه الوظيفة منذ عهد المهدي العباسي ومن أشهر حجابه: الربيع بن يونس والفضل بن الربيع والربيع بن حصين والحصين بن سليمان^(١٠)، ومما يدل على أهمية الحجابه أن الربيع بن يونس كان وزيراً للمنصور وظل يقوم بمهمة الوزارة إلى أن مات المنصور بمكة وقام

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٣٢. كان الحجاب يمنعون الناس من الدخول على الخلفاء إلا بإذن خاص، ولم يستثنوا على حد قول عبد الملك بن مروان إلا أصحاب الطعام والآذان للصلاة والبريد.

(٢) الإربلي، ص ٣.

(٣) الإربلي، ص ١٧.

(٤) الإربلي، ص ٢١.

(٥) الإربلي، ص ٢٦.

(٦) الإربلي، ص ٢٧.

(٧) نفس المصدر، ص ٤٤.

(٨) نفس المصدر، ص ٤٧.

(٩) نفس المصدر، ص ٤٨.

(١٠) الإربلي: المصدر نفسه، ص ٤٨.

الربيع يأخذ البيعة للمهدى العباسي، فشكر له المهدى ذلك ولم يستوزره وإنما جعله حاجبه وذكروا أنه لم ير في الحجابة أعرف من الربيع ومن ولده الفضل الذي حجب لهرون الرشيد ولمحمد الأمين ومن عباس بن الفضل الذي حجب للأمين بمعنى أن عباس هذا كان حاجبا ابن حاجب وقد مدحهم أبو نواس بقوله: ساد الملوك ثلاثة ما منهم * أن حصلوا إلا أغر قريع عباس عباس إذا احتدم الوغى * والفضل فضل والربيع ربيع ويأتى ابن طباطبا بمثل آخر يعبر عن أهمية منصب الحاجب فيذكر أن الربيع بن يونس لما قدم من مكة بعد موت المنصور وأخذ البيعة للمهدى وفد إلى باب أبي عبدالله معاوية بن يسار (كاتب المهدى ونائبه قبل أن يلى الخلافة وكان غالباً على أمور المهدى لا يعصى قولاً ولهذا استوزره المهدى وفوض إليه تدبير الدولة وسلم إليه الدواوين لزيارته زيارة مجاملة قال فوصل الربيع إلى باب أبي عبيدالله الوزير فوقف ساعة حتى خرج الحاجب ثم دخل فاستأذن له فإذن له فلما دخل عليه لم يقم له (مع أن الربيع بن يونس كان وزيراً للمنصور) ثم سأله عن سيره وحالة فأخبره وشرع الربيع يحدثه بما جرى في مكة من موت المنصور واجتهاده في أخذ البيعة للمهدى فسكته، وقال: لقد بلغنى الخبر فلا حاجة إلى أعادته فاغتاظ الربيع، ثم قام فخرج، وقال لابنه للفضل: على كذا وكذا إن لم أبذل مالى وجاهى فى مكروهه وإزالة نعمته. ومضى الربيع إلى المهدى فاستحجبه واختص به، كما كان مع أبيه". وما زال الربيع ابن يونس يكيد له فى شخص ابنه (أى ابن أبى عبيدالله) لدى الخليفة، تارة يرميه ببعض حرم المهدى، وتارة يرميه بالزندقة حتى رسخ فى ذهن المهدى زندقة ابن الوزير، فأمر وزيره أبا عبيدالله بقتل ابنه فقام الوزير وعثر ووقع وارتعد، فأعفاه من قتله وأمر بعض الحاضرين بقتله، فضرب عنقه واستمر الوزير فى خدمة المهدى، إلى أن أمر المهدى حاجبه الربيع بحجبه عنه فحجبه^(١).

(١) ابن طباطبا، ص ٦٤-١٦٦.

وعن طريق الربيع بن يونس استوزر المهدي يعقوب بن داود لصداقة كانت بين الربيع وبينه فجعل يثنى على يعقوب في خلواته بالمهدي حتى استوزره^(١)، وغلب على المهدي حاجبه الفضل بن الربيع^(٢)، ومن حجاب الرشيد بشر بن ميمون مولاه ومحمد بن خالد برمك^(٣)، ثم الفضل بن الربيع^(٤)، أما المعتصم فقد استحجب وصيفا التركي، كما استحجبه أيضا الواثق.

الكتاب:

كان يعين الوزراء وأصحاب الدواوين في مهامهم أعوان من أرباب الأقاليم عرفوا بالكتاب وكانت لهذه الطائفة أهمية خاصة لارتباطهم بالوزراء وأصحاب الدواوين بدليل أن الكثير منهم كان يتدرج في الرقي حتى يصل إلى منصب الوزارة ولأهمية الكتاب ألغت فيهم الكتب فمن بين من كتب في هذا الباب: ابن قتيبة الذي صنف كتابه أدب الكتاب وابن دستروييه الذي ألف كتاب الكتاب ومحمد بن داود بن الجراح صاحب كتاب الوزراء والجهشياري صاحب كتاب الوزراء والكتاب وقد تعددت اختصاصات الكتاب فمنهم من كان من كتاب الرسائل أي مخاطبة العامة والأمراء ومنهم من تولى كتابة الخراج ومنهم كتاب الجند يقيدون أسماءهم وصفاتهم وطبقاتهم وأعطياتهم ونفقات سلاحهم ومنهم كتاب الشرطة وكتاب القضاء وأعظم هؤلاء الكتاب جميعا في المكانة كتاب الرسائل الذين يعتبرهم الحكام نظام الأمور وكمال الملك وبهاء السلطان وهم الألسنة الناطقة عن الملوك وخرزان أموالهم وأمنائهم على رعيتهم وبلادهم^(٥)، ولحساسية عملهم وأهميته كان الخلفاء يتخيرون الكتابة أشخاصا تتوفر فيهم صفات معينة. وفي ذلك يقول ابن خلدون "أن صاحب هذه الخطة لابد من أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فإنه معرض في أصول

(١) نفس المصدر، ص ١٠٦.

(٢) يعقوبى، ج ٣، ص ٤٠٦.

(٣) الإريلي، ص ١٧١.

(٤) الجهشياري، ص ١٨٤. صرف الرشيد محمد بن خالد البرمكي عن حاجبته وقلدها الفضل بن الربيع في سنة ١٧٩م.

(٥) الجهشياري، ص ٣.

العلم لما يعرض فى مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه فى الترسيب وتطبيع مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها^(١).

وقد شارك الكتاب ومن وصل منهم إلى منصب الوزارة فى نشر الثقافة لأنهم بحكم مناصبهم كانوا مضطرين إلى معرفة أحوال الناس الاجتماعية وأن يعرفوا من اللغة والآداب وعلوم الدين والفلسفة والتاريخ طرفا لاحتياجهم إلى هذه العلوم فى مواقفهم^(٢)، كما أن الكثير منهم لجمعهم بين الآداب العربية والفارسية وأسهموا بدور كبير فى إحياء الثقافة الفارسية القديمة وبفضلهم اتسمت أفاق الفكر وترعرعت شجرة الثقافة الإسلامية^(٣)، وترجم إلى العربية العديد من الكتب الفارسية واليونانية وقد لمع من هؤلاء الكتاب أسماء كثيرة منهم عبدالله بن المقفع ويحيى بن خالد وأحمد بن يوسف، وأحمد بن أبى دؤاد والفضل بن سهل ومحمد بن عبدالملك الزيات وامتاز هؤلاء الكتاب بحسن الكتابة وغزارة العلم وسعة الاطلاع، فكان جعفر البرمكى "كاتباً بليغاً، وكان اذا وقع نسخت توقيعاته وتدرست بلاغاته"^(٤). وكان أحمد بن يوسف ابن صبيح كاتب الرشيد على حظ كبير من الثقافة الإسلامية، وكان كاتباً فاضلاً أديباً شاعراً فطنا بصيراً بأدوات الملك وآداب السلاطين^(٥).

* الدواوين:

(١) ابن خلدون المقدمة ، ص ٤٣٨ . ويأتى ابن خلدون برسالة لعبد الحميد الكاتب إلى الكتاب فيها تضمين لما يتوفر فيهم.

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

(٣) مصطفى الشكعة الآداب فى موكب الحضارة الإسلامية ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٣٥٣ .

(٤) الجهشيارى ، ص ١٥٨ .

(٥) ابن طباطبا ، ص ٢٠٦ .

توسع العباسيون فى الدواوين بحكم اصطناعهم لنظم الإدارة الفارسية^(١). وكلمة الديوان كلمة فارسية تعنى السجل الذى يكتب فيه ما يختص بشئون، ثم أصبحت تدل على المكان الذى يعمل فيه الكتاب على اختلاف مهامهم، وقد أصبح لموظفى الدواوين فى العصر العباسى شأن كبير فى الدولة، وكانت لهم علامات تميزهم عن غيرهم من رجال الدولة كالذواة والكرسى والوسادة والمساند الخشبية، وهى أدوات كانت تستخدم فى الكتابة والجلوس فى الديوان. ويرجع الفضل فى تنظيم إدارة الدواوين فى العصر العباسى الأول إلى خالد بن برمك، فقد كان سبيل ما يثبت فى الدواوين أن يثبت فى صحف، فكان خالد أول من سجله فى دفاتر^(٢) وهو الذى أشار على السفاح - عندما عزم على التخلص من أبمسلم الخرسانى- أن يأمر بإسقاط من لم يكن من أهل خراسان من الجند فى ديوان الجند، فأسقط عددا كبيرا من أصحاب أبمسلم^(٣)، ولما تولى أبوجعفر المنصور، صرف خالد بن برمك عن الديوان وقلده أبا أيوب المورىانى. وإلى المهدي يرجع الفضل فى إنشاء ديوان الزمام سنة ١٦٢ لجمع ضرائب العراق، وهو أول من أحدث هذا الديوان، وفيما يلى أهم الدواوين فى الدولة العباسية:

- ديوان الرسائل:

كانت مهمة صاحبه إذاعة المراسيم والمنشورات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة، وقد تعقد هذا الديوان فى العصر العباسى عنه فى العصر الأموى، وتعددت اختصاصاته، وكثر عدد من يعملون فيه، وذلك حتى يرقى إلى مستوى السياسة العباسية ومواجهة احتياجات الدولة ومشاكلها، وقد استقرت دعائم هذا الديوان منذ أيام المنصور، وجعله الخليفة قريبا من قصره فى

(١) دواوين الدولة العباسية هى : ديوان الخراج وديوان الدية وديوان الزمام وديوان الجند وديوان البريد وديوان زمام

النفقات وديوان الرسائل وديوان الحوائج وديوان الأختام ، وديوان المنح أو المقاضاة وديوان الأكرية وديوان الزنادقة

(٢) الجهشيارى ، ص ٥٩ .

(٣) الجهشيارى ، ص ٥٩ .

بغداد وأسنده الى بن صدقة^(١)، وقد تعرض هذا الديوان للتطوير فى العهود التالىه وفصلت المراسلات الخاصة بالخليفة عن مراسلات الدولة التى أصبح يشرف عليها الوزراء إشرافا مباشرا، وأصبحت لصاحب ديوان الرسائل مكانة بارزة عند الخليفة بحكم التصاقه به، وكان الخليفة يستشيريه ويدنيه منه^(٢).

وكان يعمل بديوان الرسائل موظفون تعددت مهامهم، فقد وجد كتاب رؤساء يقومون بالإنشاء وكتابة الردود والتوقيعات^(٣)، وآخرون يساعدونهم فى التلخيص والتبويض وأصبح لهذا الديوان محفوظات خاصة يتولى الإشراف عليها الخازن^(٤)، فكانت أصول المراسلات ونسخها الواردة تنظم فى ملفات يقال لها أضايير توضع عليها بطائق تدل على محتوياتها ليسهل الرجوع إليها عند الضرورة. وكان الكاتب يصدر السجلات من الديوان ويكتب فى آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم الخليفة، وهو طابع منقوش فيه اسم الخليفة أو شارته يغمس فى طين أحمر مذاب بالماء يسمى طين الختم ويطبّع به طرف السجل عند طيه وإلصاقه وعرف التوقيع الخلقى فى العصر العباسى بالعلامة^(٥).

- ديوان الخاتم:

كانت مهمة صاحب هذا الديوان حزم الأوامر الخلفية والرسائل وختمها بالشمع ثم الضغط عليه بخاتم صاحب الديوان حتى لا تتعرض للتزوير.

- ديوان البريد:

استحدثه معاوية بن أبى سفيان حتى تصل الأخبار إليه بسرعة وتوسع فى العباسيون وطوروه بحيث وصل فى عصرهم إلى درجة عالیه من الكمال،

(١) المسعودى ، ج ٧، ص ٣٨٥.

(٢) حسن محمود ، العالم الإسلامى ، ص ١٤٤.

(٣) المسعودى ، ج ٧، ص ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٤) كانت أرزاني الرؤساء فى زمن المنصور ٣٠٠ درهم للرجل وظل الحال كذلك حتى زمن الفضل بن سهل فى خلافة المأمون فوسع الجارى الجهشبارى ، ص ٨٩.

(٥) عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٣٦.

ومن المعروف أن الفضل في تطويره وتحسين نظمه ووسائله يرجع إلى أبي جعفر المنصور، مستهدفاً في ذلك الوقوف على أحوال الولايات والكشف عن حركات التمرد والثورة والقضاء عليها في وقتها وقد زاد ارتباط عمال البريد في عهده بالعاصمة بغداد مباشرة دون أن يخضعوا لنفوذ الولايات وكان هؤلاء العمال البريديون إلى جانب عملهم الأساسي -وهو نقل الرسائل- يشتغلون بالتجسس على كبار الموظفين ومراقبة الولاة في الأقاليم التابعة للخلافة العباسية، ولهذا السبب حظى صاحب ديوان البريد في عصر المنصور بمكانة عالية تسمو مكانة الوالي نفسه^(١)، وفي عصر المهدي زادت أهمية البريد فأقيمت له سنة ١٦٦هـ محطات بين مكة والمدينة واليمن^(٢)، واتخذت له البغال والإبل خاصة بعد ثورة الحسينيين في الحجاز وأصبح لديوان البريد أهمية إبان النزاع بين الأمين والمأمون فعندما تبين المأمون نوايا الأمين ضده بادر بقطع البريد عنه في سنة ١٩٤هـ، كما ظهرت أهمية البريد في عصر المعتصم عندما تولى عجيف مهمة القضاء على حركات النزط بالبصرة وأمكنه بفضل البريد من إبلاغ الخليفة بكل أخبار قمعه لها فقد أمر الخليفة بترتيب الخيل في كل سكة من سكة البريد تركض بالأخبار "فكان الخبر يخرج من عند عجيف فيصل إلى المعتصم من يومه"^(٣)، كذلك أدى البريد خدمات جليلة للمعتصم عندما تصدى للقضاء على حركة الخرمية والمحمرة ولولا سهولة الاتصال بمواضع البابكية عن طريق سكة البرد لما أمكن لقادة المعتصم أن يقضوا على بابك وكان المعتصم يوجه إلى

(١) كان المنصور يقول : ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر " لا يكون على بابي أعف منهم ، فقيل له : يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال: هم أركان الملك لا يصلح الملك إلا بهم، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، إن نقصت واحدة تدعى وهى: أما أحدهم ففاض لا تأخذه في الله لومة لائم والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث خراج يستقصى ولا يظلم الرعية، فإني عن ظلمها غنى ، والرابع ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل امرأة أه أه ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب بخبر إلى هؤلاء على الصحة. الطبرى ، ج٩، ص٢٩٧.

(٢) الطبرى ، ج١، ص٨؛ السيوطى ، ص٢٥٤.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، مادة برد ، ج٣، طبعة صادرة ، ص٨٦.

الأفشين كل يوم منذ أن رحل من برزند إلى أن وافى سامراء فرسا وخلعه، وكان المعتصم لشدة اهتمامه بأمر بابك وأخباره، ولفساد الطريق بسبب الثلج وغيره جعل من سامراء إلى عقبه حلوان خيلاً مضمرة على رأس كل فرسخ معه فجهر مرتب فكان يركض بالخبر ركضا حتى يؤديه من وأحد إلى وأحد يداً بيد وكان ما خلف حلوان إلى أذربيجان قد رتبوا دواب المرج كل دابة على رأس فرسخ وجعل لهم ديابدة (حراس) على رؤوس الجبال بالليل والنهار وأمرهم أن ينعروا إذا جاءهم الخبر، فإذا سمع الذى يليه التغير تهيأ، فلا يبلغ إليه صاحبه الذى نعر حتى يقف له على الطريق فيأخذ الخريطة (الرسالة) منه فكانت الخريطة تصل من عسكر الأفشين إلى سامراء فى أربعة أيام وأقل^(١).

وما دمنا بصدد الحديث عن البريد فلا بد من معرفة أصل لفظة بريد ومشتقاتها ومن المعروف أن هناك تفسيرات مختلفة لكلمة بريد فبعضهم يجعل البريد لفظاً عربياً مشتقاً من المصدر برد أو أبراد بمعنى أرسل البريد^(٢)، أى أرسل الرسل على دواب البريد وقيل أنها لفظة فارسية - وهو الأصح - مشتقة من كلمة "يريده دم" ومعناها مقصوص الذنب، وذلك أن الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد تمييزاً له عن غيره من البغال. وقد انتقلت كلمة بريد العربية إلى اللاتينية veredus بمعنى خيل البريد^(٣)، ومن وسائل النقل فى البريد الخيل والبغال والإبل، التى كانت تقام لها مراكز أو منازل فى الطرق الرئيسية الموصلة إلى إقليم الخلافة كذلك استخدم الحمام الزاجل فى نقل الرسائل وكان يعرف باسم جناح المسلمين وتوسع المسلمون فى استخدامه إبان الحروب الصليبية.

- ديوان الزمام أو الأزمة:

استحدث هذا الديوان فى خلافة المهدي فى سنة ١٦٢هـ وفى ذلك يقول الجهشيارى : وقد عمر بن يزيد دوأوين الأزمة فى سنة اثنتين وستين ومائة وقد

(١) الطبرى ، ج ١٠ ، ص ٣٠٦ .

(٢) الطبرى ، ج ١٠ ، ص ٣٣٢ .

(٣) الجهشيارى ، ص ١٠٦ ؛ الطبرى ، ج ٩ ، ص ٣٤٢ .

قيل أن المهدي أول من أحدثها فلما تضعضت حال عمر بن بزيع في سنة ١٦٨ قلد المهدي عليا بن يقطين زماما على الأزمة^(١)، فلما تولى المهدي الخلافة أقر الربيع بن يونس على ديوان الأزمة إلى أن توفي الربيع سنة ١٦٩ هـ فلقد الهادي إبراهيم بن ذكوان الحراني هذا الديوان^(٢)، وظل إبراهيم يتقلد هذا الديوان إلى أن نكبه الرشيد ونصب مكانه أبا عبيدالله معاوية بن عبدالله وزير المهدي ولكنه استعفى لكبر سنه^(٣)، وكانت من اختصاصات صاحب هذا الديوان مراجعة حسابات الدواوين فيما يتعلق بالوارد والنفقات، وفي ذلك يقول الطبري: "وذكر أحمد بن موسى بن حمزة عن أبيه قال: أول من عمل ديوان الزمام عمر بن يزيع في خلافة المهدي وذلك أنه لما جمعت له الدواوين تفكر فإذا هو بزيع يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ الخراج إسماعيل بن صبيح، ولم يكن لبني أمية دواوين أزمة" وكان يتولى زمام خراج العراق النعمان بن عثمان^(٤).

لم تكن السلطة التنفيذية منفصلة عن السلطة القضائية في زمن الرسول μ فقد كان μ يتولى الفصل في الخصومات بنفسه تطبيقا لأحكام الشريعة الإسلامية ومنذ أن انتشرت الدعوة الإسلامية في الجزيرة أذن الرسول μ لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد كما أذن لبعضهم بالفتيا وفي خلافة أبي بكر الصديق أسند القضاء إلى عمر ولكن منذ أن اتسعت الدولة العربية بالفتوحات في زمن عمر وارتبط العرب بغيرهم من الشعوب، استلزم الأمر إدخال نظام تشريعي لفض الخصومات فكان عمر أول من عين القضاة في الأقاليم للفصل في الخصومات وفقا لأحكام الشريعة. وظل القضاء في العصر الأموي بسيطا كما كان الأمر في عصر الخلافة الراشدة. وكان القاضي يعتمد على الاجتهاد في الأحكام مستعينا بالكتاب والسنة والإجماع، وكان يصدر أحكامه

(١) الجهشيارى، ص ١٢٥؛ الطبري، ج ١٠، ص ١٠٠، ويسمى الطبري هذا الديوان زمام الأزمة

(٢) الجهشيارى، ص ١٢٣.

(٣) الجهشيارى، ص ١٣٢.

(٤) الجهشيارى، ص ٣٤٦.

مستقلا فى رأيه عن أى تأثير خارجى عليه بخلاف ما حدث فى العصر العباسى إذ كان الخليفة الإمام يخول لنفسه الحق فى أن يقضى على استقلال القضاة وكان يتدخل فى الأحكام ويوقف بعضها إذا صدرت على غير هواه، إذ كان يخشى أن تتعارض أحكام القضاة مع مبادئه بل إن الخليفة كان يبيح لنفسه أن يختار قضائه على الأقاليم بنفسه فى كثير من الأحيان وأول من ولى قضاة الأمصار من خلفاء العباسيين المنصور^(١).

وقد تعقد نظام القضاء فى العصر العباسى لتعقد الحياة الاجتماعية وما طرأ على المجتمع العراقى فى هذا العصر من أساليب جديدة فى الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية هذا بالإضافة إلى ظهور المذاهب الأربعة مما ترتب عليه ضعف روح الاجتهاد فى الأحكام، بحكم التزام القضاة فى أحكامهم بأحد هذه المذاهب، فكان قاضى العراق يحكم وفق مذهب أبى حنيفة بينما ساد فى مصر المذهب الشافعى وفى الشام والمغرب والأندلس المذهب المالكى، وقد نتج عن ذلك أن أصبح فى كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ينظر كل منهم فى النزاع الذى يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه^(٢).

* النظام القضائى:

وكان يشترط فى اختيار القضاة الذكورية والبلوغ والعقل والحرية، والإسلام، والعدالة والسلامة فى السمع والبصر، والعلم هذا بالإضافة لى شروط أخرى إلزامية كالأمانة والشرف والأناة والتفقه . وقد اتسعت سلطة القضاة فبعد أن كان عملهم يقتصر على الفصل فى الخصومات أصبح يجمع إلى ذلك استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر فى أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه، وفى وصايا المسلمين وأوقاتهم، وتزويج الأيتام عند فقد الأولياء والنظر فى مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود والأمناء

(١) الكندى كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ط جست ١٩١٢ ، ص ٣٧١ . ابن ابيك درر البيجان و غرر تواريخ الأزمان ،

مخطوطة رقم ٤٤٠٩ بدار الكتب المصرية ، ورقة ٢٤٩ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ٣٩٢ .

والنواب. ونظراً لتوسع مهام القضاة وتعدد اختصاصاتهم كان يعينهم مساعدون ونواب يعرفون بنواب الحكم وكان القاضى يتخذ شهوداً عرفوا بالأمانة والتفقه فى الدين ولذلك سمو بالشهود العدول أى الذين لا يشك فى ذمهم، وكان المجلس الذى يتولى فيه القاضى الحكم يعرف بمجلس الحكم وكان يعقد فى المسجد الجامع^(١)، ثم أصبح يعقد فى دار القاضى، وذلك بعد أن تعددت المساجد الجامعة فى المدينة الواحدة وكان يعقد فى قصر الخلافة فى حالة إذا ما كان القضاء متعلقاً بالمظلم^(٢)، ويتألف مجلس الحكم من القاضى والشهود العدول والموقعين الذين يسجلون محضر الجلسة والحجاب الذين يقومون بإدخال الخصوم وكان القاضى فى عصر الدولة الأموية يجلس مجلسه بدون مراسم، إلا أنه منذ العصر العباسى أصبح يتخذ لنفسه بعض الرسوم كأن يضع الطيلسان على منكبيه ويعقد بوسطه سيفاً ويتوشح بالسواد أو البياض حسب مذهبه وأول من ميز لباس القضاة والعلماء القاضى أبو يوسف فأصبح القاضى يعتم بعمامة سوداء على قنسوة طويلة^(٣).

ثم استحدثت فى زمن الرشيد منصب قاضى القضاة وهو يقابل منصب وزير العدل فى العصر الحديث، إذ كانت له الرئاسة على جميع القضاة فكان يستنوب عنه القضاة فى الأقاليم. وأول من تولى هذا المنصب القاضى أبو يوسف يعقوب صاحب أبى حنيفة لعلمه ودرايته بالشئون القضائية والإدارية، فقد كان أبو يوسف أفقه أهل عصره فلم يتقدم عليه أحد فى زمانه، وكان بالنهاية فى العلم والحلم والرياسة والقدرة والجلالة، وهو أول من وضع الكتب فى أصول الفقه على مذهب أبى حنيفة، وأملى المسائل ونشرها وبث علم أبى حنيفة فى أقطار الأرض^(٤)، وأبو يوسف يعقوب هذا هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن جنبه

(١) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٤٨.

(٢) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٤٨.

(٣) ابن خلدون: المقدمة

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب، ج ١، ص ٣٠١؛ الإزبلى، ص ١٢٩.

الأنصاري، سمع أبا إسحاق الشيباني وسليمان التميمي ويحيى بن سعيد والأعمش وهشام بن عروة بن الزبير، ولاء الهادي القضاء، ثم استخدمه الرشيد، وعرف بصاحب أبي حنيفة إذ كان يتردد عليه وهو فقير، وكان أبو يوسف يقول "توفى والدي وخلفني صغيراً في حجر أُمي فأسلمتني إلى قصار أخدمه، فكنت أدع القصار وأمضى إلى حلقة أبي حنيفة فأجلس وكانت أُمي تجيء خلفي فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصار، وكان أبو حنيفة يعنى بي لما يرى من حرصى على التعلم... ثم لزمته فنفعنى الله بالعلم، ورفعنى حتى تقلدت القضاء وكنت أجالس الرشيد أكل معه على مائدته^(١).

وارتفعت منزلة القضاة في عصرى المأمون والمعتمد فقد عهد المأمون إلى قاضيه أبى محمد يحيى بن أكثم بامتحان القضاة الذين يراد توليتهم من وجوه الفقهاء وأهل العلم فى بغداد^(٢)، كذلك أدناه المأمون إليه وكان إذا ركب مع المأمون فى سفر ركب معه بمنطقة وقباء وسيف بمعالق وشاشية وإذا كان الشتاء ركب فى أقبية الخز وقلانس والسمور والسروج المكشوفة^(٣)، ويبلغ من أهمية القاضى ابن أبى دؤاد أن المعتصم لم يكن بيت فى أمر إلا برأيه^(٤)، وكان القضاء ينقسم إلى قضاء شرعى وقضاء مدنى وكان القاضى الشرعى يفصل فى المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق والمواريث والأوقاف، أما القضاء المدنى فاشتمل على ثلاثة خطط هى: النظر فى المظالم والشرطة المدنية والحسبة.

- النظر فى المظالم:

هو منصب قضائى هام تختلط فيه سطوة السلطنة ونصفه القضاء ويحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة، ويقضى برفع الظلم عن كاهل المظلوم، وكان متولى النظر فى المظالم يمضى ما عجز القضاء عن إمضائه، لأن سلطته تفوق

(١) الإربالى، ص ١٣١.

(٢) ابن طيفور: بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية، بغداد ١٩٦٨، ص ٤٠.

(٣) المسعودى: مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٣٥.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، طبعة القاهرة، ١٩٤٨، ج ٥، ص ١٩٨.

سلطة القاضى عندما يتظلم المتقاضون من حكم جائر. وكان يرأس محكمة المظالم الخليفة نفسه أو من ينوب عنه من كبار رجال الدولة وأول من جلس النظر فى المظالم فى الدولة الأموية عبد الملك بن مروان الذى خصص يوماً لبحث الشكايات^(١)، وظلت المظالم ترفع إلى الخليفة مباشرة حتى قيام الدولة العباسية فعهدوا بالنظر فيها إلى قاض يعرف بصاحب المظالم ينوب عن الخليفة، ولا يشترط فيه أن يكون قاضياً، فقد يكون وزيراً. وكان مقر النظر فى المظالم قصر الخليفة أو المسجد الجامع. ويعتبر المهدي أول من اهتم من خلفاء بنى العباس بالنظر فى المظالم^(٢)، وكان يجلس فى كل وقت لرد المظالم، وروى عنه أنه كان إذا جلس للمظالم قال: " أدخلوا على القضاة، فلو لم يكن ردى للمظالم إلا للحياء منهم لكفى"^(٣)، وتابع الخلفاء العباسيون بعده الجلوس للمظالم، ومن هؤلاء الخلفاء الهادى الذى كان يجلس للمظالم ويفصل فيها بنفسه ولكنه كان يستغل جلوسه لمضايقة من كان يحقد عليهم، ويذكر الجهشيارى أنه كان يحقد على عمارة بن حمزة (متولى الخراج بالبصرة) أيام كان ولياً للعهد، فلما ولى الخلافة دس إليه رجلاً يدعى عليه أنه غصبه الضيعة المعروفة بالبيضاء بالكوفة وكانت قيمتها ألف ألف درهم، " فبينما الهادى ذات يوم قد جلس للمظالم وعمارة بحضرته، وثب الرجل فتظلم منه فقال الهادى لعمارة: ما تقول فيما ادعاه الرجل؟ فقال: إن كانت الضيعة لى فهى له، وإن كانت له فهى له، وانصرف على المجلس"^(٤).

وذكروا أنه تأخر عن الجلوس للمظالم أياماً، فدخل عليه على بن صالح وقال له إن العامة لا تستقيم أمرها إن لم تجلس للمظالم، فقال: انذن للناس على بالجفلى لا النقرى. فخرج على بن صالح وهو لا يدرى ما أراد، وخاف مراجعته،

(١) المأوردى: الأحكام السلطانية، ٧٤.

(٢) المسعودى: ج ٣، ص ٣١٢.

(٣) ابن طباطبا، ص ١٦١.

(٤) الجهشيارى، ص ١٦٤.

فسأل إعرابيا عن الجفلى والنقري، فأفهمه أن الجفلى دعوة العموم والنقري دعوة الخصوص، فأمر على بن صالح برفع الستور وفتح الأبواب، فدخل الناس ولم يزل ينظر فى المظالم إلى الليل^(١).

وفى عصر الرشيد فوض إلى جعفر النظر فى قصص المتظلمين فكان جعفر يجلس للنظر فيها ثم تابع المأمون سياسة المهدي والهادي وكان يجلس للمظالم ويروى ابن طيفور أن المأمون قعد يوما للمظالم "فقد سلم صاحب الحوائج بضعة عشر رجلا فنظر فى مظالمهم، وأمر ففضى حوائجهم، وكان فيهم نصراني من كشكر كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعد له فى طريقه فلما بصر به المأمون أثبتته معرفة فقال: ابطحوه فضربه عشرين درة، ثم قال لسلم: قل له تعود تصيح بى؟ فقال له سلم وهو مبطوح، فقال النصراني: قل له أعود وأعود وأعود حتى تنظر فى حاجتى. فأبلغه سلم ما قال، فقال: هذا مظلوم موطن نفسه على القتل أو قضاء حاجته، ثم قال لأبى عباد: أقض حاجة هذا الرجل كأننا ما كانت الساعة. ولم يكن المأمون يكتفى بالنظر فى المظالم فى المجلس وإنما كان ينصف المتظلمين الذين يعترضون موكبه، والأمثلة عديدة فى كتب التاريخ والأدب، منها أنه اعترضه -وهو ركب بالشماسية ببغداد وخلفه أحمد بن هشام- رجل من أهل فارس وصاح به: "الله الله يا أمير المؤمنين، فإن أحمد بن هشام ظلمنى واعتدى على" فقال له المأمون "كن بالباب حتى أرجع، فلما جاز الموضع التفت المأمون إلى أحمد وعنفه ثم أمره بأن ينصفه من نفسه، وقال له: "لا تجعل لنا ذريعة إلى ما تكره من ائتمك فوالله لو ظلمت العباس ابنى كنت أقل نكيرا عليك من أن تظلم ضعيفا لا يجدنى فى كل وقت، ولا مجلوا له وجهى وسيما من تجشم السفر البعيد وكابد حر الهواجر وطول المسافة"^(٢).

وكان صاحب المظالم ينظر فى القضايا التى يقيماها الأفراد على الولاة إذا ثبت اشتطاطهم فى جمع الضرائب أو الجزية أو منع بناء كنائس أو من سوء

(١) الإربلى، ص ١٠٤.

(٢) ابن طيفور، ص ٥٦.

معاملة الموظفين للأهالي، كما ينظر في ظلمات من نقصت أرزاقهم وكان المتظلم يقدم تظلمه كتابة عن طريق رقعة أو قصة يقال لها مخاصمة أو شكوى أو ظلامه، فتعرض هذه الظلامة على مجلس المظالم.

- المحتسب:

ليست هذه الوظيفة في الواقع منصباً قضائياً، وإنما هي منصب ديني أخلاقي أساسه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ملحق بالقضاء لأن فيه حكماً، ثم تعدت الحسبة هذا المعنى الديني إلى أمور مادية تتفق مع مصالح المسلمين، فأصبحت الحسبة أشبه بخدمة اجتماعية اقتصادية لسكان المدن كمحافظة على نظافة الطرق ومراقبة الأسواق، والكشف عن صحة الموازين والمكاييل والرأفة بالحيوان، ومنع معلمى الصبيان من ضرب الأطفال ضرباً شديداً، ومنع الناس من شرب الخمر. ولكن العمل الأساسى للمحتسب لم يلبث أن تطور بعد أن تطورت الحسبة في المدن فأصبح اقتصادياً يقوم على منع الغش في الصناعة والمعاملات، وخاصة الإشراف على صحة الموازين والمكاييل وكان المحتسب يسير بنفسه في الأسواق ومعه أعوانه من الخبراء في شئون الأسواق يعرفون بالعرفاء يحملون الموازين والمكاييل الصحيحة فيدس المحتسب أحد أعوانه على البائعين ويختبر وزن السلعة أو كيلها.

وكانت للمحتسبة سلطة تنفيذية مفوضة إلى رأيه وهو ما يعرف بالتعزير (الزجر) الذى يعنى نوعاً من العقاب لم يقره القرآن، ولكن اتفق عليه في البلاد التابعة للخلافة العباسية وكان يستعين في تنفيذ العقوبة بالأعوان والعقاب أنواع منها الردع على شىء محرم والتوبيخ بالقول أو الضرب بالسياط أو الدرة، والنفى من البلد أو التشهير والتجريس.

وكثيراً ما كان القضاء والحسبة يسندان معاً إلى رجل وأحد رغم ما بين العاملين من الاختلاف فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم، وعمل المحتسب قوامه الشدة والسرعة فى العمل.

- الشرطة:

هم جماعة من الجند كان يعتمد عليهم الخليفة أو الوالى فى حفظ النظام والقبض على المجرمين ويقترن عملهم بنظام الحراسة والعسس فى الليل وكانت فى الأصل ملحقة بالقضاء لأنها تقوم على تنفيذ الأحكام القضائية وصاحبها يتولى إقامة الحدود. وكان أصل وضعها فى الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم فى حال استبدائها أولاً، ثم الحدود بعد استيفائها فإن التهم التى تعرض فى الجرائم لا نظر للشرع إلا فى استيفاء حدودها وللسياسة النظر فى استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن، لما توجبه المصلحة العامة فى ذلك . فكان الذى يقوم بهذا الاستبداء وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضى يسمى صاحب الشرطة وربما جعلوا إليه النظر فى الحدود والدماء بإطلاق وأفردها من نظر القاضى، ونزهوا هذه المرتبة، وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم"^(١).

وكان صاحب الشرطة يختار عادة من أهل العصبية والقوة لأن عليه تقع مسئولية المحافظة على الأمن فى البلاد ومطاردة المجرمين وأهل الفساد، وكان يسمى عند العامة بصاحب الليل إذ كانت خطته تعنى الطواف بالليل وكان من مهامه بث العسس فى الأزقة والشوارع للقبض على اللصوص والسطار، وهم طائفة من عامة الناس اشتهروا بالسرقات وكانوا يستدرجون ضحاياهم ويسلبونهم ما معهم بحيل لا يفتنون إليها مع التظاهر بالبراءة^(٢)، ونشطت حركتها فى أعقاب الفتنة بين الأمين والمأمون.

ومن الشخصيات البارزة التى تولت الشرطة القائد الكبير طاهر بن الحسين ولاة المأمون الشرطة فى سنة ٢٠٥^(٣)، وذكروا أنه نما إليه بعد توليه الشرطة أن فى الحبس رجلا تنصر، فأمر حاجبة يحيى البوشنجى بأن يحمل

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، ج ٢، ص ٢٩٥.

(٢) التبوخى: الفرج بعد الشدة، ج ٢، القاهرة ١٩٥٥، ص ٣٣.

(٣) ابن طيفور، ص ١٣.

السيف والنطع ويأتى به دار المأمون إلى مجلسه ثم استدعى الرجل وقال له :
"يا عدو الله تنصرت بعد الإسلام؟ قال أصلح الله الأمير، والله ما تنصرت وما أنا
إلا مسلم، ولكن حبست فى كساء بدرهمين سنتين فلما رأيت أمرى طال، وليس لى
مذكر يذكرنى قلت أنى مصرانى، وأنت أيها الأمير مصرانى، وهذا وهذا مصرانى
وأنا رجل من أصحابك أيها الأمير، فكبر طاهر، ودخل على المأمون فأخبره الخبر
وأمر أن يوهب له ثلثمائة درهم وأن يخلى سبيله فأمر طاهر بذلك".

ويعتبر الرشيد من أكثر خلفاء بنى العباس حرصا على توفير الأمن فى
البلاد، فقد دس شبكة من العيون بإمرة صاحب الشرطة حتى يمنع الاضطراب
الذى يحدث من كثرة الوافدين إليها، وأقام الحراس بالليل للمحافظة على الدروب.
وكان صاحب الشرطة يعاقب المفسدين إما بالحد والزجر وهى عقوبة من
يشرب الخمر ويعمل المنكر، أو يقطع اليد من مفصل المرفق للشارق لأول مرة
أو الرجم بالحجارة أو الجلد بالسياط أو السجن فى المطبق وهو الحبس.



اسطرلاب محفوظ في المتحف الوطني دمشق وهو مؤرخ من سنة ٩٨٢ هـ

الفصل الخامس الحياة الاجتماعية في العصر العباسي

* طوائف السكان:

- المرأة .
- الطعام والشراب .
- الألعاب .
- الأعياد والمواسم والمواكب .
- مجالس الغناء والموسيقى في بغداد .

* التنظيمات العمرانية :

- مدينة بغداد .
- مدينة سامراء .

تاريخ الدولة العباسية
الحياة الاجتماعية في العصر العباسي
* طوائف السكان:

كان يقيم بين المسلمين ببلاد الدولة العباسية عدد كبير من أهل الذمة، وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى، نوعاً من التسامح. ومما يدل على تسامح^(١) الخلفاء العباسيين الديني مع غير المسلمين، أن الحكومة الإسلامية لم تتدخل في شعائر الحكومة الدينية لأهل الذمة وكانت الأديرة منتشرة في كل أجزاء بغداد، يقيم فيها النصارى واليهود حيث يمارسون شعائرهم في أمن وطمأنينة. بل أكثر من ذلك أن بعض الخلفاء العباسيين كانوا يحضرون مواكب أهل الذمة واشتركوا في إحياء أعيادهم ومواسمهم، ولم يكن يوجد في المدن الإسلامية أحياء رسمية مخصصة للنصارى أو اليهود بحيث لا يتعدونها وإن آثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين، وقد ألزمهم بعض الخلفاء اتخاذ ملابس خاصة يعرفون بها، كما منهم البعض الآخر من تغطية بيوتهم على أبنية المسلمين، ولم ينصهر المسلمون مع غير المسلمين، ولم يكن يجوز للمسيحي أن يهود ولا لليهودي أن ينتصر، واقتصر الدين على الدخول في الإسلام، ولم يكن النصراني يرث اليهودي، ولا اليهودي يرث النصراني، كما لم يكن اليهودي أو النصراني يرث المسلم، ولا المسلم يرث غير المسلم يهودياً أو نصرانياً وقد أصدر الخليفة المقتدر (كتاباً في المواريث أمر فيه بأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً، إلى أهل ملته، علي حين أن تركة المسلم ترد إلى بيت المال).

واعتمد الخلفاء العباسيون على الفرس دون العرب، مما كان من عوامل نقيمتهم على العباسيين وثورتهم عليهم. ولما ولي المعتصم الخلافة، ظهر العنصر التركي الذي استأثر بالنفوذ دون الفرس والعرب، علي أن بعض الخلفاء العباسيين في العصر الثاني، أدركوا خطر الأتراك فاستعانوا بالمغاربية والراعية،

(١) التاريخ الإسلامي العام: عيد علي إبراهيم حسن، ص ٥٨٣ - ٥٩٧.

وغيرهم من الجنود المرتزقة كالأكراد والقرامطة. ولما انتقلت السلطة في بغداد إلى بني بويه قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذين كان البويهيون ينتسبون إليهم، وأصبح الديلم خطراً يهدد كيان الدولة العباسية، وانقسم المسلمون في هذا العصر إلى شيع وطوائف. فهناك السنيون وكانوا يكونون الغالبية العظمى من السكان ويتمتعون بقسط وافر من الحرية في عهد نفوذ الأتراك وعهد إمارة الأمراء، وهناك الشيعيون وقد قاسوا كثيراً من المحن في هذا العهد حتي استولي بنو بويه علي العراق فتمتعوا بالطمأنينة في ظلهم، ومن ثم قامت المنازعات بين السنين والشيعيين.

وكان اتخاذ الرقيق منتشراً في العصر العباسي. ومن أكبر أسواقه سمرقند، وكانت بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر؛ ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة إمتهان وازدراء، بدليل أن كثيراً منهم كانت أمهاتهم من الرقيق، وقد أولع الخلفاء باتخاذ الإماء من غير العرب. لأنهن كن في الغالب أوفر جمالاً، وجرت العادة علي ألا يري الرجل من يريد التزوج بها رؤية تامة إذا كانت من الحرائر إلا في حدود ما يسمح به الشرع الإسلامي، بخلاف الأمة فقد كان يستطيع أن يراها ويعرف طباعها وأخلاقها بحكم مخالطتها قبل أن يقدم علي الإقتران بها، وكثيراً ما كان أبناء الجواري أحب إلي آبائهم من أبناء الحرائر، ولم يكن ثمة فرق في التوريث بين أبناء الحرائر والإماء، وكان كثير من الخلفاء العباسيين من أمهات أولاد: فكانت أم المأمون فارسية، وأم المعتصم تركية، وشجاع أم المتوكل خورازمية، وأم المقتدر رومية، وكذا كانت أم الخليفة المستكفي، وكانت أم المطيع صقلية.

– المرأة:

كان للمرأة في عهد الدولة العباسية القدر المعلي في الميادين الاجتماعية والسياسية، فقد كانت امرأة مثاليه، لها وزنها وقدرها في توجيه المسائل العامة، ومن أبرز الشخصيات النسائية في بغداد في العصر العباسي: الخيزران، وزبيدة، والعباسة، وقبيحة، والسيدة.

تدخل نساء بغداد في شئون الدولة العباسية، كالخيزران، التي كانت كثيراً ما تسأل ابنها الهادي ليقضي حاجات المترددين علي بيتها من المسلمين. غير أن شدة غيرة الهادي علي النساء، حملته علي أن يضع حداً لتدخلها في أمور دولته، فقال لها مهدداً متوعداً حين سألته ذات مرة في مسألة لم يجد إلي قضائها سبيلاً : " لئن بلغني انه وقف ببابك أحد من قوادي أو خاصتي أو من خدمي، لأضربن عنقه ولأقبضن ماله". ولما أحس الهادي بدنو أجله بعث يطلب أمه الخيزران، فحضرت إليه وخاطبها بقوله: " أنا هالك في هذه الليلة، وفيها بلي أخي هارون، وقد كنت أمرتك بأشياء، ونهيتك عن أخرى مما أوجبته سياسة الملك، لا موجبات الشرع من برك، ولم أكن بك عاقباً بل كنت لك صانئاً ويراً واصلأ.

وهذه السيدة زبيدة، زوجة الخليفة هارون وأم الأمين، تمتعت بقسط وافر من الحرية وتدخلت في شئون الدولة، حتي أن الأمين بن هارون الرشيد ولي الخلافة بتأثير أمه زبيدة، إذ عدل الرشيد عن عزمه في تولية ابنه المأمون من بعده باعتباره أكبر أولاده سنأً وبإيع الأمين.

ولعل من أبرز النساء اللاتي ظهرن في العصر العباسي وأوسعهن شهرة وأظهرهن شخصية، العباسة ابنة المهدي وأخت الرشيد، فقد قيل إن الرشيد كان يعمل بمشورة أخته، وكانت ذات ثقافة عالية وذكاء نادر، حلوة الحديث لطيفة المعشر، وكانت تحضر دائماً مجلس الرشيد.

وتمثل بوران ابنة الوزير الحسن بن سهل وزوجة المأمون، حياة الترف والنعيم التي عاشها بعض نساء بغداد في العصر العباسي وكانت من أجمل نساء بغداد وأغزهن علماً وأوفرهن أدباً، وبذل الحسن بن سهل في زفاف ابنته للمأمون كثيراً من أموال.

ومن نساء العصر العباسي الثاني: من كانت لهن السطوة علي أولادهن من الخلفاء، حتي كن يشرفن علي شئون الدولة ويشركن في تدبير أمور الحكم، وكان لهن أكبر الأثر في سير الحوادث في بغداد، ومن أبرزهن "قبيحة" أم الخليفة

المعتز بن المتوكل، التي تسببت في قتل الخليفة المعزول (المستعين بالله وكان قد أخرج إلي بلده واصل وذلك خوفاً علي حياة ولدها من أن تمتد إليه يد الأعداء إذا ظل المستعين علي قيد الحياة.

وقد ظهر تدخل النساء جلياً في شئون الدولة في عهد الخليفة المقتدر، يقول صاحب الفخري " واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخطيط كثير، لصغر سنه واستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه، فكانت دولة تدور أمورها علي تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذاته" فقد أصبح الأمر والنهي بيد أمه "السيدة" وبلغ من عظم نفوذها أنها كانت إذا غضبت هي أو قهر مانتها علي وزير، أقيـل من منصبه: كما حدث لعلي بن عيسي، فقد أمرت بالقبض عليه بسبب سوء استقبال حاجبه لقهرمانتها، وليس هذا كل ما كان للسيدة من نفوذ- بل أن سلطتها تعدت حدود ذلك فعينت قهرمانتها" ثومال" رئيسة للمظالم.

ولم تعطل مجالس النساء المثقفات إلا في عهد الخليفة المتوكل رغم أن نجم "فضل" الشاعر المشهور قد تألق في عهد هذا الخليفة. الملابس.

تطور الزي في الدولة العباسية عما كان عليه الحال قبل قيامها، وذلك لظهور الأزياء الفارسية في البلاط العباسي، وقد قرر أبو جعفر المنصور بأن تلبس بصفة رسمية القبعات السوداء الطويلة المخروطة الشكل- ويطلق عليها اسم القلانيس.*

وأدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب، وغدا خلعتها علي الناس من حق الخليفة، يتبين ذلك من العملة التي ضربت في عهد الخليفة المتوكل، حيث تظهر صورته مرتدياً ملابس فارسية. ولما تولي المستعين الخلافة (٢٤٨- ٢٥٢هـ) صغر القلانيس، بعد أن كانت طوالاً، وأدخل لبس الأكمام الواسعة التي لم تكن تعرف من قبل، فجعل عرضها نحو ثلاثة أشبار، وكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب يحفظ فيها الإنسان كل ما يرغب في حفظه، فكان الكاتب يحفظ فيها الرقعة لعرضها، والقاضي يضع فيها الكراساة التي يقرأ منها الخطبة يوم الجمعة.

أما الملابس العادية للطبقة الراقية في العصر العباسي، فكانت تشتمل علي سروالة فضفاضة وقميص وبترة وقفطان وقباء وقلنسوة وتشتمل ملابس العامة علي إزار وقميص وسترة طويلة وحزام وينتعلون الأحذية والنعال.

وكان رجال الدولة يتميزون بملابسهم: فيلبس الكتاب الدراعات وهي ثياب مشوقة من الصدر، ويرتدي العلماء الطيالسة، أما القواد فيلبسون الأقبية الفارسية القصيرة وكان من المستحسن لبس الثياب البيضاء، وفي القرن الرابع الهجري كانوا يرون أنه لا يجوز للرجال لبس الثياب ذات الألوان إلا في بيوتهم، علي حين أنهم أجازوا لبسها للنساء.

وقد اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس منضداً بالجواهر محلي بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة، ويعزي ابتكار هذا الغطاء إلي "عليّة" أخت الرشيد، وكانت نساء الطبقة الوسطي يزين رءوسهن بحلية مسطحة من الذهب ويلفن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرّد. كذلك كن يلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معصمهن وأزنادهن، ولم يكن يجهلن فن التجميل، ومن الجلي أنهن أخذته عن الفارسيات. ويعزي إلي السيدة زبيدة إتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر، وكانت فوق ذلك تسرف في شراء ملابسها وتزيينها، فقد اتخذت ثوباً من الوشي الرفيع يزيد ثمنه علي خمسين ألف دينار.

- الطعام والشراب:

بلغ من تفنن العباسيين في الطهي وإسرافهم في الإنفاق عليه، أن بعضهم كان يشتري مقادير كبيرة من السمك لتقديم أسنّته علي المائدة، يأكلون من ألوان الطعام الشهية، فإن إبراهيم بن المهدي لما استضاف الرشيد في الرقة، قدم له لونا من الطعام، فاستصغر القطع، وقال لم صغر طبّاخك تقطيع السمك. فرد إبراهيم بقوله: يا أمير المؤمنين. هذه أسنة السمك، وأخبره إبراهيم أنه كلفها أكثر من ألف درهم، فاستكثر الرشيد هذا المبلغ".

وبلغت نفقة المأمون في اليوم علي مطابخة مبلغاً كبيراً، واعتاد أهل بغداد جلب ألوان الطعام كالسمك والحبوب والجبن من فارس وعمان والهند، ولم

يسمح الخلفاء العباسيون بتناول النبيذ علي مواندھم، علي الرغم من أنهم كانوا يشربونه أحياناً .

- الألعاب:

ذاعت في العصر العباسي عدة ألعاب، مثل لعب الشطرنج، والنرد، وسباق الخيل، والصيد، ومن بين الخلفاء الذين أقبلوا علي لعبة الشطرنج، الخليفة المأمون بعد قدومة من خراسان إلي بغداد والخليفة المعتضد الذي اشتهر في عهده نوع من الشطرنج يسمي الجوارحية أو اللعب بالجوارح لأن حواس الإنسان تعمل أثناء لعبها، وانتشرت بين الناس لعبة النرد وكان يلعب بثلاثين حجراً وفصين علي رقعة بها اثنا عشر وأربعة وعشرين منزلاً.

أما سباق الخيل، فكان يعد تسلية الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة في العصر العباسي، وقد أباح الخلفاء هذه الرياضة بشرط ألا تلعب طلباً للمال، وكلف بعض الخلفاء بالصيد، فقد حرص الخليفة المهدي علي القيام برحلات صيد منظمة، وبين يديه فرسان من الحراس يتقلدون سيوفهم.

ومن الألعاب التي كان يتسلي بها أهل بغداد، اللعب بالخيال، فقد كان في بغداد رجل يعرف بابن المغازلي يقف علي الطريق ويقص علي الناس الأخبار والنوادر المضحكة، ويقلدھم علي اختلاف طوائفهم، وقد سمع الخليفة المعتضد بنوادره، فأمر بإحضاره بين يديه، ليقصها عليه، فأعجب بها وأجزل له العطاء.

- الأعياد والمواسم والمواكب:

احتفل خلفاء بغداد بعيدي الفطر والأضحى احتفالاً باهراً، كما حرصوا منذ بداية القرن الرابع الهجري علي الاحتفال بمولد النبي صلي الله عليه وسلم، واحتفلوا بيوم النوروز وهو أول أيام السنة عند الفرس وأحد مواسمهم القديمة وكان المسلمون قد أبتلوا الاحتفال بهذا العيد في بلاد الفرس بعد الفتح الإسلامي، غير أنه عاد في الصدر الأول من أيام العباسيين، وكان الناس يتبادلون فيه الهدايا.

وكذلك الحال في عيد المهرجان، وهو أول أيام الشتاء، فكان الناس يتهادون فيهن وقد جرت العادة أن يخلع الخلفاء في هذا العيد ملابس الشتاء علي القواد، وكبار رجال الدولة، وكان اليوم الخامس من المهرجان من أعظم أيام الفرس ويسمونه "رام روز"، واهتم الفرس كذلك بعيد الرام، ويقع في اليوم الحادي والعشرين من المهرجان.

وبذلك احتفل العباسيون بأعياد الفرس وخاصة اليزوز والمهرجان والرام وأصبحت من أهم الأعياد الرسمية في الدولة العباسية.

وفي أيام الجمع والأعياد في العصر العباسي، وكان يسير في مقدمة موكب الخليفة: الناس علي اختلاف طبقاتهم حاملين الأعلام. ثم أمراء البيت العباسي علي الخيول المطهمة، ثم الخليفة لابساً القباء الأسود وعليه قلنسوة طويلة مزينة بجوهره وتمنطقاً بمنطقة مرصعة بالجواهر ومتشعباً بعباءة سوداء، وبين يديه كبار رجال الدولة، ومن أعظم مواكب العباسيين، عدا موكب الخليفة، موكب الحج حيث يجتمع في بغداد الحجاج من مختلف الأمصار الإسلامية الشرقية.

- مجالس الغناء والموسيقى في بغداد:

بدأت الدولة العباسية علي يدي السفاح ثم أبي جعفر المنصور، والعهد عهد فتن وتنازع وتشيع وتخرب، فطبع المنصور نفسه علي اليقظة والسهر، ولا

شك أن خليفة مثل هذا جبل علي الحرص وتنكب أسباب الشك، يجفوا الطرب ويصرف نفسه عن الاشتغال بالملاهي، حتي لا يجد أعداؤه المتربصون به سييلا إلي اقتحام ملكه، وكان اتصافه بألبخل واشتهاره به، من الأسباب التي باعدت بينه وبين شعراء عصره حتي خرج الشعراء في أيامه من الحضرة إلي غير وجهة" وذكر صاحب العقد الفريد أن حاجب المنصور قال: "إن الشعراء ببابك وهم كثيرون، طالت أيامهم ونفذت نفقاتهم"، والغناء يقلب البذخ والترف، فلم يكن في عهد المنصور قبس من الأمل في الارتقاء، وكان المنصور ورعا يعبر آل الزبير بحبهم للغناء وقد سمع ذات يوم ضرب طنبور في داره، فكسره علي صاحبه، ولم يسمح بالغناء إلا بعد إنشائه بغداد التي كانت فيما بعد موئل الفن وكعبة الغناء، بيد أنه يجدر ألا ننسي أن العرب في خلافة المنصور، عربوا كتاباً لبطليموس في الألحان الثمانية، كان له في الموسيقى إذ ذاك شأن كبير.

لم تعدم الدولة العباسية (فيما بعد) خلفاء من أمثال المنصور في إقبالهم علي الغناء وزهدهم في سماع الموسيقى، كما فعل المأمون بعد عودته من خراسان فقد وجد الفوضى ضاربة أظنابها، فأمر بمنع الغناء، ولكن ذلك كان إلي حين، وريثما صفا له الزمان واتسقت الأمور، ثم ما لبث أن أغرق في اللهو حتي صار يسمر عنده كل ليلة إسحاق الموصلي وإبراهيم بن المهدي، وكان يقول لهما: بkra علي، قد اشتقنا إلي الصبوح وتشبه الخليفة المهدي العباسي بعمر بن العزيز في ورعه وتقواه، فلما ولي الخلافة سنة ٢٥٥هـ أمر بتحريم الطرب.

علي أنه فيما عدا هؤلاء، تري الخلفاء العباسيين قد أقبلوا علي الغناء، وشارك الخلفاء في ذلك الأمراء والعامّة، وأخذ الخلفاء يغدقون الهبات والهدايا علي المغنين، وساعدهم علي ذلك، تلك الثروة التي حفلت بها بغداد وأكثر من ذلك أن كثيراً من الخلفاء العباسيين اشتغلوا بصناعة الألحان وبرزوا فيها وذاعت لهم أنغام رائعة، ومن أشهرهم المهدي بن المنصور الذي كان قصره مجمع الموسيقين، ومنهم الواثق والمنتصر والمعتمد والمعتضد وكان أول من دونت

صنعته في الغناء من أبناء الخلفاء: إبراهيم بن المهدي، وأخته عليه وأبو عيسى بن الرشيد، وعبدالله بن موسى الهادي، وعبدالله ابن محمد الأمين، وعيسى بن المتوكل، وعبدالله بن المعتز: وحفلت دور البرامكة بالجواري المغنيات، ويقال إنهم الذين كانوا يعلمونهن الغناء.

ولم تكن عناية بعض الخلفاء العباسيين في بغداد رجال الأدب والشعراء أقل من عنايتهم برجال الفن الجميل من المطربين والمغنين والموسيقي، فقد كان كل منهم معطاء للأموال، حتي كان يغدق علي هؤلاء جميعاً الهبات، مما حببه إليهم، واتصف الخلفاء بحب الفنون والإقبال علي تشجيعها والأخذ بناصر أصحابها.

وقد جرت عادة بعض الخلفاء العباسيين علي الظهور في مجالس الغناء مثل المهدي والهادي، ولكن السفاح والمنصور لم يظهرها في ولوعه بالغناء من محبتهم الغناء والطرب له. وفاق هارون الرشيد الخلفاء في ولوعه بالغناء والموسيقي وإجزاله العطاء للمغنين والموسيقيين، وهو أول من جعل المغنيين مراتب وطبقات، كان آخرها طبقة المضحكين وأهل الهزل والفكاهات ولم يكن بينها رغم ذلك - علي حد قول الجاحظ - "خسيس الأصل ولا وضعه ولا ناقص الجوارح ولا فاحش القول ولا مجهول الأبوين ولا ابن صناعة دنيئة".

علي أنه إذا ظهر أحد المغنين براعة في فنه، أمر الخليفة بترقية إلي الرتبة التي تعلق رتبته، فإن برصوما الزامر أعجب الرشيد، فأمره صاحب الستارة أن يؤمر علي عناء ابن جامع المغني المشهور، فرفض ذلك برصوم، وقال: إن كنت أؤمر علي الطبقة العاليه رفعت إليها: فأما أن أكون في الطبقة الثانية وأؤمر علي الأولي فلا أفع، فقال الرشيد لصاحب الستارة أرفعه إلي الطبقة الأولي .

ولم يجتمع علي باب خليفة من المغنين والموسيقيين، ما اجتمع علي باب الرشيد. وممن نبغ منهم في "عهد المنصور زلزل" الذي اشتهر بحسن الضرب علي العود. حتي قيل إنه كان إذا جسسه لم يملك أحد نفسه حتي يطرب، وذاعت شهرة المغني مسكين المدني الذي فاق في الغناء ابن جامع أشهر مغني

عصره فقد غني بن جامع يوماً في مجلس الرشيد فلم يطرب الخليفة؛ وإذذاك قال صاحب الستارة لمسكين: بأمر أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت أن تغني، فاندفع في الغناء وأعجب به الرشيد وطلب إليه أن يعيد علي مسامعه غناه فأعادته بقوة ونشاط، فقال له الخليفة: أحسنت وأحملت.

وحظي إبراهيم الموصللي وابنه إسحاق برضاء الخلفاء العباسيين، وكانا من رجال الأدب، ولكن الغناء قد غلب عليهما بما وضعاه من الألحان، وقد أبدع إبراهيم في تنسيقها، حتي توهم أن الأرواح هي التي تعلمه الصوت.

ولم يقتصر مجلس الغناء علي الخلفاء وحدهم بل جاراهم في ذلك المضممار الأمراء والوزراء وسائر رجالات الدولة وكان المغنون يلبسون " الثياب المطبوعة، وكانوا إذ جلسوا في تلك المجالس لبسوا الثياب الحمر والصفرة والخضر، ثم جلسوا يشربون ودارت الكاسات"، ولم تخل تلك المجالس من النوادر والطرائف التي تملؤها بهجة وسروراً. وكما ارتفع شأن الغناء، ازدهرت الموسيقى؛ وكثيراً ما اشتركت الأميرات وسيدات الطبقة الراقية في بغداد في رحلات موسيقية خاصة.

وحفلت مجالس الغناء والمغنين، وأجزل لهم هارون العطاء مما جذبهم إليه. واشتهر من بينهم المغني زرياب، الذي أنجب حمدونة وعليه، فتعلمنا الغناء علي يدي أبيهما وأصبحنا من شهيرات المغنيات.

كان زرياب، والد حمدونة وعليه، مولي الخليفة المهدي العباسي، فارسي الأصل وكان شاعراً مطبوعاً وأديباً ملماً بعلوم النجوم وأخلاق الشعوب وطبائعها وسير الملوك، حافظ لكثير من الحكم والأمثال. كما كان فصيحاً حلو الحديث حسن الصوت، تعلم الغناء علي إسحاق الموصللي وتفوق عليه دون أن يشعر بذلك وقد طلب هارون الرشيد من إسحاق أن يأتي له بمغن غريب قد حنق الغناء، وإن لم يكن قد اشتهر في هذا الفن، فذكر له تلميذه زرياب، فلما كلمة الرشيد أعرب عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب، وسأله عن معرفته بالغناء، فقال: نعم! أحسن منه ما يحسنه الناس، وأكثر ما أحسنه لا يحسنه

مما لا يحسن إلا عندك؛ فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك؛ فأمره الرشيد بالغناء، فجلس ثم اندفع فغناه:

يا أيها الملك الميمون طائرة * هارون راح إليك الناس وابتكروا
فأتم النوبة، وطار الرشيد طرباً وأنب إسحاق علي كتمانته أمر زرياب
عنه، فسقط في يد إسحاق وخلا بزرياب وقال: يا علي إن الحسد أقدم الأدواء
وأدواها والدنيا فتاكة، والشركة في الصناعة عدواة ولا حية في حسمها، فتخير
في اثنتين لابد لك منهما، أن تذهب عني في الأرض العريضة لا أسمع عنك
خبراً، وأما تقيم علي كرهني ورغمي مستهدفاً إلي . فأختار زرياب الرحيل، ورحل
أولاً إلي المغرب ومنها إلي الأندلس في خلافة عبدالرحمن الأوسط، الذي أحب
زرياب حباً شديداً وقدمه علي جميع المغنين.

تلك هي حياة زرياب الولي، وقد ورثه أولاده في الغناء وكانوا ثمانية
ذكور وبنيتين هما عليه وحمدونة، وقد تعلموا جميعاً الغناء ومارسوا صناعة
الغناء وأصبحت أسرته كلها تحترف هذا الفن. وتزوجت عليه بنت زرياب من
الوزير هشام بن عبد العزيز، أما حمدونه فقد تفوقت في فن الغناء علي أختها
عليه. وتقدمت في السن، حتي لم يبق من بيت زرياب علي قيد الحياة سواها؟
وأخذ عنها الغناء علي أصوله التي وضعها والدها.

ويرجع الفضل إلي زرياب في تعاليم الجواري الغناء فقد كانت له جوار
أدبهن وعلمهن الغناء علي العود. ومن أشهرهن غزلان وهنيده اللتين كانتا
تأخذان عودهما بمجرد أن يهب زرياب من نومه ويأخذ هو عوده، ثم يكتب
الشعر ويعود إلي مضجعه. ومن بين هؤلاء الجواري، واشتهر هنيذ بفرط جمالها
وقد أعجب بها الخليفة عبدالرحمن الأوسط فأهداها زرياب إليه، وأصبحت من
محظياته المقربات.

وكان لخلفاء العصر العباسي الثاني مجالس للطرب والغناء يحضرها
الشعراء والأدباء والمغنون والموسيقيون والملهون، فقد جمع مجلس المتوكل أول

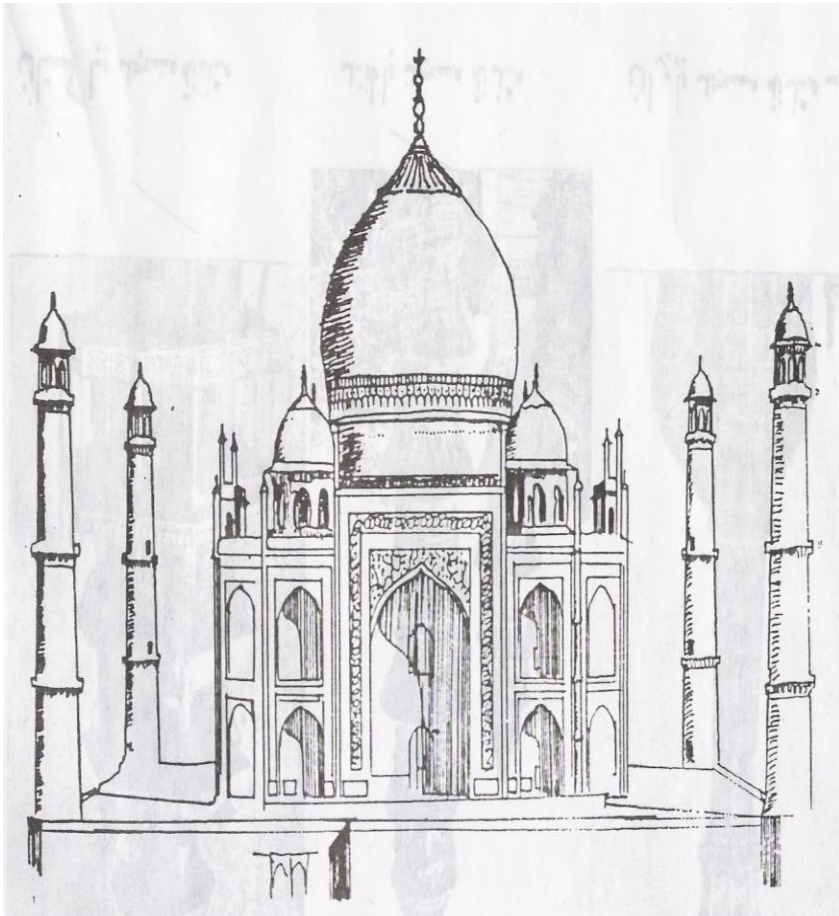
خلفاء هذا العصر مرة بين الشعراء والأدباء والملهين، وفرح في ذلك اليوم فرحاً شديداً وسر سروراً لم ير مثله، وزاد في تكرمة الشعراء وأجزل لهم العطاء.

وكان الخليفة المعتمد مشغولاً بالطرب والغناء والموسيقى، سأل عبدالله بن خرداذبة والد أبي القاسم عبيدالله الجغرافي المشهور صاحب كتاب "المسالك والممالك"، عن نشأة الموسيقى والغناء وما طرأ عليهما من تغيير. فأجاد في وصفها في البلاد الإسلامية منذ أقدم العصور، فسر المعتمد وقال له: قد قلت فأحسنت، ووصفت فأطنب. وأقمت في هذا اليوم سوقاً للغناء وعيداً لأنواع الملاهي، ثم سأله المعتمد عن أنواع الطرب فقال علي ثلاثة أوجه: طرب محرك ينعش النفس ودواعي الشيم (الكرم) عند السماع، وطرب شجن وحزن لاسيما إذا كان الشعر في وصف أيام الشباب والشوق إلي الأوطان والمرئي لمن عدم من الأحباب: وطرب يكون في صفاء النفس ولطافة الحس. وسأله المعتمد: فما منزلة الإيقاع وفنون النغم. قال إن منزلة الإيقاع من الغناء منزلة العروض من الشعر، "ويقول المسعودي: ففرح المعتمد في هذا اليوم وخلع علي ابن خرداذبة وعلي من حضره من ندمائه، وفضله عليهم، وكان يوم لهو وسرور"،

وكان الخليفة العباسي في العصر الثاني يهتم بمجالس الطرب، فقد تملك الراضي الهم لاستبداد "بحكم" بأمور الدولة وسكة النفوذ باسمه ولكنه أزال عن نفسه الهم وتمثل بقول المأمون:

صل الندمان يوم المهرجان * بصاف من معتقة الدنان
بكأس خسرواني عتيق * فإن العيد عيد خسروان

وتعددت مجالس الغناء والطرب، من الخلفاء إلي الأمراء وكبار رجال الدولة، ويرجع انتشار الغناء إذ ذاك إلي كثرة الجواري، وكان معظم القيان اللاتي يحترفن الغناء في أوائل القرن الرابع الهجري من الجواري، وقليل منهن من الحرائر وفي سنة ٢١٤ هـ أمر الخليفة القاهر بتحريم القيان والخمر وقبض علي المغنين وكسر آلات اللهو كما فعل الحنابلة في أوائل هذا القرن، وأمر ببيع المغنيات من الجواري، مع أن هذا الخليفة كان مولعاً بالشراب وسماع المغنيات.



* التنظيمات العمرانية:

- بناء مدينة بغداد:

بعد قيام الدولة العباسية، أخذ الخلفاء العباسيون يبحثون عن عاصمة جديدة يطمنون إلى ولاء سكانها، فاختروا مكاناً قرب الكوفة سموه هاشمية الكوفة، ثم انتقلوا إلى شمالي الأنبار، وبنوا بجوارها مدينة سموها هاشمية الأنبار.

إلا أن هذه المدن لم يرتح إليها العباسيون، ولهذا فكر الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور ببناء عاصمة جديدة، ووقع اختياره على منطقة تقع بين نهري دجلة والفرات، عرفت فيما بعد بمدينة بغداد.

- التسمية:

هنالك عدة آراء حول أصل تسمية مدينة بغداد من بينها:

- ١- مدينة السلام، والسلام هو أحد أسماء الله الحسنة.
- ٢- الزوراء، لا زوار أبوابها الخارجية عن الداخلية.
- ٣- المدورة، نسبة لاستدارة تخطيطها.
- ٤- مدينة المنصور نسبة لاسم مؤسسها وبانيها أبي جعفر المنصور، وهنالك إشارات متعددة أخرى تشير إلى قدم تسمية مدينة بغداد ومنها:
- ١- رقيم طينى يعود إلى العصر الكشى يذكر اسم الموقع باسم بكدادى
- ٢- إلى عصر حمورابى يذكر فيه اسم مدينة بصيف بكمدابادو.
- ٣- ورد اسم بغداد فى صخرة حدود- علاقة لتثبيت الحدود- تعود لعهد الملك البابلى مردوخ.

- أسباب اختيار هذا الموقع:-

يعود السبب فى اختيار هذا الموقع لعدة أمور أهمها:-

- ١- أن البناء قرب نهر دجلة يمكن أن يمتد إلى ضفتى النهر، بعكس نهر الفرات، الى يمكن استغلال ضفته الشرقية فقط.

٢- وقوعها فى منطقة زراعية، وفيرة المياه، لغرض توفير الغلال والمواد الغذائية بسهولة.

٣- وقوعها فى وسط العراق، فقد ذكر المؤرخون أن أحد المقربين للمنصور قال له: "وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد، ومكة، وأنت قريب من البر والبحر والجبل".

٤- تقع على طرق المواصلات بين الشرق والغرب، إذ يمر طريق الحرير بها، ويتجه غرباً إلى سوريا، تجينك الميرة فى السفن الفراتية والقوافل من مصر والشام فى البادية، وتجينك الآلات من الصين فى البحر ومن الروم والموصل فى دجلة".

٥- تقع بين نهري دجلة والفرات، وتمتاز بموقع استراتيجي "وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدو إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر، واخربت القناطر، لم يصل إليك عدوك".

٦- حسن مناخها وطيب جوها مقارنة مع الكوفة والأنبار.

وقد خطط المنصور مدينة بغداد على شكل دائري، حيث يبعد المركز بإبعاد متساوية عن جميع نقاط السور، واستغرق بناء المدينة أربعة أعوام (١٤٥-١٤٩ هـ) وقد احضر لها المنصور المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والمساحة والفعلة والصناع من الشام والموصل والبصرة والكوفة، واراد المنصور أن يشاهد تخطيط المدينة فخطت، ووضعت عليها كرات القطن المغمور بالنفط، واشعلت فيها النار فتبين له تخطيطها.

وإذا لاحظنا تخطيط المدينة نشاهد ما يأتي:

١- خندقاً خارجياً يجرى فيه الماء عرضه ستة أمتار.

٢- سورا خارجياً من الطوب.

٣- فراغاً كبيراً عرضه ٣١ متر للزراعة، ويعرف بالفصيل الأول.

٤- سوراً آخر داخلياً أقوى وامتن من السور الأول بالسّمك والارتفاع والأبراج ارتفاع ٩٠ قدم، وعرض قاعدته ١٠٥ قدم، أما عرض القمة فيبلغ ٣٧ قدم

- ٥- فراغ ثان فيه السجن ومساكن الحاشية والقواد (يعرف بالفصيل الثاني)
٦- سوراً ثالثاً يحيط بالميدان.

٧- الميدان

وفى الميدان بنى المنصور قصره المسمى بقصر الذهب، وبنى فوقه القبة الخضراء، ويجوار القصر بنى الخليفة المسجد الجامع وأقام على جانبي الميدان قصور الأمراء ودواوين الحكومة المختلفة مثل بيت المال، وديوان الرسائل، ديوان الخراج، ديوان الجند، خزائن السلاح.

وكان فى كل سور من أسوار المدينة الثلاثة أربعة أبواب حديدية مزدوجة كل باب عبارة عن بابين باب خارجى وباب داخلى، وبينهما دهليز ورجبة، والأبواب الخارجية مزورة عن الأبواب الداخلية، وعدد هذه الأبواب هى:-

١-باب الشام يقع فى الشمال الغربى.

٢-باب البصرة يقع فى الجنوب الشرقى.

٣-باب خراسان يقع فى الشمال الشرقى.

٤-باب الكوفة يقع فى الجنوب الغربى

وقد جلب أبو جعفر المنصور أبواب الحديد من واسط والشام والكوفة ليقيمها فى بغداد، وأقيمت الأسواق فى بداية الأمر على الطرق الرئيسية فى مدينة بغداد.

ثم أخرج المنصور الأسواق وأصحاب المهن إلى خارج مدينة بغداد لأسباب أمنية، إلى منطقة الكرخ، وبنى لهم مسجداً جامعاً وقسم السوق فى الكرخ حسب المهن والصناعات "فكل أهل تجارة منفردون بتجارتهم، وكل أهل مهنة معزلون عن طبقتهم".

ثم أخذ أبو جعفر المنصور معسكراً للجيش العباسى فى رصافة بغداد لتكون مقراً لابنه المهدي، وربطها ببغداد، عبر ثلاثة جسور عقدت على نهر دجلة، وخصوصاً بعدما شغب الجند على الخليفة فى بغداد.

* بناء سامراء

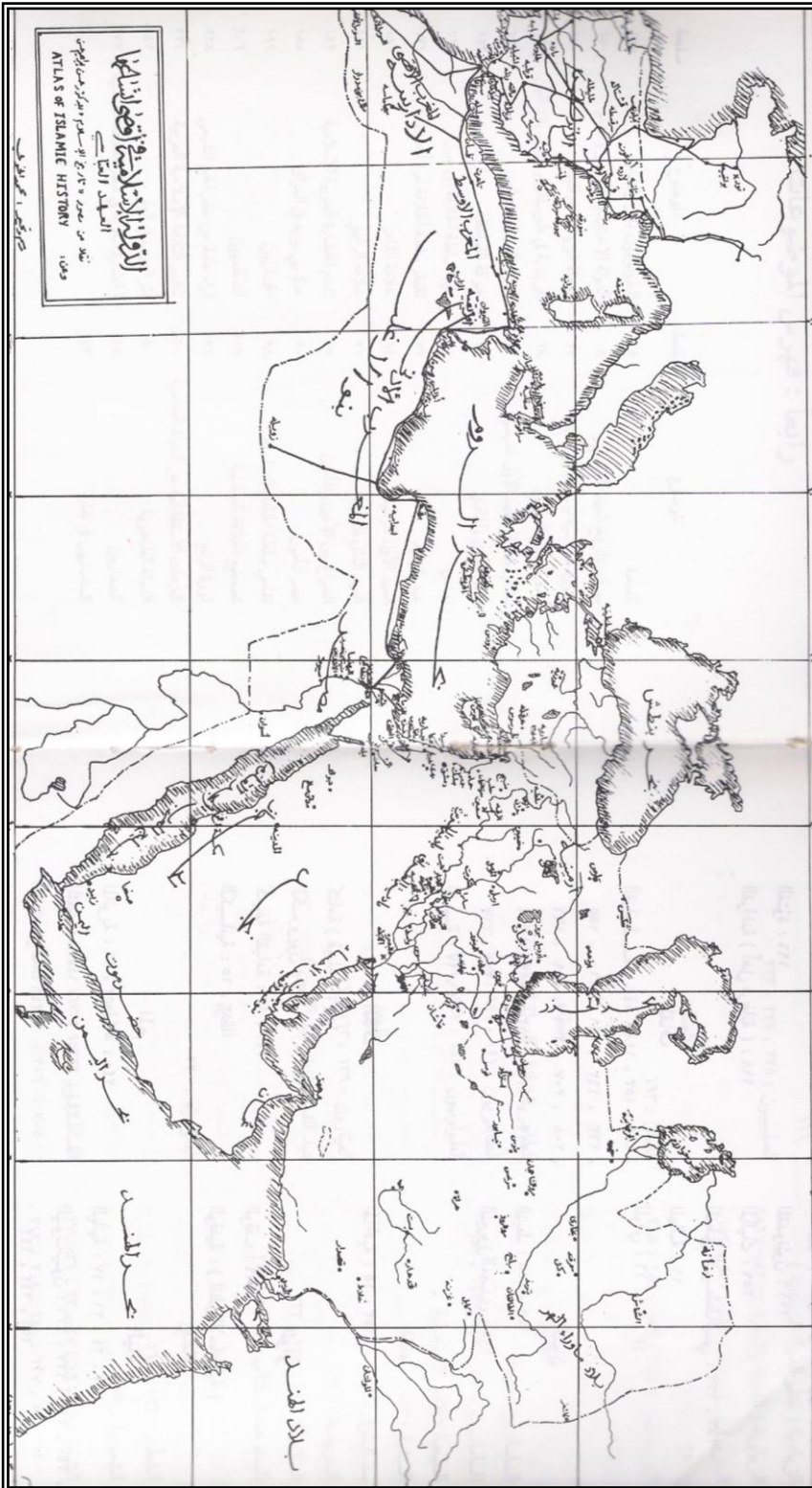
لقد تم استخدام الجند التركي، منذ بداية الدولة العباسية ولكن بمجئ المعتصم ازداد استخدامهم بالجيش، ويبدو أن المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤١م) قد خاف من الأبناء (أبناء أهل خراسان، ويسمون أيضاً أبناء أهل الدعوة، ويسمون أيضاً بأنصار الدولة أو الشيعة العباسية). الذين قدر عددهم بـ ٥٠٠٠٠٠ مقاتل ما بين فارس وراجل، وهؤلاء قد لعبوا دوراً في النزاع بين الأمين والمأمون، ونتيجة لمجئ هؤلاء الترك وتسجيلهم في الديوان، حدث التصادم والصراع بين هاتين الكتلتين.

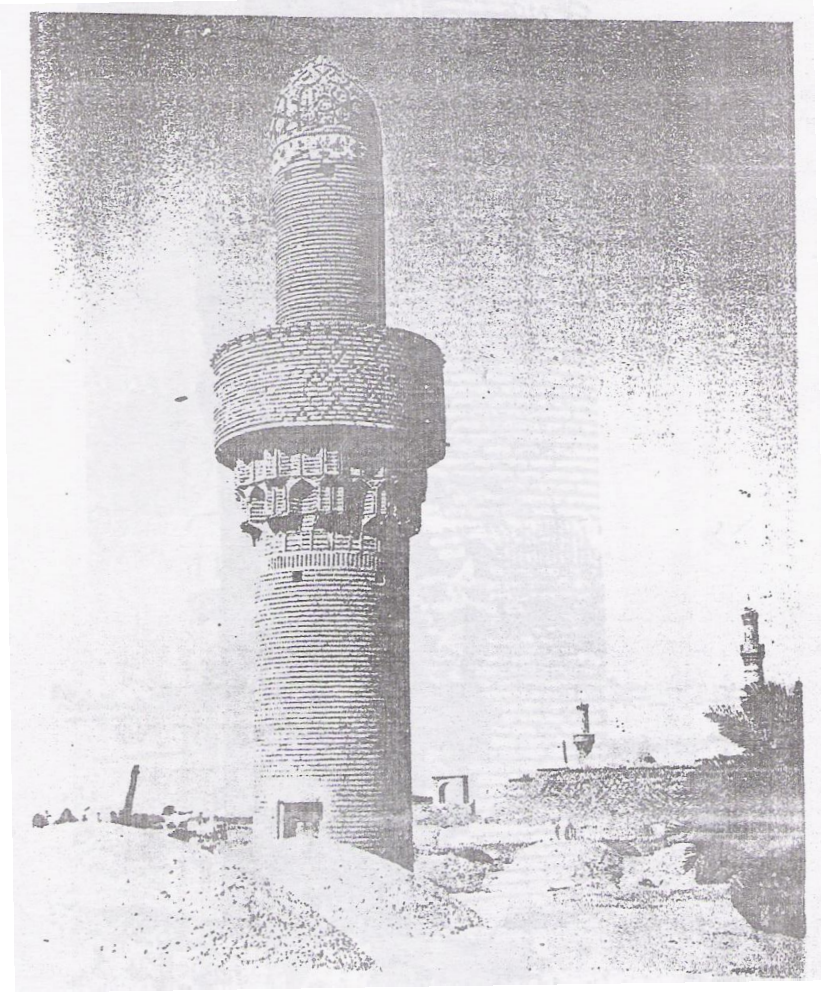
وقد عبر المعتصم عن مخاوفه من هذا التصادم فأشار ابن الأثير إلى هذا فقال: "وفي هذه السنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م خرج المعتصم إلى سامراء لبنائها، وكان سبب ذلك أنه قال: "إنى اتخوف هؤلاء الحربية، أن يصيحوا صيحة فيقتلوا غلمانى، فأريد أن أكون فوقهم، فإن رابى منهم شئ اتيتهم فى البر والماء حتى أتى عليهم".

وقيل كان سبب ذلك أن المعتصم، كان قد أكثر من الغلمان الأتراك، فكانوا لا يزالون يرون الواحد بعد الواحد قتيلاً، ذلك أنهم كانوا جفاة يركبون الدواب فيركضونها إلى الشوارع، فيصدمون الرجل والمرأة والصبي، فيأخذهم الأبناء عن دوابهم، ويضربونهم وربما هلك أحدهم فتأذى بهم الناس، ثم أن المعتصم ركب يوم عيد "فقام إليه شيخ، فقال له: "يا أبا اسحاق، فاراد الجند ضربه فمنعهم وقال: يا شيخ مالك مالك؟ قال: لا جزاك الله عن الجوار خيراً، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا، فايتمت صبياننا، وارملت بهم نسواننا، وقتلت رجالنا، والمعتصم يسمع ذلك، فدخل منزله، ولم ير راكباً إلى مثل ذلك اليوم.

ويقول يا قوت الحموى: "أن أهل بغداد قد حذروا المعتصم من مغبة بقائه فى بغداد وقال له: "أما أن تخرج من بغداد، فإن الناس قد تأذوا بعسرك، أو نحارك".

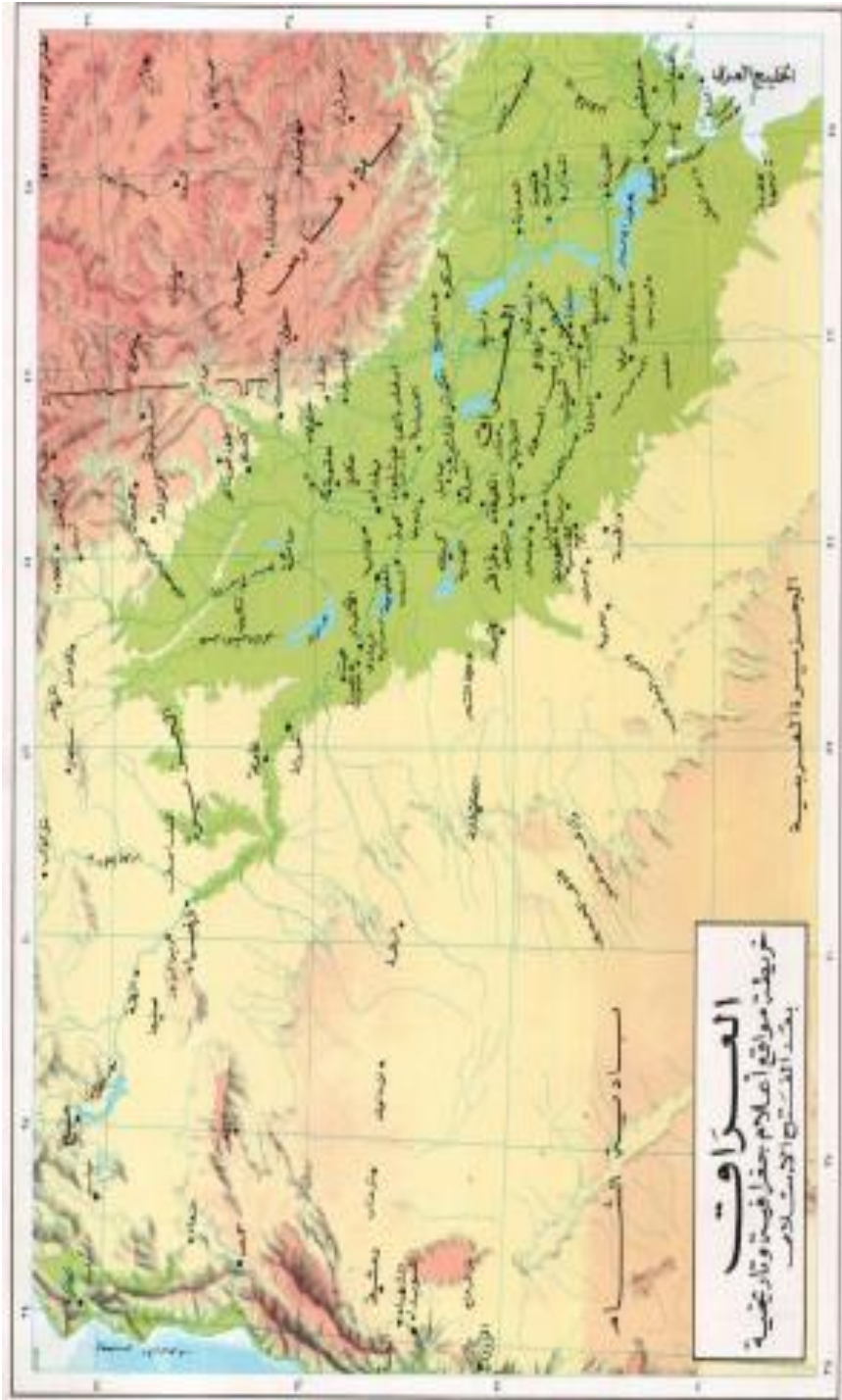
وتبعد سامراء عن بغداد بأكثر من ١٠٠ كم إلى الشمال منها، وبنى فيها المعتصم القصور والمنازل، ومن آثارها الشاخصة اليوم مئذنة جامعها الكبير التي تعرف اليوم بالملوية، وكذلك جدران المسجد الجامع. وقد تم تخطيط مسجدها الجامع والقصر والمعسكر والسوق سنة ٢٢١هـ وبقيت عاصمة للعباسيين إلى سنة ٢٨٩هـ. حيث انتقل منها المعتضد، وعاد إلى بغداد، وقد سميت المدينة بأسماء عديدة منها العسكر، أو سر من رأى، ولما خربت قيل لها ساء من رأى، والهدف من بنائها هو عسكرى بحت.





مئذنة جامع الخفافين

عبد الله كامل موسى: العباسيون وآثارهم المعمارية





ابن الأبار: (أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي): كتاب الحلة السيرة، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، ج ١، القاهرة، ١٩٦٣.

الإبشيهي: (شهاب الدين أحمد) : المستطرف من كل فن مستظرف ج ١، القاهرة ١٣٥٢هـ.

الأنليدي: إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، القاهرة ١٣٠١هـ.

ابن الأثير: (عز الدين) الكامل في التاريخ، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

الإربلي: خلاصة الذهب المسبوك، بغداد ١٩٦٤م.

الأصم فهانى: (أبو الفرج) مقاتل الطالبين، بيروت ١٩٦١.

ابن أيبك: درر التيجان في غرر تواريخ الأزمان، مخطوطة، رقم ٤٤٠٩ بدار الكتب المصري.

الباروني: (أبو الريح) مختصر تاريخ الإباضية، تونس ١٩٣٨.

البغدادي: (الخطيب): تاريخ بغداد، القاهرة، (١٤ جزءاً) ١٩٣١.

البغدادي: (عبد القادر بن طاهر): الفرق بين الفرق، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة.

البغدادي: (محمد بن الحسن): كتاب الطبخ، تحقيق الدكتور داود الحلبي، الموصل، ١٩٣٤.

البيكري: (أبو عبيدالله): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر، ١٩١١.

- البكرى: معجم ما استعجم (٤ أجزاء) القاهرة ١٩٤٥-١٩٥١.
- البيرونى: أبو الريحان محمد: الآثار الباقية عن القرون الخالية
ليبيج ١٨٧٨م.
- البيهقي: (محمد بن حسن): تاريخ ألبهقي، ترجمة دكتور
يحيى الخشاب وصادق نشأت، القاهرة، ١٩٥٦م.
- النوحي: الفرغ بعد الشدة، ج ٢، القاهرة ١٩٥٥م.
- الجواحيظ: (أبو عمرو): كتاب التبصير بالتجارة، تحقيق الأستاذ
حسن حسنى عبد الوهاب، بيروت ١٩٦٦م.
- التاج فى أخلاق الملوك، القاهرة ١٩١٤م.
- البيان والتبيين، ج ٣، القاهرة، ١٩٣٣، ج ١، طبعة
بيروت ١٩٦٨م.
- رسالة فى المشارب والمشروب، بيروت ١٩٦٩م.
- المحاسن والاضداد بيروت ١٩٦٩م.
- الجزنائى: (أبو الحسن على) : كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة
فاس، نشره الفريد بل، الجزائر، ١٩٢٢م.
- الجهشيارى: (أبو عبدالله محمد بن عبدوس): كتاب الوزراء والكتاب،
تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد
الحفيظ شلبي، القاهرة ١٩٣٨م.
- ابن الجوزى: (أبو الفرغ عبدالرحمن): المنتظم فى تاريخ الملوك
والأمم، ج ٥، طبعة حيدر آباد الدكن، ١٣٥٨هـ.
- ابن الجوزى : ذم الهوى، القاهرة ١٩٦٢.

ابن خرداذبه: أبو القاسم عبدالله: المسالك والممالك، تحقيق غويه،
ليدن ١٨٨٩.

ابن الخطيب: (لسان الدين) أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام
من ملوك الإسلام، تحقيق الدكتور أحمد مختار
العبادى والأستاذ محمد إبراهيم الكنانى، الدار
البيضاء، ١٩٦٤.

ابن خلدون: (عبدالرحمن بن محمد): المقدمة طبعة بيروت
١٩٦١، وطبعة القاهرة ١٩٦٦هـ.

ابن خلدون: كتاب العبر وديون المبتدأ والخبر، ج٤، طبعة
بيروت، ١٩٥٧م.

ابن خلکان: (أبو العباس أحمد): وفيات الأعيان وأنباء أنباء
الزمان، ج٥، طبعة القاهرة ١٩٤٨.

ابن دقماق: (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلانى): كتاب الانتصار
لواسطة عقد الأمصار، طبعة بولاق ١٣١٠هـ.

الدينورى: (أبو حنيفة أحمد): الأخبار الطوال، تحقيق الأستاذ
عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦٠.

الذهبي: (الحافظ شمس الدين محمد): العبر فى خبر من غير
تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، الكويت ج١،
١٩٦٠.

الزبيدي: (محمد المرتضى): تاج العروس، ج٣، القاهرة،
١٣٠٦هـ.

ابن الساعى: (تاج الدين على): نساء الخلفاء المسمى جهات
الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، تحقيق الدكتور
مصطفى جواد، القاهرة، عدد ٣٨ من سلسلة ذخائر
العرب.

١٣٥٠هـ.

ابن الفقيه الهمذاني: أبو بكر أحمد: مختصر كتاب البلدان، تحقيق دى غويه، لندن ١٨٨٥م.

الفيروزآبى: القاموس المحيط القاهرة، ١٣٤٤هـ.

ابن قتيبة: (أبو محمد عبدالله: الإمامة والسياسة، ج ٢ القاهرة).

ابن قتيبة: الشعر والشعراء، القاهرة ١٩٣٢م.

القزوينى: زكريا بن محمد: أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م.

ابن القفطى: جمال الدين أبو الحسن: تاريخ الحكماء لبيزج ١٩٠٣م.

القلقشندى: (أبو العباس أحمد: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ج ٥، القاهرة، ١٩١٣).

ابن القوطية: محمد القرطبي: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق دون خليان ريبيرا مدريد، ١٨٦٨.

ابن قيم الجوزية: شمس الدين أحمد: كتاب أخبار النساء، بيروت ١٩٦٤م.

الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف كتاب الولاة وكتاب القضاة طبعة رفن جست بيروت ١٩١٣.

المأوردى: (أبو الحسن على): الأحكام السلطانية، مصر ١٢٨٩هـ.

المسعودى: أبو الحسن على: مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢، القاهرة ١٣٤٦هـ و ج ٣، طبعة بيروت دار الأندلس.

المسعودى: التنبيه والإشراف، بغداد ١٩٣٨.

المقدسى البشارى: شمس الدين أبو عبدالله محمد: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، لندن، ١٩٠٦.

المقريــــــــــــــــــــى زى: (تقى الدين أحمد): كتاب المواعظ والاعتبار بذكر
الخطط والآثار، طبعة بولاق، ١٢٧٠هـ

المقريــــــــــــــــــــى زى : شذور العقود فى ذكر النقود، تحقيق الطباطباني،
النجف ١٣٥٦هـ.

ابن منظــــــــــــــــور : لسان العرب طبعة صادر، بيروت ١٩٥٥-١٩٥٦.

مجهــــــــــــــــــــول: أخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس، نشرة لافونتى
القنطرة، مدريد ١٨٦٧.

مجهــــــــــــــــــــول : رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، ج١، القاهرة
١٩٢٨م.

مجهــــــــــــــــــــول: أخبار الدولة العباسية، تحقيق الدكتور عبد العزيز
الدورى، بيروت ١٩٧١م.

النجفــــــــــــــــــــى : (على بن الحسين الهاشمى) : تاريخ الأنبار، بيروت
١٩٧٢.

النعــــــــــــــــــــمان: (القاضى أبو حنيفة بن محمد) قضية إقريطش فى
عهد المعز لدين الله، تحقيق فرحات الدشرأوى.
حوليات الجامعة التونسية، العدد الثانى ١٩٦٥م.

النــــــــــــــــــــوبختى: (أبو محمد السحن): كتاب فرق الشيعة، استنبول
١٩٣١م.

النويرى السكندرى: (محمد بن قاسم): الإمام بما جرت به الأحكام
المقضية فى وقعة الإسكندرية، نسخة مصورة من
المخطوطة، نسخة الهند، المحفوظة بمكتبة كلية
الآداب جامعة الإسكندرية، برقم ٧٣٨م.

ياقوت الحموى: (شهاب الدين أبو عبيدالله): معجم البلدان، ٥
مجلدات، طبعة بيروت ١٩٥٥.

اليقوت الحموى: (أحمد بن جعفر): تاريخ اليعقوبى، ٣ أجزاء طبعة
النجف ١٣٥٨هـ.

ثانيا المراجع الحديثة:

أرسلان الأستاذ شكيب: تاريخ غزوات العرب.

أظهر (القاضى مباركورى): العرب والهند فى عهد الرسالة، ترجمة عبد
العزيز عزت، القاهرة ١٩٧٣.

أمين (الأستاذ أحمد): ضحى الإسلام، ج ١، القاهرة ١٩٥٢م.

أمين (دكتور) حسين: سامراء فى ظل الخلافة العباسية، بغداد ١٩٦٨
براون إدوارد.

بروفنسسال: الإسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور
السيد عبد العزيز سالم، القاهرة، ١٩٥٨م.

بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة د. أمين
فارس، ومنير ألبعلكى، بيروت ١٩٤٩م.

ألبستانى (الدكتور فؤاد أفرم): أصل اسم بغداد، مجلة الشرق، عدد ٤،
بيروت سنة ١٩٣٤.

ابن تأويت (الأستاذ محمد دولة الرستميين: مقال بصحيفة المعهد المصرى
الطنجى: بمدريد، المجلد الخامس ١٩٥٧م.

١٩٩٥ م.

رستم (الأستاذ الأسد): الروم والعرب، ج ١، بيروت ١٩٥٦.

الرئيس (دكتور محمد ضياء) النظريات السياسية الإسلامية، القاهرة .
الدين):



فهرس المحتويات

الفصل الأول

قيام الدعوة العباسية

- أولاً: الأوضاع السياسية قبل قيام الدولة العباسية:
 ١١-٣ الأُمويون وموقفهم من التعصب القبلي (بين القيسية واليمينية) .
 ٥ الشيعية وموقفهم من الدولة الأموية .
 ٦ الخوارج وموقفهم من الدولة الأموية .
 ٧ الموالي وموقفهم من الدولة الأموية .
 ٧ نظام الوراثة فى الدولة الأموية .
 ٩ حياة اللهو والمجون .
 ١٠ قيام الفرق الدينية .
 ١٠ المرجئة .
 ١١ المعتزلة .
 ٢٩-١٢ ثانياً: قيام الدعوة العباسية (رؤية جديدة)
 الفصل الثاني

خلفاء العصر العباسى الأول

- ٤٤-٣٣ أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي (١٣٢-١٣٦هـ/٧٥٠-٧٥٤م)
 ٦٣-٤٤ أبوجعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م)
 ٦٧-٦٤ محمد المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م)
 ٧٢-٦٨ موسى الهادي بن المهدي (١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م)
 ٧٦-٧٣ هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م)
 ٨٢-٧٧ محمد الأمين (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٩-٨١٣م)
 ٩٣-٨٣ عبدالله المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م)
 ٩٧-٩٤ محمد المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م)

-٩٨
١٠٠

هارون الواثق بالله (٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤٢-٨٤٧م)

الفصل الثالث

العصر العباسي الثاني

عصر الدويلات المستقلة

* الخلافة العباسية في مرحلة التدهور (٢٣٢-٦٥٦هـ / ٨٤٧-

(١٢٥٨م)

-١٠٠

* الدول المستقلة في بلاد المغرب:

١٠٣

- دولة الأدارسة (١٧٢-٣٧٥هـ/٧٨٨-٩٨٥م):

١٠٢

- دولة الأغالبة: (١٨٤-٢٩٦هـ / ٨٠٠-٩٠٩م):

١٠٣

-١٠٤

* الدول المستقلة في مصر والشام

١١٠

- الدولة الطولونية: (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م):

-١٠٤

١٠٥

- الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ / ٩٣٥-٩٦٩م)

-١٠٦

١١٠

* الدول المستقلة في المشرق الإسلامي :

-١١٠

١٢٠

- الدولة الظاهرية: (٢٠٥-٢٥٩هـ/٨٢٠-٨٧٢م)

-١١٠

١١٤

- الدولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٠هـ/٨٦٧-٩٠٣م)

١١٥

-١١٥

- الدولة السامانية (٢٦١-٢٨٩هـ / ٨٧٤-٩٩٩م)

١١٧

-١١٨

- الدولة الغزنوية (٣٥١-٥٨٢هـ/٩٦٣-١١٣٦م)

١١٩

* العلاقة بين الخلفاء العباسيين وسلطين السلاجقة

-١٢٠

١٢٢

- عصر نفوذ الأتراك ٢٣٢-٣٣٤هـ / ٨٤٧-٩٤٥م:

١٢٣

* صحوة الخلافة العباسية (٢٥٦-٢٨٩هـ / ٩٦٦-٩٩٨م)

-١٢٤

١٢٩

- عصر نفوذ البويهيين ٣٣٤-٤٤٧هـ / ٩٤٥-١٠٥٥م:

-١٣٠

١٣٣

- الإمبراطورية السلجوقية (٤٤٧-٥٩٠هـ / ١٠٥٥-١١٩٣م):

١٣٤

- السلطين السلاجقة العظام :

١٣٤

- طغرل بك (٤٣٢-٤٤٥هـ / ١٠٣٧-١٠٦٣م):

- ١٣٥
١٤٠ - ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ / ١٠٦٣-١٠٧٢م)
- ١٤٠
١٤٥ - ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ / ١٠٧٢-١٠٩٢م) :
- ١٤٥
١٤٧ - الصراع داخل البيت السلجوقي :
- ١٤٨
٢٥٢ - الخلافة العباسية في عصرها الأخير (٥٩٠-٦٥٦هـ / ١١٩٣-١٢٥٨م) :
- ١٥٢
١٦٤ * الخوارزميون والمغول
- ١٦٥
١٦٩ - سقوط بغداد وانهايار الخلافة العباسية
- الفصل الرابع
نظم الحكم والإدارة في عصر الدولة العباسية
- النظام الإداري :
- ١٧٣
١٧٦ : الخلافة :
- ١٧٧
١٧٩ : الوزارة :
- ١٨٠
١٨٢ - أنواع الوزارة في العصر العباسي :
- ١٨٣
١٨٦ * الحجابة
- * الدواوين :
- ١٨٩ - ديوان الرسائل .
- ١٨٩
١٩٠ - ديوان الخاتم .
- ١٨٩
١٩٠ - ديوان البريد .
- ١٩١
١٩٢ - ديوان الزمام أو الأزمة .
- ١٩٣
١٩٤ * النظام القضائي :
- ١٩٥
١٩٦ - النظر في المظالم .
- ١٩٧
١٩٨ - المحتسب .

-١٩٨
٢٠٠

- الشرطة .

الفصل الخامس الحياة الاجتماعية في العصر العباسي

٢٠٢
-٢٠٣
٢٠٥
-٢٠٦
٢٠٧
٢٠٧
٢٠٨
-٢٠٨
٢١٦
٢١٥
٢١٥
٢١٨
-٢١٧
٢٢٦

* طوائف السكان:

- المرأة:

- الطعام والشراب:

- الألعاب .

- الأعياد والمواسم والمواكب .

- مجالس الغناء والموسيقى في بغداد .

* التنظيمات العمرانية :

- مدينة بغداد .

- مدينة سامراء .

المصادر والمراجع



كتاب يضم تاريخ عصر
الخلافة العباسية فى
الحُميمة، وسقوط بنى أمية
، وحتى حكم خلفاء

بنى العباس فى العصر العباسى الأول وبناء
أعظم حاضرتين إسلاميتين فى العالم أجمع
وهما بغداد (دار السلام) فى عهد أبو جعفر
المنصور، سامراء أو (سر من رأى) فى عهد
المعتصم بالله العباسى.

ولم يغفل المؤلف النزعات
الاستقلالية عن الخلافة العباسية كالدولة
الطاهرية والصفارية والغزنوية فى المشرق
الإسلامى، ودولة الأدارسة فى المغرب العربى،
والدولة الطولونية والأخشيدية فى مصر
والشام .

وأولى المؤلف اهتماماً خاصاً بتقديم
الحضارة العربية الإسلامية فى عصر الخلافة
العباسية التى تمثل العصر الذهبى لحضارتنا
الإنسانية ، فتكلم عن نظم الحكم والإدارة فى
العصر العباسى واختتم بالحياة الاجتماعية
وأوضح فيها النزعة العربية والنزعة الفارسية

وبذلك فإن كتاب دراسات فى تاريخ الدولة
العباسية "رؤية جديدة" يقدم الكثير الطيب عن
تاريخ العباسيين وحضارتهم .